جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658هـ)

إعداد
فادي عبد الرحيم محمود عودة

إشراف
الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم

قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2010م

الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658هـ)

إعداد

فادي عبد الرحيم محمود عودة

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2010/7/12م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:	التوقيع
1. د. رائد عبد الرحيم/ مشرفاً ورئيساً	....
2. د. مشهور الحبازي/ ممتحناً خارجياً	....
3. د. عبد الخالق عيسى/ ممتحناً داخلياً	....

الإهـــداء

إلى الذين أناروا بدمائهم الطاهرة طريق الحرية والفداء..إلى شهداء الأمة الإسلامية.

إلى اللَّذيْنِ مهّدا لي طريق الخير والصلاح، فاقتبست من نورهما ما يوصلني إلى بر

الأمان، إلى الوالدين العزيزين...أطال الله عمرهما وبارك فيهما.

إلى إخوتي الأعزاء على قلبي

إلى من يبعثون الأمل والابتسامة في النّفس... إلى زوجتي الغالية...وأبنائي

الصّغار: أبرار، وأسامة، وولاء، وسرّاء، وبراء.

إلى كلّ من مدّ لي يد العون والمساعدة ... أقدم هذا العمل

الشكر والتقدير

أتقدّم بوافر الشّكر والامتنان من الدكتور رائد عبد الرحيم، المشرف على هذه الرّسالة، على ما قدّمه لي من نصح وإرشاد، ومتابعة وجهد طيب، بارك الله فيه وجزاه عني خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر من الدكتور عبد الخالق عيسى، والدكتور مشهور الحبازي، على تفضّلهما في قراءة رسالتي ومناقشتها.

وأتوجّه بجزيل الشّكر إلى كل العاملين في مكتبة جامعة النّجاح الوطنيّة، والجامعة الأردنيّة، ومكتبة بلدية طولكرم، على دورهم الفاعل في مساعدتي المتواصلة لاستكمال مادة البحث، فلهم مني الوفاء والتقدير.

جزى الله الجميع خير الجزاء

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658هـ)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة علمية أو بحث علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**اسم الطالب:**
Signature:	**التوقيع:**
Date:	**التاريخ:**

فهرس المحتويات

الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز(634-658هـ)

إعداد

فادي عبد الرحيم محمود عودة

إشراف

الدكتور رائد عبد الرحيم

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة موضوع " الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز (634-658هـ)"، إذ تعد هذه الدراسة حلقة من حلقات البحث الأدبي في تاريخ الآداب العربية، وتكشف النقاب عن حقبة ازدهر فيها الشعر في العصرين الأيوبي والمملوكي.

حاولت هذه الدراسة الوقوف على النشاط الشعري في ظل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز، منذ توليه السلطة من سنة 634هـ إلى سنة 658هـ، فاستقرأتْ أشعاره، وحصرتْ شعراءه، وشعرهم، وتناولتْ تلك الأشعار من الناحيتين الموضوعية، والفنية، ووقفت الدراسةُ على المجالس الشعرية في عهد الملك الناصر، وعلى ما كان يدور فيها من موضوعات، معتمدةً في ذلك على المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي، وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وأربعة فصول:

الفصل الأول: التعريف بالملك الناصر وظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده.

الفصل الثاني: الملك الناصر: شعره ومجالسه الشعرية

الفصل الثالث: الشعر في بلاط الملك الناصر – دراسة موضوعية

الفصل الرابع: الشعر في بلاط الملك الناصر – دراسة فنية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الأمين خير ناطق بلغة الضاد، القائل: "إن من البيان سحراً، وإن من الشعر حُكْماً"[1]، صلى الله عليه وعلى آله، وعلى أصحابه أجمعين، وبعد:

ازدهرت الحركة الأدبية في العصر الأيوبي ازدهاراً كبيراً، ووقف وراء ذلك الازدهار غير سبب, منها رعاية الملوك الأيوبيين لهذه الحركة، فقد كان بلاطهم مأوى لعدد كبير من الشعراء والأدباء، وكان بعضهم ممّن اشتهروا في الأدب وقول الشعر, مخلّفاً وراءه ديوان شعر, أو نتاجاً شعرياً ليس بالقليل, ومنهم على سبيل المثال الملك الأمجد [2]، والملك الناصر داود [3], والملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي, وهذا الأخير, تحدّثت المصادر عن شعره وشاعريته, ورعايته الحركة الشعرية في عصره, فذكرت أنّه قرّب إليه الأدباء والفضلاء، فكان يحاضرهم أحسن محاضرة، وعلى ذهنه شيء كثير من الأدب والشعر[4]، وشعره عذب رقيق مبثوث في ثنايا كتب الأدب والتاريخ والتراجم المتعلقة بتلك الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية، وتضيف المصادر أنّه كان ناقداً، يجتمع بالشعراء, ويحاورهم، وينقد أشعارهم, وكان يستقطبهم إلى بلاطه،

---

(1) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي: **سنن أبي داود**، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ج3، ص303، كتاب الأدب، باب ما جاء في الشعر.

(2) "بهرام شاه بن فرُّخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، السلطان الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر، ولي بعلبك بعد أبيه، كان أديبا فاضلا شاعرا، له ديوان شعر موجود بأيدي الناس، قتل بدمشق سنة 628هـ". الكتبي، محمد بن شاكر: **فوات الوفيات**، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1421هـ/2000م، ج1، ص 243. وديوانه مطبوع بتحقيق غريب محمد أحمد، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م

(3) " داود بن عيسى بن محمد بن أيوب (603-656هـ)، الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر، ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الكبير بن أيوب، كان حنفي المذهب فاضلا مناظرا ذكيا، له اليد البيضاء في الشعر والأدب، لأنه حصل طرفا جيدا من العلوم في دولة أبيه، ولي السلطنة بعد أبيه سنة 624هـ". الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص389. انظر المبيضين، فادي موسى: **الملك الناصر داود شاعراً**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 2005م.

(4) ابن واصل، محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1425هـ/2004م. ص283.

فيكرمهم, ويفرض لهم الرواتب السنيّة [1], مما دفعهم إلى الوفادة عليه، وقصــد مجلســه طلبــاً للرضا والمال. فراحوا يمدحونه, ويروّجون له ولسياسته، وينالون من خصومه، فكــان كهفهــم الذي يأوون إليه، ومن هنا كثر عدد الشعراء في بلاطه، وبعضهم كان من فحول الشــعراء فــي ذلك الزمن، مثل: الأمير سيف الدين المشد [2]، وشرف الدين الأنصاري[3]، والبهــاء زهيــر[4]، وغيرهم الكثير.

وعلى الرغم من شاعرية الملك الناصر، وازدهار الحركة الشعرية في بلاطه، إلا أنــه لا توجد دراسة علمية شاملة، تناولت شعره وتلك الحركة النشطة في بلاطه، فالدراســات الأدبيــة التي أشارت إلى تلك الحركة قدّمتها في سياق الحديث عن الشعر وأغراضــه فــي العصــرين الأيوبي والمملوكي، ومن هذه الدراسات:"الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلــب الشــهباء"،

---

(1) انظر الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، حــوادث ووفيــات (651-660هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1419هـ/1999م، ص402.

(2) علي بن عمر بن قزل بن يلمان بن صراقوش بن جلدك التركماني (602-656هـ)، ولد بمصر وتوفي بدمشق، كان فاضلا ظريفا، طيب العشرة، كثير الصدقات، متميزا، قال الشعر الرائق وله ديوان مشهور، تولى شد الــدواوين بمصــر ودمشق، وكان مقدما في دولة الملك الناصر. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص255. الذهبي: **تاريخ الإســلام**(651-660هـ)، ص275. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص112. وديوانه مطبوع بتحقيق مشهور عبــد الــرحمن الحبــازي، القدس، مركز التعاون والسلام الدولي، 2002م.

(3) عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي الأصل والمولد، الحموي الدار والوفاة (586-662هـ)، كان شيخا فاضلا، حسن الصورة، من حسنات الزمان ومحاسنه، تفقه وبرع في العلم والأدب، وكان من أذكياء بني آدم المعدودين، وله محفوظات كثيرة لا يجمعها ديوان، تقدم عند الملوك، وترسل عنهم غير مرة، وكانت لــه الوجاهة التامة، والمكانة المكينة. انظر اليونيني، قطب الدين محمد بن موسى: **ذيل مرآة الزمان**، القــاهرة، دار الكتــاب الإسلامي، 1413هـ/1992م، ج2، ص240. الذهبي: **تاريخ الإسلام** (661-670هـ)، ص102. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص685. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/2001م، ج18، ص546. ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج7، ص214.

(4) الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصــم الأزدي المهلبــي (581-656هـ)، ولد بمكة، ونشأ بقوص، وتوفي بالقاهرة، كان رئيسا فاضلا، كريم الأخلاق حسن العشرة غزير مروءة، وكان من فضلاء عصره، وأحسنهم نظما ونثرا وخطا، له ديوان مشهور، كتب الإنشاء للملك الصالح أيوب، ثــم اتصــل بخدمة الملك الناصر ومدحه، ثم فارقه ورجع إلى مصر. انظر ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بــن أبــي بكــر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1970م، ج2، ص332. ابــن واصــل: **مفرج الكروب**، ص238. الذهبي: **تاريخ الإسلام** (651-660هـ)، ص251.

لأحمد فوزي الهيب. وتناول فيه المؤلف الحياة الأدبية والفكرية في حلب طيلة حكم الأيـوبيين، وأورد بعض الأبيات الشعرية للملك الناصر، ولعدد من شعرائه. و"فن الرثاء في الشعر العربـي في العصر المملوكي"، لرائد عبد الرحيم. وتحدث فيه عن موضوع مهم تناوله الشعراء بكثـرة في ذلك الوقت، ومنهم الملك الناصر، وهو موضوع الرثاء, وبخاصة رثاء النفس، ورثاء المدن، فقد وقف عند الأشعار التي قالها الناصر عقب سقوط حلب سنة 658هـ بيد المغـول، وتنـاول الأشعار التي قيلت في رثاء هذا الملك. و"صورة المغول فـي الشـعر العربـي فـي العصـر المملوكي"، لرائد عبد الرحيم، وتناول أشعار بعض شعراء الملك الناصر عقب سقوط حلب بيـد المغول سنة 658هـ، وعلى رأسهم الصاحب كمال الدين بن العديم[1]، وأمين الدين السّليماني[2]، والسيف الشطرنجي[3]، وعرض أبياتاً للملك الناصر تصور حالته النفسية بعد أن أسره المغول، وأبياتاً في رثائه بعد أن قتله هولاكو قائد المغول. ولكن هذه الدراسات على الرغم مـن قيمتهـا الأدبية، لم تتطرق إلى الحديث بشكل مفصل عن الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر، ولذلك جاءت هذه الدراسة متممة لجهود أصحابها، ولتقدم صورة متكاملة عن شعره, ولتلقـي الضـوء على الحركة الشعرية في بلاطه من حيـث مجالسـه الشـعرية والنقديـة, وأشـهر شـعرائه, وموضوعاتهم الشعرية التي طرقوها في ذلك البلاط, ثم دراسة الشعر جميعه دراسة فنية.

وتعتمد هذه الدراسة المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي، فهي تقوم علـى اسـتقراء المادة الشعرية من مظانِّها المختلفة, ثمّ وصفها, ودراستها دراسة موضوعيّة وفنيّة, تتكئ علـى التاريخ وأحداثه ذات الصلة بالملك الناصر والحركة الشعرية في عصره.

---

(1) عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي (586-660هـ)، كان فقيها محدثاً حافظاً متفرداً بعلم الكتابة والخط، صاحب التصانيف الكثيرة، انتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر، ترسل عن الملوك فـي الشـام وبغـداد ومصر. انظر ابن الشعار الموصلي، كمال الدين أبو البركات المبارك: **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م، ج5، ص232. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص348. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص171.

(2) علي بن عثمان بن علي بن سليمان بن علي بن سليمان بن علي الإربلي الصوفي (602-670هـ)، كـان فاضـلا مقتدرا على النظم، من أعيان شعراء الملك الناصر، وكان أول عمره يخدم جنديا، ثم ترك وتنسك وتصوف، وصار مـن مشايخ الصوفية المشار إليهم. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص481. الذهبي: **تاريخ الإسلام** (661-670هـ)، ص310. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص236.

(3) لم أهتد إلى ترجمة له.

ولابد للبحث العلمي من صعوبات تعتري طريق الباحث، وكان أولها عدمُ وجود دراسة علمية شاملة متخصصة تناولت الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر, على الرغم من شاعريت قلة المصادر التي تناولت أشعار الملك الناصر، إذ اكتفى أكثرهم بالحديث عن ثقافته وعلمه والتنويه بأشعاره، دون ذكرها كاملة، معللة ذلك بأنها كتب تاريخ لا أدب [1]. وآلية جمع المادة؛ فهي مبثوثة في ثنايا كتب الأدب والتاريخ والتراجم، إذ كان من الصعب الاهتداء إلى تراجم بعض الشعراء المغمورين، الذين أُشيرَ إلى مكانتهم عند الملك الناصر، ولم يفصل المترجمون في الحديث عنهم. وصعوبة الحصول على بعض الكتب والدواوين الشعرية والمخطوطات ذات العلاقة بالموضوع. ولكن بفضل الله تعالى ذللت هذه الصعاب أمام الإصرار في البحث والكتابة عن هذا العصر، الذي ظلمه الكثير من الكتاب، إذ وصفوه – تسرعاً– بعصر الانحطاط والانحدار، على الرغم من نتاجه الضخم في العلوم المختلفة. فاعتمدت على ما توافر عندي من المصادر والمراجع، وعلى ما قدمه لي أستاذي الفاضل رائد عبد الرحيم من مصادر مهمة، حتى وفقني الله في استيفاء هذا البحث وإخراجه على هذه الصورة، وهذا بيان موجز لفصول الرسالة، وأهم ما جاء فيها:

الفصل الأول: خصص للتعريف الملك الناصر، وجوانب الحياة المختلفة في عهده: السياسية، والاجتماعية، والثقافية.

الفصل الثاني: تحدث عن شاعرية الملك الناصر، ومعرفته الأدبية الواسعة، ومساهمته الفاعلة في قول الشعر، وعن موضوعاته الشعرية، مثل: الغزل، والخمريات، والحنين والغربة، والإخوانيات، والرثاء، وتناول اهتمام الناصر بالحركة الشعرية ورعايته لها، وطُرق وصول الشعراء إليه. ثم الحديث عن مجالسه الشعرية والنقدية، وما يدور فيها من آراء، كان للناصر نصيب منها.

---

(1) انظر الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: **كنز الدرر وجامع الغرر**(الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1391هـ/1971م، ج8، ص59.

الفصل الثالث: تناول هذا الفصل الموضوعات الشعرية التي طرقها الشعراء في بـــلاط الملـــك الناصر، ورتبت المادة حسب حجم الشعر الذي قيل في الغرض الواحد، فكانت على النحو الآتي: المدح، فالغزل، فالرثاء، فشعر المناسبات، فالوصف، فالخمريات، فالشوق والحنـــين والغربـــة، فالعتاب فالاستعطاف فالشكوى، فالهجاء، فالاعتذار، فالشعر السياسي.

الفصل الرابع: وتناول الدراسة الفنية للشعر في بلاط الملك الناصر، فابتدأ بالحديث عـــن بنـــاء القصيدة، وأقسامها الرئيسة: المطلع، وحسن التخلص، والخاتمـــة، ثـــم درس اللغـــة الشـــعرية، فأساليب الشعراء، فالصنعة البديعية بقسميها: المحسنات اللفظية، والمعنوية. وأخيرا وقف عنـــد الصورة الشعرية، مصادرها وخصائصها ومميزاتها.

الخاتمة: عرض فيها أبرز النتائج، وما توصل إليه الباحث في هذه الدراسة.

وأخيرا أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به في الدنيا والآخرة، وأرجوه التوفيق والسداد فيه، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي، وما نحن إلا بشر نخطئ ونصيب.

الفصل الأول

التعريف بالملك الناصر وظروف الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عهده

الفصل الأول

التعريف بالملك الناصر وظروف الحياة

التعريف بالملك الناصر

هو يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن الناصر صلاح الدين الكبير[1]، وكان يكنى أبا المظفر[2]. انتهى بمقتله الحكم الأيوبي في بلاد الشام؛ إذ كان " آخر ملوك بني أيوب"[3] فيها.

ولد الملك الناصر بقلعة حلب يومَ التاسعَ عشرَ من شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة هـ[4]، وكان لمولده بالغ الأثر في نفس والده الملك العزيز، فقد " زين البلد، ولبس العسكر أحسن زيّ، وأظهر من السرور والابتهاج بمولده ما جاوز الحد "[5]. وهي عادة الملوك الأيوبيين في الابتهاج بالمواليد الذكور، لما في ذلك من تثبيت لدعائم ملكهم، وبقاء السلطة بسلالتهم.

أما عن صفاته وأخلاقه، فقد وصف الملك الناصر بأنه كثير التجمل في ملبسه ومأكله ومركبه ومماليكه، فلم يكن لأحد من السلاطين ما كان له من التجمّل بكثرة الطعام وغيره[6]،

---

(1) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص667. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص137. **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام، دمشق، وزارة الثقافة، 1992م، ج2، ص154.

(2) انظر ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج4، ص10. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص203.

(3) الكتبي، محمد بن شاكر: **عيون التواريخ**، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، العراق، دار الرشيد، 1980م، ج20، ص259.

(4) انظر ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج4، ص10. الذهبي: **تاريخ الإسلام(651-660هـ)**، ص401. الصالحي، محمد ابن طولون: **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد الدهمان، دمشق، 1401هـ/1980م، ج1، ص147. ابن العماد، عبد الرحمن بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، دار ابن كثير، 1412هـ/1991م، ج7، ص518.

(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص135.

(6) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص140. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص257. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص204.

حيث ذكر المؤرخون أنه كان يذبح في مطبخه كل يوم من المواشي والطيور ما لا يحصى، وفاق التصور، حتى بلغت موائده درجة عظيمة في التجمل الزائد[1]، وبلغت نفقات دار الطعمة عنده وما صاحبها من الحاجات في اليوم نحو عشرين ألف درهم[2].

كان الوازع الديني ظاهرًا في صفات الملك الناصر، فقد كان عفيفا طاهر اليد، أميناً على ما بيده من أملاك المسلمين وثرواتهم، ومن ذلك ما ذكره المؤرخون من أن " الفرنج قد ضمنوا له أخذ الديار المصرية، على أن يسلم إليهم القدس، ودار الأمر بين أن يعطي ذلك للمصريين أو للفرنج، فبذل ذلك للمصريين اتّباعاً لرضا الله تعالى، وقال: " والله لا لقيت الله وفي صحيفتي إخراج القدس عن المسلمين"[3]. ولقد احتاج في بعض أسفاره إلى المال، وكان بعيدا عن خزائنه، فرهن كل أملاكه، ولم يتعرض للفائض من مال الوقف في دمشق وحلب، على الرغم من قدرته على ذلك[4].

كانت علاقته مع الرعية جيدة حسنة، فقد كان يحسن الظن بالفقراء والصالحين، يكرمهم ويحسن إليهم، ويزورهم في بيوتهم[5]، وكان يعدل بين الرعية ويكره الظلم؛ إذ الحِلم والصفح من سجاياه، يتجاوز عن الإساءة، فلا ينتقم لنفسه، وحدث أن وقعت ورقة في يده فيها سب وشتم له، فأمر صاحبها أن يخرج من دمشق، ولم يؤاخذه على فعلته[6]، وبلغه عن بعض الفقراء من الجند أنه شتمه، "فأحضره ليؤدبه، فلما رأى وجله، رقّ له، وأمر له بذهب، وقال: ليرجع بهذا قلبك ثم نعتبك، فلما اطمأن صرفه ولم يؤاخذه"[7]. حتى بلغ صفحه عن الناس درجة قصوى، وكاد أن يفسد نظامه، فلم يقم الحد على أصحاب الجنايات، كالسارق والقاتل، بل كان يقول إذا

---

(1) انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص137. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، تحقيق مديحة الشرقاوي، مصر، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ/1996م، ص373.

(2) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص141. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص137.

(3) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص668. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص138.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص668. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص138.

(5) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص142. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص258.

(6) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص141-142.

(7) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص668. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص138.

أحضر القاتل بين يديه: الحي خير من الميت، ويخلي سبيله[1]، ولكن هذا ينم صفة سيئة عند الناصر لتهاونه في معاقبة الجناة وتعطيل حدود الله.

وكان الملك الناصر كريماً معطاءً كثير النفقات على رعيته، مما جعل الناس يحبونه ويعظمونه، وقد عهد عنه أنه كان يجلس في يومه من أول النهار إلى آخر الليل " يوقع على الأوراق، ويصل الأرزاق، وقيل: إنه خلع في أقل من سنة أكثر من عشرين ألف خلعة "[2].

ووسم الناصر بأنه بشوش الوجه، طيب الكلام والمحادثة، فلم يصدر عنه استعلاء أو فحش في القول لأي أحد كان من رعيته، بل " كان كامل الأوصاف جميل العشرة، طيب المحادثة والمفاكهة"[3]، والحقيقة أن هذا القول مبالغ فيه، لأن الكمال لله وحده.

أما عن صفاته الخَلقية، فهي قريبة من صفاته الخُلقية؛ إذ كان جميل الهيئة حسن المنظر مليح الشكل، إلا أن في عينيه حول[4].

الحياة السياسية في عهده

تولى الملك الناصر السلطة بعد وفاة الملك العزيز سنة634 هـ، وكان عمره سبع سنين، فقامت بالوصاية[5] عليه جدته لأبيه "ضيفة خاتون" ابنة الملك العادل، أخت الملك الكامل صاحب مصر[6].

---

(1) انظر الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص373.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص668. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص137. **تحفة ذوي الألباب**، ج2، ص157.

(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص140.

(4) انظر اليافعي، عبد الله بن سعيد بن علي بن سليمان: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ط1، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ/1970م، ج4، ص152. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص204. الصالحي: **القلائد الجوهرية**، ج1، ص148.

(5) انظر المراحل الثلاثة لفترة حكم الناصر: **دائرة المعارف الإسلامية**، ط1، ج31، ص9863، 1418هـ/1998م، مركز الشارقة للإبداع الفني، الشارقة.

(6) انظر ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي: **تاريخ ابن خلدون**، ط1، اعتنى به وراجعه درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، 1428هـ/2007م، ج2، ص1647. زامْباوَرْ، إدواردفون: **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، إخراج زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1951م، ص152.

كان الملك العزيز قد استحلف ــ في مرضه ــ لولده الملك الناصر، وأرسل الصاحب كمال الدين بن العديم إلى أخيه الملك الصالح[1] صاحب "عين تاب"[2]، ليأخذ البيعة منه على ذلك ويستحلفه لولده الناصر[3]. وقام بتدبير أمر المملكة مجلس الشورى المكون من أكابر الدولة، ومنهم الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني[4]، والوزير القاضي الأكرم جمال الدين القفطي[5]، وكان وكان هؤلاء يرفعون ما اتفقوا عليه إلى جدّة الملك الناصر، فإما أن تأذن لهم في عمله أو تخالفهم، فالأمر راجع إليها، وشؤون الدولة بيدها[6].

(1) "أحمد بن غازي بن يوسف بن أيوب، الملك الصالح ابن الملك الظاهر ابن السلطان الكبير صلاح الدين الأيوبي(600-651هـ)، عم الملك الناصر، كان أكبر من أخيه العزيز، وإنما أخروه عن سلطنة حلب لأنه ابن جارية، ولأن العزيز ابن ابنة الصاحبة بنت العادل، كان مهيباً وقوراً متجملا وافر الحرمة". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج7، ص276.

(2) عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وهي من أعمال حلب. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية ، ج4، ص199.

(3) انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد: **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق خليل المنصور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م، ص485.

(4) الأمير الكبير شمس الدين ، أبو سعيد الأميني، الموصلي، مدبر مملكة حلب، وكافل الممالك الشامية(585-648هـ)، 648هـ)، كان بطلا شجاعا كريما ديّنا عابدا، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. انظر الذهبي: **تاريخ الإسلام** (641-650هـ)، ص399. العيني: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1407هـ/1987م، ج1، ص48. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص21.

(5) علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى(560-646هـ)، الوزير القاضي الأكرم، أحد الكتاب المشهورين، وصاحب التصانيف الكثيرة، ولد بقفط في صعيد مصر، وتوفي بحلب. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج5، ص9. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص164.

(6) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص487. أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود: **المختصر في أخبار البشر**، تحقيق محمود ديوب، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م، ج3، ص158. الذهبي: **تاريخ الإسلام**(651-660هـ)، ص401. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص667. **عيون التواريخ**، ج20، ص257. اليافعي: **مرآة الجنان**، ج4، ص152. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه وضبط حواشيه محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956م، ج1، ق1، ص253. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص 364. ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: **صدق الأخبار**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، لبنان، جروس برس، 1413هـ/1993م، ج1، ص309. الصالحي: **القلائد الجوهرية**، ج1، ص147. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص518.

واتفق رأي الجماعة على تسيير رسولَيْن إلى الملك الكامل[1] في مصر، ليحلف لهما للملك الناصر، فأظهر لهما الحزن على موت الملك العزيز، إلا أنه قصَّر في ضيافتهما وإكرامهما، واشترط أن يكون الملك الصالح بن الملك الظاهر مقدما للعسكر، وراعياً للملك الناصر في صغره[2]، فتلقت الصاحبة ضيفة خاتون وأمراء حلب هذين الشرطين بالرفض، واتخاذ الحيطة والحذر من الملك الكامل. لا سيما أنه أرسل خلعة للملك الناصر بغير مركوب، وعدة خلع لأمراء حلب، وبعث خلعة مع رسول بمفرده إلى الملك الصالح صاحب "عين تاب"، مما زاد توجس الجماعة من نوايا الملك الكامل تجاه حلب. "واتفق الرأي على أن يلبس الملك الناصر خلعته، وقضت الصاحبة أن لا يلبس أحد من الأمراء خلعته، ومُنعَ رسول الملك الصالح من الوصول إليه"[3].

وعصفت بحلب في هذه الحقبة أمور عصيبة بسبب علاقتها المتوترة مع ملوك بني أيوب في الشام ومصر، والأخطار الخارجية التي هددت استقرارها وأمنها، وتمثّلت بالخوارزمية[4] ثم الفرنج والتتار لاحقاً، ناهيك عن الفتنة الداخلية التي حدثت في الدولة بعد موت الملك العزيز، فكانت حلب في هذه المرحلة- شأنها شأن الممالك الأخرى - تواجه أمورا صعبة على الصعيدين الداخلي والخارجي. أما الداخلي، فحدث أن سيَّر شهاب الدين[5] صاحب شيزر[6]، وكمال الدين عمر بن

(1) "محمد بن محمد بن أيوب بن شادي بن مروان، الملك الكامل ناصر الدين، وأبو المعالي وأبو المظفر، ابن الملك العادل(576-635هـ)، تملك الديار المصرية أربعين سنة، شطرها في أيام والده، عمّر دار الحديث بالقاهرة في سنة 621هـ، وجرَّ إليها الماء من بركة الحبش إلى حوض السبيل والسقاية، وله المواقف المشهودة في الجهاد بدمياط المدة الطويلة، وأنفق الأموال الكثيرة، وكان يحب أهل العلم ويجالسهم، ويُؤْثِر العدل". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص193.

(2) انظر ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص487.

(3) ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص488. انظر المقريزي: **السلوك**، ج1، ق1، ص253. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص364.

(4) الخوارزمية: هم بقايا الدولة الخوارزمية التي انتهت وانهارت سنة616هـ، بعد أن دهمها التتار واحتلوها، ووفاة ملكهم خُوارزم شاه سنة617هـ، ومقرها إيران وأفغانستان. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص452-455. ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، 1386هـ/1966م، ج12، ص370. الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (611-620هـ)، ص25. عطية الله، أحمد: **القاموس الإسلامي**، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1386هـ/1966م، ج2، ص294.

(5) شهاب الدين يوسف بن مسعود بن سابق الدين بن عثمان بن الداية، تملك شيزر بعد موت أبيه مدة من الزمن، إلى أن أن أخذها منه الملك العزيز سنة630هـ. انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج3، ص152-153.

(6) شيزر: مدينة قديمة، وقلعة بالشام، من أعمال حمص، بينها وبين حماة يوم. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص434. الحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975م، ص352.

العجمي[1] رجلا يقال له العز بن الأطفاني[2]، إلى الملك الأشرف[3] في دمشق، بهدف قصد حلب وتملكها، على أن يساعداه بأموالهما، وأوهماه أن معظم أمراء حلب وجماعة كبيرة من الحلبيين يوافقونه على ذلك. إلا أن الملك الأشرف رفض هذه الفكرة، لأنها تنطوي على غدر وعمل قبيح تجاه ذرية الملك الظاهر[4].

ومنها أن أحد أمراء التركمان ويدعى قنغر [5]، تمرد في أطراف حلب، فعاث في الأرض فساداً ونهباً، وكان يلتجئ إلى بلاد الروم، فتصدى له عسكر حلب إلا أنه تغلب عليهم، ونهب ما بحوزتهم، ما أدى إلى إرباك حلب، وتخوّفِ أمرائها من أن تكون أعمال ذلك الأمير بأمر من "كيقباذ" [6] ملك الروم، ولكن الأخير بعد علمه بالأمر أنكر هذه الأعمال، وردَّ ما نهب من حلب، وكفّ أيدي التركمان عن العبث والفساد، وتعهد بالنصرة للملك الناصر، وبالذبّ والكفّ عنه، فبادرت الصاحبة ضيفة خاتون بإرسال هدية قيِّمة لملك الروم، تقديرا منها لما تعهد به [7]، وبعد فترة وجيزة استمالت حلب الأمير " قنغر" التركماني، وجُعِلَ مقدَّماً على التركمان، واستخدم في مواجهاتها الخارجية[8].

---

(1) "كمال الدين أبو هاشم، عمر بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن الشافعي(577-642هـ)، من بيت علم وسيادة بحلب، تفقه وسمع الحديث، وكان ذا وسواس في المياه". الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1410هـ/1990م، ج23، ص115.

(2) لم أهتد إلى ترجمة له.

(3) أبو الفتح موسى ابن الملك العادل بن أيوب، الملك الأشرف مظفر الدين(578-635هـ)، كان أول ملكه من البلاد مدينة الرها، وآخرها دمشق، وكان كريما حليما واسع الصدر، كريم الأخلاق، كثير العطايا، لا يوجد في خزائنه شيء من المال مع اتساع مملكته، وكان محبوبا إلى الناس مسعودا، مؤيدا في الحروب من يومه. انظر ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج5، ص330. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج6، ص300.

(4) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص489. المقريزي، تقي الدين: **المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1411هـ/1991م، ج4، ص87. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص 364.

(5) لم أهتد إلى ترجمة له.

(6) السلطان علاء الدين كيقُباذ بن كيخسرو بن قِلِج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قُتُلمش السَّلجوقي، كان شجاعا مهيبا وقورا سعيدا، هزم خوارزم شاه، واستولى على عدة مدائن، وكسر الملك الكامل، واستولى على بلاد الشرق، وكان عادلا منصفا، ما وقف له مظلوم إلا وكشف ظلاميته، توفي سنة634هـ. انظر الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص24. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج6، ص297.

(7) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص490.

(8) انظر المصدر السابق: ص493.

أما عن علاقة حلب بالخوارزمية، فكانت عدائية بسبب ما كان يصدر عنهم من العبث والفساد في أطراف حلب، فكثيراً ما كانت تحدث مواجهات بينهم، وكان أولها في عهد الناصر سنة 638هـ، إذ تصدى لهم الجيش الحلبي مدافعاً عن أطراف حلب، إلا أنه انهزم أمام جموعهم الكثيرة، وقتل منه خلق كثير، وأسر قائد العسكر المعظم توران شاه[1]، واستولى الخوارزمية على أثقالهم. إلا أن الحلبيين حملوا عليهم ثانية بالاستعانة بملوك كلٍّ من حمص ودمشق والموصل، فولّى الخوارزمية منهزمين، واستولى عسكر حلب على معاقلهم كلها[2]. وفي سنة 640هـ عادت الخوارزمية للاعتداء على حلب، فخرج لهم عسكر حلب، وحدثت بين الفريقين معركة عند المِجدل[3]، أسفرت عن هزيمة الخوارزمية وحلفائهم، والاستيلاء على كل ما يملكونه يملكونه في عسكرهم[4].

وكانت آخر حروب حلب مع الخوارزمية سنة 644هـ، إذ تحالف الصالح إسماعيل[5] والناصر داوودمع الخوارزمية، ضد الملك الناصر والملك الصالح أيوب[6]، ودارت معركة بين التحالفين على القصب[7]، انتهت بهزيمة الخوارزمية، فتفرق شملهم في البلاد، ولم تقم لهم قائمة بعدها [8].

---

(1) "الملك المعظم أبو المفاخر توران شاه ابن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب(577-658هـ)، آخر من بقي من إخوته، كان الملك الناصر يوسف يتأدب معه، ويجله لأنه أخو جده، فكان يتصرف في الخزائن والمماليك، وكان فارسا شجاعا عاقلا داهية، وكان مقدم العساكر الحلبية من دهر". الذهبي: **سير أعلام النبلاء،** ج23، ص358. انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات،** ج10، ص443. ابن تغري بردي: **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي،** القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م، ج4، ص180.

(2) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب،** ص501-508. أبو الفداء: **المختصر،** ج3، ص168.

(3) المِجدل: اسم بلد طيب بالخابور من أرض الجزيرة، إلى جانبه تل عليه قصر، وفيه أسواق كثيرة وبازار قائم. ياقوت ياقوت الحموي: **معجم البلدان،** ج5، ص67.

(4) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب،** ص511ـ512. أبو الفداء: **المختصر،** ج3، ص170.

(5) إسماعيل بن محمد بن أيوب، الملك الصالح عماد الدين أبو الجيش ابن الملك العادل، كان ملكا عاقلا حازما، تقلبت به به الأحوال أطواراً كثيرة، ملك بعلبك وبصرى، وملك دمشق أياما بعد موت أخيه الأشرف، وبدت منه هناتٌ، واستعان بالفرنج على حرب أخيه الكامل، وأعطاهم حصن الشقيف، قتل بالقاهرة سنة648هـ. انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات،** ج9، ص215. العيني: **عقد الجمان،** ج1، ص47. ابن تغري بردي: **المنهل الصافي،** ج2، ص430.

(6) "الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب(603-648هـ)، كان ملك مهيبا جبارا ذا سطوة وجلالة، وكان فصيحا، حسن المحاورة، عفيفا عن الفواحش". الصفدي: **الوافي بالوفيات،** ج10، ص55. ابن سباط: **صدق الأخبار،** ج1، ص345.

(7) لم أهتد إلى تعريف بهذا المكان.

(8) انظر أبو الفداء: **المختصر،** ج3، ص175.

أما عن علاقة حلب مع ملوك بني أيوب، فقد ألقى شرط الملك الكامل- في جعل الملـــك الصالح بن الملك الظاهر مقدماً على الجيش الحلبي، بدلا من شمس الدين لؤلؤ الأميني- بظلالـــه على علاقته مع حلب، إذ اتفق الملك الأشرف صاحب دمشق، والملك المجاهد [1]صاحب حمص، والصاحبة ضيفة خاتون ومعها أمراء حلب، على عداوة الملك الكامل بسبب أطماعه المتتالية في بلاد الشام، وانضم إليهم ملك الروم "كَيْخِسرو بن كيقُباذ"[2]، وحلف لهم على ذلك. فكان هذا أول تحالف تنضم إليه حلب في عهد الملك الناصر ضد أحد ملوك بني أيوب[3].

وفي مقابل ذلك ساعدت حلب في إصلاح ذات البين والتوفيق بين الملـــوك الأيـــوبيين، وذلك بإرسال الصاحب كمال الدين بن العديم، ليصلح بين الملك المجاهد صاحب حمص، والملك المظفر[4] صاحب حماة، وكان سبب الخلاف أن الأخير قد مال إلى جهة الملك الكامل ضد ملوك ملوك الشام، لكن الوساطة بينهما فشلت، لتعنت كل طرف، وإصراره علـــى موقفـــه، ولممـــالأة صاحب حماة للملك الكامل، وإطلاعه على كل ما يدور بالشام. إذ كان على استعداد لقتـــال كـــل من يتحالف مع صاحب حمص بما فيهم الملك الناصر[5].

وبعد موت الملك الأشرف في دمشق سنة 635هـ، وكان قد أوصى بدمشق لأخيه الملك الصالح إسماعيل، قصدها الملك الكامل وانتزعها منه، وأبقى له بعلبك وبصرى، ولم يتعـــرض

(1) "شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي بن مروان بن يعقوب، الملك المجاهد أسد الدين، أبو الحارث، أعطاه صلاح الدين حمص لما مات والده سنة 581هـ، فملكها ستا وخمسين سنة، وكان بطلا معروفا بالشجاعة، وكانت بلاده طـــاهرة من الخمر والمكوس، وله أخبار في الظلم والتعذيب والاعتقال، إلا أنه لا يشرب الخمر أبداً، ويلازم الصلاة في أوقاتهـــا، توفي سنة637هـ". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج16، ص216. انظر ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج6، ص316.

(2) السلطان الملك غياث الدين كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو، ولي بعد موت أبيه سنة 634هـــ، وكانت مدة ملكة عشرين سنة. انظر المقريزي: **السلوك**، ج1، ق2، ص401. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص136.

(3) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص488- 492.

(4) "الملك المظفر تقي الدين محمود بن المنصور محمد ابن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي الحموي(599-642هـ)، كان بطلا شجاعا إلى الغاية، فطناً قوي الفراسة، طيب المفاكهة، وكان ناقص الحظ مـــع جيرانـــه الملـــوك". الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص210. انظر: الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك: **كنز الدرر وجـــامع الغـــرر** (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1392هـ/1972م، ج7، ص356.

(5) انظر المصدر السابق: ص492.

لعسكر حلب، الذي وصل دمشق نجدة للملك الصالح إسماعيل ضد الملك الكامل، ولكنه لم يطل به المقام، فتوفي في دمشق سنة 635هـ[1].

وما إن سمعت حلب بموت الكامل حتى سارعت إلى أخذ المعرّة من الملك المظفر ، ثم حاصرت حماة، وضيقت عليها الخناق، حتى أنفق الملك المظفر الأموال الكثيرة، فأمرت الصاحبة ضيفة خاتون بالرحيل عنها سنة 636هـ، وكان سبب ذلك موافقة صاحب حماة للملك الكامل على الهجوم على حلب بعد استيلائه على دمشق، ولكنه توفي قبل ذلك[2].

تسلم الملك الناصر قلعة أعزاز سنة 639هـ بعد وفاة صاحبها الملك الحافظ[3]، وكان الأخير قد أخذها عوضاً عن قلعة جعبر[4] من الصاحبة ضيفة خاتون، بسبب خوفه من استفحال مرضه، وتغلب أولاده عليه[5].

وظل حال المملكة إلى أن توفيت والدة الملك العزيز ضيفة خاتون في سنة 640هـ، التي كانت قد أوصت إلى الأمير شمس الدين لؤلؤ أتابكة،" فدبر المُلْك أحسن تدبير، وعدل في الرعية، وكان يُجلس الملك الناصر على طرّاحة الملك، ويجلس لؤلؤ بين يديه، ويقضي حوائج الناس"[6]، إلى أن بلغ الملك الناصر سن الرشد، وشهد على نفسه بالبلوغ،" فأمر الناصر في ملكه، ونهى، وعلم السلطان في التواقيع، وخلع على أمرائه، وجعل يجلس في دار العدل في كل يوم اثنين وخميس بعد الركوب ترفع إليه المظالم "[7].

---

(1) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص493. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص159.

(2) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص494. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق1، ص258. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص635.

(3) "أرسلان شاه بن أبي بكر بن أيوب، السلطان الملك الحافظ نور الدين ابن العادل، تملك قلعة جعبر دهراً طويلاً، توفي سنة 639هـ". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج8، ص342.

(4) قلعة جعبر: تقع على الفرات بين بالس والرّقة قرب صفين، وكانت قديما تسمى دَوْسر، فملكها رجل يقال له جَعْبر بن مالك، فغلب عليها، وسميت به. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص165.

(5) انظر أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص167- 169.

(6) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي: **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، تحقيق سمير طبّاره، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1420هـ/1999م، ص148- 149.

(7) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص513.

لقد استطاع الناصر أن يضم حمص إلى ملكه بعد أن سلم الملك الأشرف صاحبها قلعة شُمَيْميش[1] للصالح نجم الدين أيوب، وذلك سنة 646 هـ، وتعوَّض عنها تل باشر[2]، فغضب الملك الصالح أيوب وزحف إلى دمشق، ومنها إلى حمص فحاصرها، وكاد أن يأخذها من نواب الملك الناصر، لولا وساطة الشيخ نجم الدين البادَرَائي[3] رسول الخليفة، فتقرر الصلح بينهما، وكان وكان السبب لاستجابة الصالح ما كان يعانيه من مرض عضال، ولعلمه بتحرك الفرنج نحو الديار المصرية، وقصدهم لها من جهة البحر، فرأى أن لا بد من الصلح والاتفاق مع الملك الناصر[4].

واستولى الناصر على نَصِيبين[5]، ودارا[6]، وقَرْقيسِيا[7]، بعد حربه مع صاحب الموصل الموصل بدر الدين لؤلؤ[8]، وهزيمته هزيمة نكراء سنة 647هـ[9].

---

(1) قلعة قديمة في حمص، قام بإعمارها الملك المجاهد شيركوه سنة 627هـ. انظر أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص145.

(2) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان، وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق، وهي عامرة آهلة. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص47.

(3) عبد الله بن أبي الوفاء، محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان، الإمام نجم الدين أبو محمد البادرائي البغدادي، الشافعي الفرضِيّ(594–655هـ)، كان فاضلا ديِّنا متواضعا، وكان إذا ركب يُومي بإصبعه إلى كل من يمرُّ به من العوام والسوقة وغيرهم، ويسلم عليهم، ووُلِّيَ قضاء القضاة في بغداد عدة أيام ثم توفي. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص207–208. الذهبي: **تاريخ الإسلام**(651–660هـ)، ص200.

(4) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص66. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص177. ابن دقماق: **نزهة الأنام**، ص178. ابن سباط: **صدق الأخبار**، ج1، ص342.

(5) نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، فيها وفي قراها أربعون ألف بستان. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج5، ص233.

(6) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين من بلاد الجزيرة، ذات بساتين ومياه جارية. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص477.

(7) قرقيسيا: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج4، ص373.

(8) "الملك الرحيم بدر الدين أبو الفضائل الأرمني الأتابكي، كان بطلا شجاعا حازما مدبرا سائسا جبارا ظلوما، ومع هذا هذا فكان محبَّبا إلى الرعية، وفيه كرم ورئاسة، وكان يبذل للقصّاد ويُداري، ويتحرّز، ويصانع التتار وملوك الإسلام، توفي سنة657هـ". الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص356. انظر ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص70.

(9) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 123. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص181. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص367. ص367. ابن سباط: صدق الأخبار، ج1، ص347–348.

ولما توفي الصالح أيوب سنة 647هـ، وقتل ابنه المعظم توران شاه[1] سنة 648هـ، زحف الناصر إلى دمشق وتملكها بعد أن راسله الأمراء القَيْمَرية[2] فيها، واستعدوا لتسليمها له، وذلك لعدم رضاهم عن سلطنة الملكة شجر الدر زوجة الملك الصالح أيوب على مصر، التي كانت راسلتهم لتقررهم على تسلّمها الديار المصرية، فلم يجيبوها على ذلك[3].

وتولّى الملك المعز أيبك[4]الحكمَ في مصر بعد زواجه شجر الدر، فعزم الملك الناصر سنة 648هـ على التوجه إلى مصر، وإعادتها إلى الحكم الأيوبي، فقد كان طموحه أن يوحِّد مصر والشام تحت الراية الأيوبية كما كانتا سابقا، إلا أن مراده لم يتحقق، وظل يحاول السيطرة على مصر، بحروبه المتكررة مع الملك المعز أيبك حتى سنة 653هـ، إذ جرى الصلح الأخير بينهما بوساطة الشيخ نجم الدين البادَرائي، "واتفق الحال على أن يكون للملك الناصر الشام جميعه إلى العريش، ويكون الحد بير القاضي، وهو بين الواردة[5] والعريش، وبيد المعز أيبك الديار المصرية، وانفصل الحال على ذلك ورجع كل إلى بلده"[6].

---

(1) الملك المعظَّم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان نائبا لأبيه على حصن كيفا، وغيرها من من ديار بكر، قتل في القاهرة سنة648هـ، بعد أن حكم مصر مدة شهرين فقط، وبموته انقضت دولة الأيوبيين بمصر. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص128-130. الذهبي: تاريخ الإسلام (641-650هـ)، ص386. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص271. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج10، ص445. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار(الخطط المقريزية)**، ط2، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1408هـ/1987م، ج2، ص236.

ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج6، ص364. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص417.

(2) نسبة إلى قَيْمَر، وهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط، ينتسب إليها جماعة من أعيان الأمراء الأكراد، وكان أبرزهم الأمير ناصر الدين الحسين بن علي القيمري، الذي سلم دمشق إلى الملك الناصر. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج4، ص481. الزركلي: **الأعلام**، ط12، بيروت، دار العلم للملايين، 1997م، ج2، ص246-247.

(3) "انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص137. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص182-183. القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد: **مآثر الأناقة في معالم الخلافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط2، بيروت، عالم الكتب، 1980م، ج2، ص92. العبادي، أحمد مختار: **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م، ص111.

(4) أيبك بن عبد الله الصالحي، المعز عز الدين المعروف بالتركماني، كان مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه اشتراه في حياة أبيه الكامل، كان معروفا بالسداد وملازمة الصلاة، ولا يشرب خمراً، وعنده كرم، وسعة صدر ولين جانب، تسلطن بعد مقتل المعظم توران شاه، وركب بشعار السلطنة، قتلته زوجته شجر الدر سنة 655هـ". الصفدي: **الوافي بالوفيات** ج9، ص469.

(5) الواردة والورّادة: قرية على جادة الطريق إلى مصر، من نواحي الجفار. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص169.

(6) أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص191. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص181. ابن دقماق: **نزهة الأنام**، ص212. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص12-13. انظر بدّور، كمال، **مملكة حلب الأيوبية** 589-658هـ/ 1193-1260م،(رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 1418هـ/ 1998م، ص177.

وفي ظل هذه الظروف السياسية المضطربة، كان المغول بقيادة هولاكو يجتاحون بـــلاد الإسلام، ابتداء بعاصمة الخلافة العباسية بغداد، ويقتلون الخليفة المستعصم[1] سنة 656هـــ، "ولما بلغ الملك الناصر أخذ بغداد، خاف خوفا شديدا، وجهز ولده الملك العزيز بتقادم وتحف وســـير صحبته الزين الحافظي[2] "[3]، وأراد من خلال هذه المبادرة، أن يصانع هولاكو " لما رأى مـــن تخاذل أصحابه، وضعف قلوبهم عن مقابلة التتر لكثرتهم"[4].

إلا أن هولاكو شكك في نوايا الملك الناصر لعدم قدومه إليه، واثبات الطاعة والولاء له، وحينها تيقن الملك الناصر أن هولاكو يطلب ملكه، وهو قاصد الشام لا محالة، فأرسل الصاحب كمال الدين بن العديم، إلى مصر يستنجدهم على مقاتلة التتار[5]، وردّهم عـــن ديـــار الإســـلام، "فأرسل الملك قطز برسالة إلى الناصر يعده بالنجدة وإنفاذ العساكر إليه"[6]. ولكـــن الوقـــت لـــم يسعفهما، حيث اجتاح التتار بلاد الشام، واستولوا عليها شيئا فشيئا " فاشتغل بال الناصر وجهـــز

---

(1) الخليفة الشهيد عبد الله بن منصور بن محمد بن أحمد بن الحسن، أمير المؤمنين المستعصم بـــالله(609-656هـــــ)، آخر خلفاء بني العباس ببغداد، استخلف سنة 640هـــ يوم وفاة أبيه، وكان فاضلا تاليا لكتاب الله، متديناً متمسكاً بمـــذهب أهل السنة والجماعة، وكان قليل المعرفة والتدبير والتيقظ، محباً للمال، مهملاً للأمور، يتكل فيها على غيره. انظر الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص174. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، 579-580. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف: **مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة**، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1997م، ج1، ص232.

(2) سليمان بن علي زين الدين بن المؤيد خطيب عقربا الحافظي، اشتغل بالطب، وخدم به الملك الحافظ، ثم خدم الملـــك الناصر بحلب، وصارت له عنده منزلة رفيعة، بعثه الملك الناصر رسولا إلى هولاكو فأحسن إليه، واستماله، فصار مـــن جهته ومازج التتار، وتردد في المراسلات مرات، وأطمع التتار في البلاد، قتله هولاكو سنة 662هـــ، بســـبب مراســـلته الملك الظاهر صاحب مصر. انظر ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م، ص668. اليونيني: **ذيل مرآة الزمـــان**، ج2، 234. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص461.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص247. انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص109. ابن دقمـــاق: **نزهـــة الأنـــام**، ص243. ابن سباط: **صدق الأخبار**، ج1، ص378.

(4) أبوالفداء: **المختصر**، ج3، ص197. انظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج7، ص74.

(5) تجدر الإشارة إلى أن التتار عندما قصدوا ميافارقين سنة 656هـــ، استنجد صاحبها بالملك الناصر، فوعـــده بالمـــدد، ولكنه لم يتمكن من إنجاده. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص91.

(6) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص73. انظر ابن سباط: **صدق الأخبار**، ج1، ص381. شـــاكر، محمـــود: **التاريخ الإسلامي** (العصر المملوكي 656-923)، ط4، بيروت وعمان ودمشق، المكتب الإسلامي، 1411هـــــ/1991م، ج7، ص28.

حريمه إلى نحو الديار المصرية، فاضطربت بذلك العساكر الشامية، واحتمل كل منهم بأهله اقتداءً بفعله وتفرقوا وتمزقوا وتسللوا، وعجز الناصر عن ردهم لتناقص حرمته، وتقاصر همته وكلمته"(1). حتى وصلوا إلى حلب سنة 657هـ، وكان الملك المعظم توران شاه بن السلطان الناصر صلاح الدين نائباً عن الملك الناصر فيها، فلم يستسلم أمامهم بل تصدى لهم بعسكر حلب، فرجع التتار في المرة الأولى، إلا أنهم سرعان ما عادوا إليها في سنة 658هـ، "وحاصروها حصارا شديدا حتى دخلوها، فقتلوا، ونهبوا، وسبوا، وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم "(2).

وكان الملك الناصر قد رحل من حلب إلى دمشق، لما علم بتحرك التتار نحوها، ثم قصد بَرْزة(3) شمالي دمشق، حيث اجتمع معه الكثير من الناس بنية قتال التتار، وصدهم عن بلاد الشام، ولكن الناصر رأى التخاذل في أصحابه، وعلم أنه إن واجه التتار لم يثبت العسكر أمامهم لجموعهم الكثيرة(4)، فرحل إلى العريش، مرورا بنابلس وغزة، حيث طلب المساعدة والمعاضدة من الملك المظفر قطز للمرة الثانية، فبعث الأخير سنجقاً(5) للملك الناصر، ليأتي به إلى مصر حتى يتفق الجميع على الاستعداد والخروج بالعساكر المصرية والشامية لصد التتار(6)، إلا أن الملك الناصر لم يجرؤ على دخول مصر، وخاف أن يدخلها " فيقبض عليه، فتأخر في قَطْيَة(7)، ورحلت العساكر إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة يسيرة، ثم سار بهم من قَطْيَة إلى

---

(1) بيبرس المنصوري، الأمير ركن الدين الدوادار: **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالد س، ريتشاردز، بيروت، دار الكتاب العربي، 1419هـ/1998م، ص48.

(2) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج7، ص76. انظر بيبرس المنصوري، الأمير ركن الدين الدوادار: **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من 648-711هـ، نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1407هـ/1987م، ص43.

(3) بَرْزة: قرية من غوطة دمشق. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج1، ص455.

(4) انظر ابن واصل، **مفرج الكروب**، ص 263.

(5) السنجق: لفظ تركي فارسي، معناه العلم أو الراية أو اللواء، انتشر ذكره في العصرين الأيوبي والمملوكي. الخطيب، مصطفى عبد الكريم: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1416هـ/1996م، ص259. الخالدي، عبد الله: **المورد العذب في بعض الكلام الدخيل في كلام العرب**، ط1، بيروت، دار الروضة، 1419هـ/1998م، ص99.

(6) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 271-272.

(7) قَطْية: قرية في طريق مصر وسط الرمل من نواحي الجفار. انظر ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص169. ج4، ص429.

جهة تيه بني إسرائيل"[1]. وتحير الناصر في أمره، فالصحراء أمامه والتتار خلفه يطلبونه، فنزل بركة " زيزا "[2]، فوشى عنه أحد مساعديه إلى كُتْبُغا نُوين[3] نائب هولاكو، وعرَّفه بمكانه، فأرسل واعتقله، ثم بعثه إلى هولاكو، فأكرمه " وأحسن إليه ووعده بأنه يرد إليه ملكه، فأقام عنده مدة "[4]. إلا أنه غضب عليه بعد كسرة جيشه في عين جالوت سنة 658هـ، ومقتل كُتْبُغا نُوين، نُوين، بقيادة الملك المظفر قطز، وكسرتهم في معركة حمص سنة659هـ ثانية، -وكان هولاكو سأل الناصر عن "عساكر الديار المصرية، فقال: عساكر ضعيفة، وهم نفر قليل، وصغَّرهم عنده، وقال: يكفيهم القليل من الجيش، فاقتصر هولاكو عن ذلك على كُتْبُغا نوين ومن معه، ولم يرْدِفهُ بغيره"[5]_، "وأحضر الملك الناصر وأخاه الملك الظاهر[6]، وقال للترجمان: قل له ما أنت أنت زعمت أن البلاد ما فيها عسكر، وأنّ من فيها في طاعتك، حتى غرَّرْت بي، وقتلت المغل؟ فقال الملك الناصر: أما إنهم على طاعتي، فلو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه غلمانك سيفاً، ومن يكون ببلاد توريز[7] وكيف يحكم على من في الشام، فرماه هولاكو بفردة نشّاب فأصابه، فقال: الصنيعة ياخَوَنْد[8]. فقال أخوه الملك الظاهر: اسكت يا خوند، تقول لهذا الكلب

---

(1) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص272. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص202.

(2) زَيْزاء: من قرى البلقاء، كبيرة يطؤها الحاجّ، ويقام بها لهم سوق، وفيها بركة عظيمة، وأصله في اللغة المكان المرتفع. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص184.

(3) "كان عظيما عند التتار، يعتمدون عليه لرأيه وشجاعته وصرامته وعقله، له خبرة بالحروب وافتتاح الحصون، وكان هولاكو لا يخالفه، ويتيمَّن برأيه، وكان شيخا مسناً يميل إلى النصرانية". الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(651-660هـ)، ص355.

(4) ابن واصل، **مفرج الكروب**، ص 280.

(5) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405هـ/1985م، ج27، ص390.

(6) غازي بن محمد بن غازي، الملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر صلاح الدين، الملقب بسيف الدين، وهو وهو شقيق الملك الناصر، وأمهما تركية، كان شجاعا جوادا مليح الصورة، كريم الاخلاق، عزيزا على أخيه إلى الغاية. انظر الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، ج23، ص359. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص516-517.

(7) "تِبْريز أوتوريز: من أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة، في وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها". ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص15. انظر الحميري: **الروض المعطار**، ص143.

(8) "خوند: معرب كلمة خُداوند الفارسية، بمعنى السيد العظيم أو الأمير، استعملت في عصر المماليك بمعنى الكبير، أو صاحب المقام الرفيع، ولقِّب به السلطان وزوجته". زين العابدين، شمس الدين نجم: **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، ط1، القاهرة، د.ن، 1427هـ/2006م، ص228. انظر الخطيب: **معجم المصطلحات**، ص170. الخالدي: **المورد العذب**، ص73.

هذا القول وقد حضرت! فرماه هولاكو بفردة ثانية فقتله، ثم أخذ الملك الظاهر وبقية أصحابهم إلى خارج وضربت أعناقهم"[1].

ويروي الكتبي روايات أخرى عن حالة الملك الناصر عند هولاكو، وكيفية مقتله، فقال: "فبقي معهم في ذل وهوان، فلما بلغ هولاكو قتل كتبغا قتله، وقيل: إنه قتله بالسيف عقيب واقعة (عين جالوت)، وقيل: خُصّ بعذاب دون أصحابه، وقيل: جُعل هدفا للسهام، وقيل: جُمع له نخلتان وربط بينهما وافترقا، فذهب كل واحدة بشِق منه"[2]. وقال المقري: إنهم " قتلوه وخلعوا عظم كتفه"[3]. وقد "حزن أهل دمشق لقتله حزناً شديداً، لما علموا منه أيام ملكه من كرمه، وصفاته العالية، التي أبقت له بينهم الذكر الطيب"[4]، وعقدوا العزاء له بجامع دمشق، عند سماعهم خبر وفاته[5].

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع الشامي في عهد الملك الناصر مختلف الأعراق والجنسيات والأصول، ذات الطباع والسجايا المختلفة والمتعددة؛ حيث تكوَّن نسيجه من العرب والترك والفرس والروم والأرمن، وغير ذلك من جنسيات، سواء من جاء منهم طواعية ليسكن في الشام بعدما أعجب بمناخه وأرضه وخيراته، أو من جيء به ضمن قوافل العبيد والرقيق إلى حاضرة الدولة الإسلامية[6].

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص311-312. انظر أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص211. الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (651-660)، ص403-404. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق2، ص466. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص284. الحنبلي: شفاء **القلوب**، ص373.

(2) الكتبي: فوات **الوفيات**، ج2، ص669.

(3) المقري، أحمد بن محمد التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج2، ص370.

(4) الحصني، محمد أديب آل تقي الدين: **منتخبات التواريخ لدمشق**، تقديم كمال سليمان الصليبي، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1399هـ/1979م،ج3، ص180.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص311.

(6) انظر الهيب، أحمد فوزي: **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، ط1، الكويت، مكتبة المعلا، 1407هـ/1987م، ص 33.

كان للاضطراب السياسي في هذا العصر انعكاساته على الحياة الاجتماعية، فكان من الطبيعي أن تتعدد طبقات المجتمع، وتتباين في هذه الدولة، إلا أن العلماء والباحثين قديما وحديثا اختلفوا في عددها وأسمائها حسب البيئة الجغرافية والفترة الزمنية، فقد جعلها المقريزي سبع طبقات [1]، وجعلها أحمد فوزي الهيب أربع طبقات[2] فيما يختص ببيئة حلب الشهباء، وبالاسترشاد بالتقسيمات السابقة، صُنِّفتْ طبقات المجتمع في عهد الناصر على النحو الآتي:

أولا: الطبقة الحاكمة

وتتكون من الملك والأمراء والمسؤولين السياسيين، "ومن يحسب بطبقتهم من عوائلهم ونوابهم ووزرائهم، وذوي الجاه والولاة والملتحقين بخدمة الحكام[3]. وعلى الرغم من أن أصل الأيوبيين كرديّ إلا أنهم اعتمدوا على المماليك اعتمادا منقطع النظير في تسيير شؤون المملكة، وتصريف أمورها، فكان منهم الأمراء والجند والمسؤولون، وخير مثال على ذلك الأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني مدبر دولة الملك الناصر[4]،إضافة إلى استعانتهم بأبناء جلدتهم من الأكراد، أمثال الأمير ناصر الدين القَيْمَري[5]، وبالعرب مثل الوزير القفطي، وكمال الدين بن العديم، وعز الدين بن شداد[6]، وغيرهم[7].

---

(1) انظر المقريزي، أحمد بن علي: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق كرم حلمي فرحات، ط 1، الهرم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1427هـ/2007م، ص 147.

(2) انظر الهيب: **الحركة الشعرية**، ص33-41.

(3) السامرائي، فراس حياوي: **التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهود السلجوقيين والزنكيين والأيوبيين**، ط1، دمشق، دار الأوائل، 1425هـ/2004م، ص 62.

(4) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص487. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 282. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص667.

(5) "الحسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري(600-665هـ)، كان أميرا جليلا، مقدم جيوش الشام زمن الملك الصالح، وكذلك زمن الملك الناصر، وكانت جميع الأكراد في خدمته، يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، والجيش في طاعته، ومرسومه فيهم أمضى من مرسوم الملك الناصر". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص350-351.

(6) محمد بن علي بن إبراهيم بن علي بن شداد، عز الدين أبو عبد الله الأنصاري الحلبي الكاتب(613-684هـ)، كان رئيسا، وصدرا كبيرا، وأديباً فاضلاً، وكان من خواص الملك الناصر، ترسَّل عنه إلى هولاكو، وإلى غيره، وكان الواسطة بين الناصر والبحرية، سكن الديار المصرية بعد أخذ حلب، وحظي عند ملوكه وأمرائها. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج21، ص357. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج4، ص189.

(7) انظر الهيب: **الحركة الشعرية**، ص33- 34.

لقد كان الوضع المعيشي لهذه الطبقة مرتفعا، إذ كان النظام الاقتصادي يعتمد على نظام الإقطاع، فكان الأمراء ينعمون بالإقطاعيات التي يقتطعها لهم الملك، " بحيث يتكفل كل أمير وقائد جند بكل ما يتصل بإقطاعه من النواحي الإدارية والمالية والعسكرية، على أن يخضع للسلطان مباشرة، ويقوم بأداء ما عليه من المال"(1). فكان كل ما على الأرض من بشر ونبات وحيوان، تحت تصرف الأمير، وهذا ما أدى إلى تسلطهم واستغلالهم الفلاحين والفقراء العاملين تحت إمرتهم، مما زاد في غناهم وترفهم، وتميزهم عن غيرهم من الطبقات الأخرى. وعلى الرغم من سلبيات الأمراء؛ إلا أنه كان لهم دور بارز في إدارة شؤون المملكة، وحمايتها من الاعتداءات الخارجية، وحفظ أمنها واستقرارها، إذ كان الملك الناصر – حاله حال الأيوبيين قبله – يستعملهم في العسكر، ويعتمد عليهم في حروبه المتكررة، وذلك لقوتهم وتحملهم، فهم بمثابة الدرع الواقي للمملكة، والحصن الحصين لها(2).

واستغل بعض أرباب الدولة مناصبهم في ظلم الناس، وسلب حقوقهم، واضطهادهم، ومثال ذلك جمال الدين بن اللهيب(3)، الذي كان يخشاه الباعة والسوقة، ويقدمون له ما طاب من الأطعمة، في سبيل كسب وده، ومداراته(4).

ثانيا: طبقة الأغنياء وكبار التجار

وتتمتع هذه الطبقة بصلاحيات عالية في المجتمع الشامي، إذ عاش أفرادها حياة هانئة آمنة في الدولة، ونظراً لأهمية الموقع وتوسط الشام بين البلدان؛ فقد نشطت فيها حركة التجارة وازدهرت، وعلى الرغم مما كان يعانيه الشام من الانقسامات وعدم الاستقرار، والأخطار المحيطة به، فقد استطاع هؤلاء أن يؤمِّنوا مستقبلهم ومستقبل عوائلهم، بجمعهم المال والثروة،

---

(1) سلام، محمد زغلول: **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة، دار المعارف، 1983م، ص 47.

(2) انظر الهيب: **الحركة الشعرية**، ص34.

(3) "جمال الدين أبو القاسم ابن اللهيب المصري، متولي الحشرية بدمشق، كان ظالما لنفسه وللناس في أمور التركات، والمتوفين وورائهم، وفي منع المستحقين حقوقهم من غير مستند شرعي، توفي بدمشق سنة 656هـ ودفن بقاسيون". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص178. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص252.

(4) انظر ما روي عنه في ذلك: الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص178–179.

وأصبحوا يتشبهون برجالات الطبقة الحاكمة في عيشهم، من حيث " المسكن والمأكل والملبس والطباع والجواري "[1].

وكان الناصر يستقطب كبار التجار، ويحسن إليهم، ويحرص على حماية أموالهم ومتاجرهم، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها، أو لأحد من المنتسبين إليهم[2]، فنالوا الحظوة والمنزلة الرفيعة في مجالسه. وفي مقابل ذلك، فقد اعتمد الناصر عليهم في الأوقات العصيبة التي مرت بها الدولة، فكانوا لا يألون جهدا، ولا يترددون في إمداد الدولة بما تحتاجه. وكان من أبرز التجار وأشهرهم الصدر شهاب الدين بن عمرون[3]، الذي "كانت له المكانة الوافرة من الملك الناصر"[4]، ومنهم وجيه الدين بن سويد التكريتي[5]، صاحب الوجاهة، والكلمة النافذة في الدولة، إذ كان من أعز خواص الملك الناصر[6]، يدنيه من مجلسه، ويَصْحبه كثيراً، وكان من المتمولين في الدولة[7]، إذ "كان عنده فضة كثيرة متروك وحشر، فاستأذن الملك الناصر في ضربها دراهم، فأذن له وجعل دار الضرب بيده، فضُرب منها شيء كثير جدا، وهذا النقد من الدراهم التي ضربها معروف"[8].

وكانت له علاقات طيبة مع أرباب الدولة، من الأمراء والوزراء والمسؤولين، يكرمهم ويهاديهم، ويعتمدون عليه في أمورهم، ولم يقتصر كرمه على هؤلاء، بل كان عنده حسن ظن

---

(1) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص40.

(2) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص427.

(3) "أبو البركات الحسن بن علي بن أبي نصر بن النحاس الحلبي، التاجر المشهور، كان عنده رئاسة وسعة صدر، وكرم وطباع حسنة، توفي في الإسكندرية سنة 667هـ". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص383-384. انظر الطباخ، محمد راغب: **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، صححه وعلق عليه محمد كمال، ط2، حلب، دار القلم العربي، 1409هـ/1989م، ج4، ص474.

(4) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص383.

(5) محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي، التاجر المشهور بسعة المال والجاه في الدولة الناصرية والظاهرية، كان عنده دماثة أخلاق، ورقة حاشية، توفي سنة 670هـ. انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص427. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص580.

(6) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص427. المقريزي: **المقفى الكبير**، ص301.

(7) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص284.

(8) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص427.

بالصالحين والفقراء، يبُرُّهم ويتصدق عليهم، وفي كل سنة يفرِّق فيهم كثيرا من أمواله طاعة لله، وطلباً للثواب [1].

ثالثا: طبقة العلماء والأدباء

وكان لها أهمية في المجتمع الشامي. فالدين له مكانة بارزة عند الملوك الأيوبيين بعامة، والملك الناصر بخاصة، منبعها الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، والالتزام النابع من ذات السلطان أو الرعية على حد سواء.

لقد استمال السلاطينُ العلماءَ إلى جانبهم ليشكلوا مصدر دعم للدولة في التصدي للملمات والعقبات الداخلية، ولدفع الخطر الخارجي عنها، لأن سلطان الدين يستحوذ قلوب المسلمين، ويحرك عواطفهم. فضلا عن العلاقة الوثيقة بين العلماء وعامة الناس، لذا سعى العلماء إلى كسبهم واستنهاضهم، والتأثير فيهم أمام المخاطر الخارجية[2]. إذ كان لهم دور فاعل في استنهاض همم الناس، وتعبئة روحهم المعنوية والجهادية ضد الفرنج، وذلك من خلال دروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمدارس والأماكن العامة، وكان لهم الأثر في هداية الناس، والتأثير فيهم، وخير مثال على ذلك الإمام سبط بن الجوزي[3]، الذي كان مخمداً للفتن في مهدها، مهدها، محارباً للطائفية، مصلحاً بين الرعية، ومقرباً وجهات النظر بين السنة والشيعة، "فقد سئل في يوم عاشوراء أن يذكر للناس شيئا عن مقتل الحسين –رضي الله عنه–، فصعد المنبر، وجلس طويلا لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه، وبكى، ثم أنشأ يقول:

ويلٌ لمنْ شفعاؤُهُ خصماؤُهُ   والصّورُ في نشرِ الخلائق يُنْفَخُ

---

(1) انظر المصدر السابق: ج20، ص428.

(2) انظر الأتروشي، شوكت عارف: **الحركة الفكرية في مصر خلال العصر الأيوبي**، ط1، عمان، دار دجلة، 2007م، ص69.

(3) يوسف بن قزعلي بن عبد الله(583–654هـ)، الإمام المؤرخ الواعظ شمس الدين أبو المظفر الزكي البغدادي، كانت كانت مجالس وعظه عامرة بالعلماء، والملوك والأمراء، وله الحرمة الوافرة، والوجاهة العظيمة عند الملوك وغيرهم، وكان لوعظه قبول عند الملوك والخاصة والعامة، ولما توفي حضر جنازته الناصر والأمراء وأكابر الدولة. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص250. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج39–43. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص663.

لا بـــــدَّ أنْ تـــــردَ القيامـــــةَ فـــــاطمُ   وقميصُـــــها بـــــدمِ الحســــيْنِ مُلطَّــــخُ

ثم نزل عن المنبر"[1]. فكان لقوله بالغ الأثر في نفوسهم، وتوبة الكثير منهم.

ولما كان الناصر حسن السيرة، كثير الإحسان إلى رعيته، يعدل بيــنهم، ويصــفح عــن المسيئين منهم، ومحبا للعلماء والأدباء[2]، كان من الطبيعي أن يزدحم بلاطه "بجماعة كثيــرة مــن الفضلاء والعلماء والأدباء والشعراء"[3]، ويستعملهم في وظائف الدولة.

فقد كان العلماء منقسمين إلى فئتين:" الأولى وليت الوظائف العامة التابعة للحكام، كأمانــة السر وكتابة التوقيع، وتولي ديوان الإنشاء، والإشراف على الدواوين السلطانية. والثانية عكفت على عبادتها وديانتها، وشغلت وظائف التدريس والقضاء والخطابة"[4].

ساهم العلماء في رسم سياسة الدولة داخليا وخارجيا وذلك بإسداء النصح والمشورة للملــك الناصر، وكان نشاطهم بارزاً من خلال مناصبهم في الدولة، كالوزير جمال الدين القفطي، أو مــن خلال سفاراتهم وتمثيلهم المملكة، مثل كمال الدين بن العديم، الذي بعثه الملك الناصر بمهمات إلــى الخليفة في بغداد [5]، وإلى مصر سنة 657هــ، يستنجد أهلها على قتال التتار، الذين اقتربــوا مــن بلاد الشام[6]. فضلاً عن جعله نائب السلطنة عنه في دمشق، فسكن في دار رضوان بالقلعة، يــدير شؤون الدولة، حتى إذا فرغ من أشغاله، جلس يؤلف وينسخ الكتب [7]، ومثله عز الدين بــن شــداد الذي ولي المناصب المهمة في الدولة، وكان مبعوث الناصر إلى التتار ســنة 657 هـــ، بعــدما

---

(1) العيني: **عقد الجمان**، ج1، 134-135. انظر بدوي، أحمد أحمد: **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصــر والشام**، ط2، القاهرة، دار نهضة مصر، 1979م، ص394.

(2) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص257. الصفدي: **الوافي بالوفيــات**، 2ج9، ص137. الصـــالحي: **القلائــد الجوهرية**، ج1، ص147.

(3) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص258.

(4) باشا، عمر موسى: **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، ط1، بيروت، دار الفكر المعاصــر، دمشق، دار الفكر، 1409هـــ/1989م، ص 72.

(5) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص278.

(6) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص214. ابن دقماق: **نزهة الأنام**، ص 33.

(7) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص279.

استولوا على ميافارقين[1]، وسعى نظام الدين بن المولى[2]– بصحبة الشيخ نجم الدين البادَرَائي– في إبرام الصلح بين الملك الناصر، والملك المعز أيبك التركماني سنة 650هـ[3].

وتعددت العادات والتقاليد في المجتمع الشامي، وكان لامتزاج الجنسيات المختلفة فيه أثر في ذلك، فكثر أصحاب البدع والخرافات، ما دفع العلماء للتصدي لأصحابها، وقد أنكروا عليهم أفعالهم المخالفة للشريعة الإسلامية، حتى إنهم ألفوا كتباً تفند حجج المبدعين وتبطل أعمالهم، وخير مثال على ذلك كتاب " الباعث على إنكار البدع والحوادث " لأبي شامة المقدسي[4].

ولم يقتصر دور العلماء على الرعية حسب، بل ساهموا في إصلاح ذات البين بين الملوك الأيوبيين في نزاعاتهم وصراعاتهم، فقد سُيِّر كمال الدين بن العديم في محاولة للتأليف والتوفيق بين الملك المظفر صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص[5]. وكان عز الدين بن بن شداد الواسطة بين الملك الناصر والبحرية[6].

ووقف العلماء في وجه السلاطين الأيوبيين ينكرون بعض أعمالهم، وقد اتخذوا المواقف منهم على ممارساتهم السلبية، دون أن تأخذهم في الله لومة لائم، فقد انتقد الشيخ عز الدين ابن عبد السلام الملكَ الصالح إسماعيل على المنبر، ولم يدعُ له في خطبة الجمعة لما بدر منه في تسليم قلعتي صفد والشقيف[7] للفرنج، ليعاضدوه ويساندوه في حربه مع الملك الصالح أيوب[8].

---

(1) انظر ابن دقماق: **نزهة الأنام**، ص 32.

(2) "محمد بن محمد بن عبد المجيد نظام الدين، أبو عبد الله الأنصاري،(595–656هت)، كان صاحب ديوان الإنشاء للملك الناصر، مقدما على جماعة الكتاب، فاضلا رئيسا، وله الترسل والنظم الحسن، ونظام الدين هذا هو الذي استثناه السامرّي في أرجوزته، فقال: وليس يستثنى من الجماعة غير كمال الدين والنظام". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص283. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص249.

(3) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص66.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص618.

(5) انظر ابن العديم: **زبدة الحلب**، ص 492.

(6) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج21، ص357.

(7) قلعة الشقيف: قلعة حصينة جدا، في كهف من الجبل قرب بانياس، من أرض دمشق، بينها وبين الساحل. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، 403–404.

(8) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص683. في ما يتعلق ببقية هذه الطبقة من الأدباء والشعراء، فسيأتي الحديث عنهم في الحياة الثقافية، من هذا الفصل، وفي المجالس الشعرية من الفصل الثاني، كل في مكانه، وذلك للتنوع وعدم التكرار في عرض المادة.

رابعاً: الطبقة العامة

وتتكون من "متوسطي الحال من الباعة والسوقة، وأهل الفلح والفقراء، وأرباب الصنائع وأصحاب المهن"[(1)]. من الذين لا يملكون صنع القرار في الدولة، وكثير منهم لا يملك إلا قوت يومه، يمضون أوقاتهم في خدمة الطبقة الحاكمة وأمرائها، بل "يعيشون عالة عليها أجراء في الأرض، أو كادحين في خدمة القصور، وعمل السلاح، وإعداد آلة الحرب"[(2)]. لا سيما الفلاحون، أصحاب المسكنة والذلة، وعلى الرغم من أنهم يشكلون الغالبية العظمى من الشعب، إلا أن الطبقات الأخرى تنظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار، " لأن الفلاح في نظرهم قِنّ[(3)] ملحق بالأرض، يورث مع الإقطاع الذي يعمل فيه لدى سيده "[(4)]، إذ كان للإقطاعي حق التصرف بالأرض وما عليها من بشر وشجر وحيوان. ولا يملك الفلاح إلا أن يدأب في عمله المتواصل، وما كان ينتجه يتقاسمه الإقطاعي مع الدولة.

لقد أفضى حال هذه الفئة إلى الفقر والحاجة، وتعرضت " لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة في صورة مجاعات مخيفة تجتاح الناس"[(5)]، وذلك بسبب التباين في طبقات المجتمع في ظل غياب العدل في توزيع ثروات الدولة، بالإضافة إلى الصراعات السياسية بين الملك الناصر من جهة، وبين الملوك الأيوبيين والمماليك من جهة ثانية، فضلا عن هجمات الخوارزمية والفرنجة، وانتهاء بالتتار. إذ ضعفت هذه الفئة عن سد حاجياتها الأساسية، بتأمين الغذاء والدواء، لا سيما في السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأيوبية، ففي سنة 656هـ اشتد الوباء ببلاد الشام، فكان يموت من حلب في كل يوم ألف ومائتا إنسان، وفني من أهل دمشق خلق كثير لا يحصى، وبيع الرطل الدمشقي من التمر الهندي بستين درهما، والحزّة من البطيخ الأخضر بدرهم[(6)].

أما عن أرباب الصناعات وأصحاب المهن من هذه الطبقة، فهم أحسن حالا من أهل الفلح وأعلى مرتبة، إذ كانوا ينتظمون في جماعات على شكل نقابات، حسب نوع الحرفة، وكان لكل

---

(1) المقريزي: **إغاثة الأمة**، ص 147.

(2) سلام: **الأدب في العصر الأيوبي**، ص 48.

(3) القِنّ: العبد الذي كان أبوه مملوكا لمواليه. **المعجم الوسيط**: مادة قنن.

(4) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص 76.

(5) سلام: **الأدب في العصر الأيوبي**، ص، 48.

(6) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص91. المقريزي: **السلوك**، ج 1، ق2، ص409–410.

جماعة منهم شيخ أو أستاذ يدافع عن حقوقهم[1]، "وكان لكل حرفة أيضا سوق خاص بهـا، وأسـر اشتهروا وتوارثوها جيلا بعد جيل، ولقد استطاع النشيطون من أرباب الصناعات أن يجمعوا ثروات كبيرة"[2].

لقد كان الملك الناصر محسناً إلى رعيته وأهل خاصته، من ذوي المناصـب الإداريـة، إذا مات أحدهم رتَّب ولده مكانه وإن كان صغيرا[3]. وذلك احتراما وتقديرا لمنزلة أبيه، وكان الناصـر حليما في تعامله مع الجند صفوحا عنهم، وحدث أن فقيرا من الأجناد ذكر الناصر بسوء، فأحضـره الناصر ليعاقبه، إلا أنه عفا عنه بعدما رأى حاله، وأعطاه من المال، ولم يحاسبه علـى كلامـه[4]، وكان لا يترفع عن الحديث مع أفراد الطبقة العامة، من الفلاحين والفقراء، بل كان حسن الظنِّ بهم، "يكرمهم ويبرهم ويزورهم" [5].

اهتم الملك الناصر بالإعمار والبناء على كافة الأصعدة، عسكريا، واقتصـادياً، فقـد بنـى "الأسوار والأبرجة بمدينة حلب، وعمَّر السوقين اللذين أنشأهما في شرقي الجامع بحلـب أحـدهما: نَقَل إليه الحريريين، والآخر نقل إليه النحاسين"[6]، وبنى لنفسه داراً بقلعة دمشـق، أسـماها دار رضوان، كانت غاية في الجمال، والفن العمراني [7].

الحياة الثقافية

ازدهرت الحياة الثقافية في العهد الأيوبي ازدهار عظيماً في بلاد الشام، ولقـد عهـد عـن الناصر صلاح الدين – مؤسس الدولة الايوبية – حبه الشديد للعلوم الشرعية، وميله إلى حفظ القرآن الكريم وسماع الحديث الشريف، ودراسته له في خلواته، فضلا عن مجالسته العلماء والفقهاء. وسار

---

(1) انظر السامرائي: **التقاليد والعادات الدمشقية**، ص86–87.

(2) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص40.

(3) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص143. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص258.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص668.

(5) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، 258.

(6) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيـرة**، تحقيـق يحيـى زكريا عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، 1991م، ج1 ق1، ص 50. انظر ابن الشحنة، أبو الفضل محمد: **تاريخ حلب**، علق عليه أبو اليمن البتروني، تحقيق كيكو أوتا، 1990م، ص27.

(7) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص520. الصايغ، هنرييت زاهي سابا: **اتجاهات الشعر العربي في القرن السـابع الهجري في بلاد الشام** (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة القاهرة، مصر، 1400هـ/1980م، ص80.

خلفاؤه على نهجه، في إكرامهم العلماء والفضلاء والأدباء، "إذ كان عصرهم عصر إحيــاء للفكــر والثقافة الإسلامية والعربية، كما كان عصر إحياء سياسي"[1]. حيث استمال السلاطين العلماءَ إلــى جانبهم، ليكونوا لهم مصدر دعم في التصدي للعقبات الداخلية، ولدفع الخطــر الخــارجي، وذلــك بالعلاقة الوثيقة بين العلماء وعامة الناس، في سعيهم المتواصل لكسبهم واستنهاض هممهم[2].

وكان الدافع من وراء تنشيط الحركة الفكرية تثبيتُ دعائم المذهب السني، الذي سار جنبــا إلى جنب مع سياسة الدولة الأيوبية، التي بالغ أربابها في الاهتمام بالعلوم الشرعية، وأهمها القــرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، يقول الأتروشي: "جاءت مساهمة الأيوبيين في الحيــاة العلميــة، وتشجيعهم العلم والعلماء انطلاقا من إيمانهم بالدين الإسلامي الذي حث على طلب العلم"[3].

وعلى الرغم مما عاناه المجتمع الشامي من فتن واضطرابات وحروب، وما نــتج عــن ذلك من تردي الوضع الاقتصادي، " فقد اتسم بطابع علمي باهر السنا، حيث استفاضت المعرفة في جوانب الشرق الإسلامي، وتشعبت فروعها، وكثر الأدباء والشعراء، والمؤرخون والفلاسفة والمتصوفة والحكماء "[4].

ولا شكَّ أن ثمار المعرفة اليانعة المتمثلة في زيادة أعداد العلمــاء والأدبــاء والأطبــاء الكبيرة في هذا العصر، إنما هي نتاج لبذرة العلوم التي زرعها الأمويون في بلاد الشام، وفــي دمشق على وجه التحديد[5]، وحافظ عليها الأيوبيون، بل وزادوا على ذلك، "وقد تمتع العلماء في في ظل دولة صلاح الدين وخلفائه ببحبوحة العيش، وصاروا يُختارون للشورى والوزارة، وكان لآرائهم أثرها في سير الحوادث"[6].

ولما كان الملك الناصر محبا العلمَ والأدب، ويحفظ الكثير من القرآن الكــريم والشــعر، ازدحم بلاطه بجماعة كثيرة من العلماء والفقهاء والقرّاء والأدباء والشعراء، وكثيــرا مــا كــان

---

(1) زغلول: **الأدب في العصر الأيوبي**، ص 75.
(2) انظر الأتروشي: **الحياة الفكرية في مصر**، ص69.
(3) المرجع السابق: ص 51.
(4) شكارنة: **أبو شامة المقدسي**، ص 7.
(5) انظر المرجع السابق: ص8.
(6) زغلول: **الأدب في العصر الأيوبي**، ص 89.

يستمع لقراءة القرآن الكريم، خاشعا متدبرا، ومما رواه كمال الدين بن العديم عنه قال: "كان ذات ليلة في سماع، وكأنه استطاب ذلك وتفكر في نعمة الله عليه، فسَمِعْتُه، وهو يقول: (ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ)"[(1) (2)]. ومما يروى عن استحضاره لآيات القرآن، وسرعة تمثله بها، أنّ المسلمين انتصروا على الفرنج واستردوا صيدا، وأنّ الفرنج ألقوا بأنفسهم في البحر خوفاً من القتل أو الأسر، فقال الملك الناصر: (مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً)"[(3) (4)].

واتصف الملك الناصر بحسن العقيدة والظن بالعلماء والصالحين، فكان يجِلُّهم ويتواضع لهم، ويكرمهم ويجزل لهم العطاء[(5)]، ومما يدلل على ذلك، ما رواه اليونيني من أن والده قصد زيارة الملك الناصر في جبل الصالحية، بزاوية الشيخ علي القرشي في دمشق سنة 655هـ، فقال: "ولما دخل عليه بالغ في التأدب معه وحسن الاستماع لحديثه، ولم يستند إلى الحائط في جلوسه "[(6)]. وكان لديه شغف في سماع الدرس الديني، ومجالسة الفقهاء والعلماء والاستماع لآرائهم. ومن ذلك أن الشيخ نجم الدين البادَرائي، أنشأ مدرسة بدمشق، وكان يلقي الدرس بنفسه فيها، فكان الناصر يحضر دروسه، ويستمع إليها مع الأكابر والأمراء والفقهاء وغيرهم[(7)].

وقد حظي الشعراء بمنزلة مرموقة عند الملك الناصر، إذ كانوا بمثابة المنبر الإعلامي للملك، يستخدمهم في تثبيت دعائم حكمه، فينافحون عنه ويدافعون، وكان يقربهم ويجالسهم، ويتخذ منهم ندماء، ويحاضرهم ويناظرهم ويطرب لسجالاتهم الشعرية[(8)]، ما جعل "سوق الشعر نافقة في أيامه"[(9)]، وكان الناصر يعظم الشعراء ويجلُّهم ويكرمهم غاية الإكرام، مهما اختلفت

---

(1) سورة النمل، آية 19.

(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140.

(3) سورة نوح، آية 25.

(4) انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140.

(5) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص142. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص662. **عيون التواريخ**، ج20، ص258.

(6) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص142.

(7) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص284. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص142.

(8) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص283، انظر **الكتبي: فوات الوفيات**، ج2، ص668-669. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص141.

(9) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص667.

مذاهبهم ومعتقداتهم، وخير مثال على ذلك العز[1] الضرير الفيلسوف الرافضي؛ إذ كان يجزل له له العطاء ولا يرد شفاعته يوما من الأيام[2]، حتى وصل به الأمر إلى إقطاع بعضهم ضياعا، فقد وهب تاج الدين التنوخي[3] ضيعة على نهر ثَوْرا[4] من أنهار دمشق.

ولم يقف حاله مع شعراء بلاطه إلى هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى درجة اضمحلت فيها الفوارق بينه وبينهم، فكانت علاقته معهم علاقة صداقة وأخوة، كما كان حاله مع شرف الدين الأنصاري، الذي " كانت تقع بينه وبينه مكاتبات كثيرة"[5]. وأحيانا كان يتخللها المزاح والهزل، كما حدث مع نور الدين الإسعري[6]، الذي صفعه شرف الدين بن الشَّيْرجي[7]، بإشارة من الملك الناصر[8]. وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على علو مرتبة الشعراء ومكانتهم عند الملك الناصر.

---

(1) الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الغنوي النصيبي الشافعي (586-660هـ)، ولد بنصيبين، ونشأ بإربل وتوفي بدمشق، كان ذكيا فصيحا حسن المحاضرة والعبارة، أديبا فاضلا في سائر العلوم، رأسا في العقليات، وشعره حسن، وله هجو خبيث، وحرمة وافرة، وكان يهين الرؤساء وأولادهم بالقول، وكان قذرا رزي الشكل قبيح المنظر لا يتوقى النجاسات، ابتلي مع العمى بقروح وطلوعات، وكان يصدر منه ما يُشعر بانحلاله وفساد عقيدته. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص165. الذهبي: **تاريخ الإسلام** (651-660هـ)، ص411-412. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص345. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص207. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص521.

(2) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص345. **عيون التواريخ**، ج20، ص268. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج12، ص154.

(3) محمد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر بن أحمد بن حوارى أبو المكارم ابن شقير الدمشقي(606-669هـ)، دمشقي المولد والدار والوفاة. كان أديبا فاضلا وفقيها محدثا، وعنده رئاسة وحسن محاضرة ومكارم أخلاق، كان الملك الناصر يحبه ويقدمه على غيره من الشعراء الذين في خدمته. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص221. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص464. الذهبي: **تاريخ الإسلام** 661-670هـ، ص295. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج20، ص408. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص234.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص380. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج4، ص49.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص285. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص 143.

(6) محمد بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد بن رستم (619-656هـ)، كان أديبا فاضلا، غلب عليه المجون والهزل، قال الشعر الرائق، اتصل بالناصر بقصائد سماها "الناصريات"، وكان من كبار شعرائه، وله به اختصاص. انظر الذهبي: **تاريخ الإسلام** (651-660هـ)، ص288. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص271. **عيون التواريخ**، ج20، ص189. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص188. الزركلي: **الأعلام**، ج7، ص29. الجبوري، كامل سلمان: **معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة2005م**، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م، ج5، ص231-232.

(7) لم أهتد إلى ترجمة له.

(8) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص272. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص189.

واتسم عهد الملك الناصر بالحرية والتسامح وتعدد المذاهب المختلفة، فكان ذلك سببا في بروز الكفاءات والمواهب، مما ساعد على التنافس المشروع في فروع المعرفة والثقافة كلها، ولهذا كثر بناء المدارس ودور الحديث في أرجاء الشام. وللملك الناصر مآثره في ذلك، حيث أقام المدرسة الناصرية في دمشق، وأوقف عليها المال الكثير، واستجلب لها أمّات الكتب ومفاخرها، وأودعها خزانتها ليرجع إليها أهل المدرسة من الأساتذة والطلاب[1]. ودرَّس فيها عدد من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم صدر الدين بن سناء الدولة[2]، والقاضي شمس الدين بن خلكان، الذي كان الملك الناصر يحضر دروسه ومعه الأمراء والعلماء وأهل الجاه في دمشق[3]. دمشق[3].

ولم تكن أسباب المعرفة والعلم مقتصرة على المدارس والمساجد ودور الحديث حسب، بل شاركت المكتبات بهذا الفضل لاهتمام الخاصة والعامة باقتناء الكتب وتداولها وحفظها، ومنها مكتبة الوزير القفطي، وقد جمع فيها ما لا يحصى من الكتب النفيسة، إذ كان دائم المطالعة فيها، كثير المحافظة عليها. ولما لم يكن لديه زوجة ولا ولد، يرثها من بعده، أوصى بها للملك

(1) انظر أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص212. ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر بن أبي الفوارس: **تتمة المختصر في أخبار البشر**، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1389هـ/1970م، ج2، ص305. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي: **البداية والنهاية**، ط1، بيروت، مكتبة المعارف، 1966م، ج13 ص193. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص35. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص374. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

(2) "صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن بن الخياط الدمشقي(589–658هـ)، كان فقيها إماما عالما بالمذهب، مشكور السيرة في ولاياته، تولى قضاء دمشق سنة643هـ، ولم يزل مستمرا في الحكم إلى أن انقضت الدولة الناصرية". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص233.

(3) انظر ابن كثير: **البداية و النهاية**، ج13، ص193. النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي: **الدارس في تاريخ المدارس**، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990، ج1، ص350–351.

الناصر. لما علم منه حبه للعلم والمعرفة، وقد قدرت بخمسين ألف دينار[1]. وكان من أشهر المكتبات في هذا العصر خزانة ابن أبي أصيبعة[2] بدمشق التي ضمت كتباً كثيرةً[3].

وكان من إفرازات هذه الحركة العلمية النشطة، نشاط حركة التأليف والكتابة التي شجّعها الناصر، ما أدى إلى تنوّع الكتب في مختلف ألوان العلوم الدينية والدنيوية، وأهمها القرآن الكريم، والحديث الشريف، والفقه، وعلوم اللغة، والتاريخ، والفلسفة، والطب. "ولمع في كل فرع من هذه الفروع أسماء رجال وأعلام، ألّفوا من الكتب ما تفخر به المكتبة العربية، ويزهو به العصر، ولا يزال يعد مرجعا إلى وقتنا هذا "[4].

لقي القرآن الكريم كلام الله تعالى والمتعبد بتلاوته اهتماما بالغا من الناس: حكاما ومحكومين. لذا عكف الكثيرون على قراءته، وتلاوته، وتفسيره وحفظه[5]، فكان الملك الناصر يحرص على سماع القرآن الكريم، ويخشع له، متدبرا معانيه العظيمة، وقد برز بعض القراء المشهورين في هذه الحقبة من الزمن منهم: علم الدين القاسم بن أحمد المرسي[6] شيخ القراء بدمشق، وكمال الدين إبراهيم بن فارس التميمي[7] شيخ قراء دمشق، وغيرهما[1].

---

(1) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص164. محمد كرد علي: **خطط الشام**، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1391هـ/1971م، ج6، ص188.

(2) "أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي، موفق الدين أبو العباس الطبيب الفاضل، كان أديبا طبيبا شاعرا، صنف كتاب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، توفي بصرخد سنة 668هـ". الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج7، ص295. انظر ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، 569.

(3) انظر محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص188.

(4) بدوي: **الحياة الأدبية**، ص 21.

(5) تجدر الإشارة إلى كثرة حفاظ القرآن الكريم من شعراء الناصر، مثل عون الدين بن العجمي، وهاشم الأسدي وغيرهما. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص86. ج9، ص112.

(6) " القاسم محمد بن بن أحمد بن الموفق بن جعفر، أبو قاسم علم الدين الأندلسي المرسي،(575-661هـ)، اشتغل بالقراءات والنحو والعربية، وبرع في ذلك، وكان إماما فاضلا، أحد المشايخ الصلحاء الجامعين بين العلم والعمل". اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص661. انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج2، ص102.

(7) "إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل بن فارس، أبو إسحاق الإسكندري المقرئ،(596-676هـ)، كان عارفا بالقراءات، واشتغل عليه خلق كثير بالقرآن الكريم، ولي نظر المال والجيش بدمشق مدة سنين، وكان مشهوراً بالأمانة وحسن السيرة،

أما الحديث النبوي الشريف، فقد اعتنى به الملوك وأكابر الدولة غاية الاعتناء. لأنه مصدر التشريع الثاني بعد القرآن الكريم، لذا بنى الملك الناصر دار الحديث الناصرية بدمشق[2]، لتكون منارة لطلاب حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأوقف عليها الوقف الجليل. وكثر المحدّثون في حاضرة الشام، فكان منهم: إبراهيم بن يوسف القفطي[3]، والصاحب عبد الرحمن بن العديم[4]. والزين خالد النابلسي[5]، "شيخ دار الحديث النورية بدمشق"[6].

وبرع الكثير من العلماء في الفقه والأصول، فنال بعضهم المرتبة المرموقة عند الملك الناصر، مثل بدر الدين بن الفويرة[7]، وعبد الرحمن بن العديم، واشتغل بعضهم في مناصب الدولة، مثل قاضي القضاة صدر الدين بن سناء الدولة.

كثير الديانة والخير والتواضع". اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص237. انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج5، ص309.

(1) انظر باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص 137- 138.

(2) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، 85.

(3) انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج1، ص133.

(4) عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، قاضي القضاة مجد الدين العقيلي الحلبي الحنفي(613-677هـ)، كان صدرا فاضلا إماما عالما ورعا كثير الديانة، تام الرئاسة، حسن المعاملة، ذا تعبد وأوراد وسيرة حميدة، يتواضع للصالحين ويعتقد فيهم، رحل لسماع الحديث وطلب العلم من حلب إلى دمشق ومصر والمدينة، كان عارفا بالأدب، وله نظم حسن لطيف، وكان إذا حضر مجلس الملك الناصر لا يترفع عليه أحد من صدور الحلبيين والدمشقيين. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص306. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(671-680هـ)، ص272. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج21، ص174. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج18، ص119. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص281. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص624.

(5) خالد بن يوسف بن سعد بن حسن بن مفرج بن بكار، أبو البقاء الشافعي(585-663هـ)، كان ذكيا فطنا ظريفا حلو النادرة، عالما بصناعة الحديث حافظا لأسماء الرجال، نظر في اللغة العربية، كان الناصر يحبه ويكرمه. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص326. الذهبي: **تاريخ الإسلام** (661-670هـ) ص145. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص378. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج13، ص283. السيوطي، عبد الرحمن: **طبقات الحفاظ**، تحقيق علي محمد عمر، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 1393هـ/1973م، ص504.

(6) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج13، ص246. النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، ص79.

(7) محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن حفاظ السلمي الحنفي الدمشقي(636-675هـ)، كان ذا مروءة وبر ومعروف ومكارم أخلاق، وله صدقة على الفقراء، وحسن ظن بهم، تفقه وبرع في المذهب، وأفتى واشتغل بالعربية والنحو، وحصل من ذلك طرفا جيدا، ونظم الشعر الرائق، وكان أحد الأذكياء الموصوفين. انظر اليونيني: **ذيل**

أما عن علوم العربية، فإن الترابط الوثيق بين القرآن الكريم واللغة العربية أعطاها اهتماما بالغا عند العلماء والأدباء والشعراء، فلا غرابة أن يشهد عهد الملك الناصر نشاطا في مختلف علومها وفنونها، فقد ظهر مِنَ العلماء مَنْ تخصص بفرع من فروعها كالشيخ جمال الدين بن مالك[1]، صاحب الألفية في النحو، وابن يعيش النحوي إمام النحويين في حلب، ومن أشهر مصنفاته " شرح المفصل للزمخشري"، و"شرح تصريف الملوك لابن جني"[2]، وكان الوزير القاضي جمال الدين بن القفطي من علماء النحو المشهود لهم بغزارة العلم واتساع المعرفة، ومن أشهر كتبه النحوية كتاب "الضاد والظاء "[3]. وشارك بعض شعراء الملك الناصر مشاركة فاعلة في النحو، ومنهم أبو الوليد ابن الجنّان[4]، الذي كان من أئمة النحويين المشهود لهم.

وزاد اهتمام الأدباء بالبلاغة في هذا العصر، لما للصنعة اللفظية من أثر في الأسماع والقلوب، لذا عني الكثير من الكتّاب بالبلاغة وأنواعها، " حتى صار التبحر فيها أحد السبل إلى المناصب العليا "[5] في الدولة، ومنهم الصاحب ابن العديم والوزير القفطي، وألّف أبو الحسن البصري[6] سنة 647هـ كتاب " الحماسة البصرية " للملك الناصر[7]، ضمنه مختارات أدبية، في

مرآة الزمان، ج3، ص203. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(671–680هـ)، ص195. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص366. **عيون التواريخ**، ج21، ص117. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج3، ص235. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص254. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص606.

(1) انظر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص376.

(2) انظر ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان**، ج10، ص131.

(3) انظر ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان**، ج5، ص9. الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، ص164.

(4) محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبد الحق بن خلف بن مفرج بن سعيد فخر الدين الكناني الشاطبي الحنفي،(615–675هـ) ولد بشاطبة، وتوفي بدمشق، كان دمث الأخلاق كريم الشمائل كثير الاحتمال واسع الصدر حسن العشرة والمزاح، كان أديبا فاضلا وشاعرا محسنا، له مشاركة في علوم كثيرة. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص197. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(671–680هـ)، ص194. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص264. **عيون التواريخ**، ج21، ص112. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص175. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق2، ص634. المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص123.

(5) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص 55.

(6) صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري، توفي سنة656هـ. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بغداد، مكتبة المثنى، ج1، ص693

(7) انظر حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج1، ص693. فروخ، عمر: **تاريخ الأدب العربي**، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1989م، ج3، 592. كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، اعتناء وجمع وإخراج مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1414هـ/1993م، ج2، ص485.

الحماسة والمديح والرثاء والغزل، وغير ذلك مما يساعد في تأصيل الذوق البلاغي عند طلاب العلم.

وتؤثر البلاغة في الشعر والنثر، إذ ازداد التأليف في أنواعها، فقد نظم الشعراء في البديعيات[1] الشيء الكثير، وكان من علماء البلاغة، أمين الدين السليماني أحد شعراء الملك الناصر وأعيانه، ومن مؤلفاته قصيدته البديعية في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ جعل في كل بيت منها نوعاً من أنواع البديع[2].

وانعكست الصنعة اللفظية على فنون النثر، وخدمت شريحة واسعة من كتاب الدواوين، لاسيما دواوين الإنشاء، إذ حرص المنشئون على إبراز ملكاتهم الفنية، وقدراتهم الكتابية أمام ملوكهم، " حتى غدا الإنشاء فنا ذا قواعد معينة "[3]، مما جعل الملك الناصر يقربهم إليه ويعتمد عليهم في أسراره ومراسلاته. وأشهر كتاب الإنشاء عند الملك الناصر كمال الدين أحمد بن عبد العزيز العجمي[4]، ويحيى بن خالد بن القيسراني[5]، ونظام الدين بن المولى.

أما في علم التاريخ، فقد كانت بلاد الشام مسرحا للأحداث السياسية المستمرة، كان أبرزها الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين[6]. لقد تركت هذه الأحداث أثرا في نفوس الناس، وحركت اهتمام المؤرخين في تدوينها وتوثيقها، بل وتدريسها للاستفادة والاعتبار منها، فقد خصص أبو شامة المقدسي درسا للتاريخ ضمن سلسلة دروسه في الجامع الأموي[7]. وانقسم

---

(1) "البديعيات: فن جديد من فنون الصناعة اللفظية ظهر في القرن السابع الهجري، وهو عبارة عن قصائد شعرية نظمت في مدح الرسول –عليه الصلاة والسلام– على وزن البحر البسيط وقافية الميم في أغلب البديعيات، وتتوشح بجميع الفنون البديعة، ويعتقد أن أول من نظمها أمين الدين السليماني". عكاوي، إنعام فوال: **المعجم المفصل في علوم البلاغة**، مراجعة أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ–1992م، ص258.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102. الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص135.

(3) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص 55.

(4) انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج7، ص69. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص196.

(5) " يحيى بن خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن خالد بن داغر القيسراني(571–656هـ)، من أعيان أهل حلب في في الفضل وأماثلهم، وصاحب ديوان الإنشاء، ورأس كُتّاب الرسائل، وكاتب السر، والمعتمد عليه في دولة الملك الناصر". ابن الشعار الموصلي، **قلائد الجمان**، ج9، ص231. انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص179.

(6) عاشور، سعيد عبد الفتاح: **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، 2000م، ص136.

(7) انظر باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص 158.

التأليف التاريخي في هذا العصر إلى أقسام ثلاثة، فمنهم من كتب في التاريخ العام، أمثال سبط ابن الجوزي في كتابه " مرآة الزمان "[1]، والقفطي في كتابه " تاريخ المغرب "[2]. ومنهم من كتب في التاريخ الخاص مثل ابن العديم في كتابه "زبدة الحلب في تاريخ حلب "، وأبي شامة المقدسي في كتابه " الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية "[3]. ومنهم من أرخ للتراجم والأعلام، بحسب طبقاتهم وشهرتهم، كالقاضي القفطي في كتابه " أخبار النحويين "[4]، والقاضي ابن خلكان في كتابه " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"[5].

أما عن العلوم العقلية، فلم ينشط أصحابها في ظل الدولة الأيوبية، بسبب موقف ملوكها من الفلسفة والمنطق، فضلا عن معارضة رجال الدين للفلاسفة وتكفيرهم على انحراف أفكارهم ومعتقداتهم المضلّلة، والإفتاء بقتلهم إذا اقتضى الأمر، وهذا ما حدث مع الفيلسوف السهروردي[6]، إذ أفتى فقهاء حلب بقتله، ما جعل الناصر صلاح الدين الأيوبي يأمر ابنه الظاهر الظاهر بذلك، " فعزلت هذه المحنة الفلاسفة عن حلقاتهم العلمية في بلاد الشام، فعاشوا منعزلين يصفون آثارهم طي الكتمان، ويخفونها عن العوام، ويطلعون عليها الخاصة من أصدقائهم، لأنهم كانوا يخشون على حياتهم"[7]. إلا أنهم وجدوا فسحة من أمرهم في عهد الملك الناصر، وتشجيعا منه، إذ كان عصره عصر حرية وتسامح تجاه المعتقدات والأفكار، ولا أدلَّ على ذلك من منزلة العز الضرير الفيلسوف الرافضي عنده؛ حيث كان يعقد مجالسه الفلسفية على الملأ، وكثيرا ما

---

(1) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص663.
(2) المصدر السابق: ج2، ص164.
(3) انظر المصدر السابق: ج1، ص617.
(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص164.
(5) انظر المصدر السابق: ج1، ص153.
(6) "يحيى بن حبش شهاب الدين أبو الفتوح السهروردي، كان فقيهاً شافعي المذهب أصولياً أديباً شاعراً حكيماً، لم يناظرْهُ يناظرْهُ مناظر إلا خصمه وأفحمه، اتهم بالإلحاد والزندقة، قُتل سنة 587هـ، وقد قارب الأربعين". ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي، **معجم الأدباء**، الطبعة الأخيرة، مصر، دار المأمون، 1960م، ج19، ص314. انظر ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، ج5، ص317.
(7) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص166. انظر الهيب: **الحركة الشعرية**، ص58.

تردد إليه الفلاسفة من المسلمين والنصارى واليهود للنقاش والحوار. ومما أثر عن العز الرافضي أنه كان يجهر بترك الصلاة، وتفضيل علي على أبي بكر وعثمان[1].

أما عن الطب، فقد ازدهر في العصر الأيوبي، وتعددت مدارسه، وكان أهمها المدرسة الدَّخْوَارية عند الجامع الأموي بدمشق، حيث تنسب إلى الطبيب مهذب الدين الدَّخْوَار[2]، والمدرسة اللَّبّوديَّة، وتنسب إلى نجم الدين اللَّبّودي[3]، والمدرسة الدُّنَيْسرية، التي أنشأها الحكيم عماد الدين الدُّنَيْسري[4]. وقد لقيت مهنة الطب عناية فائقة من السلاطين الذين أخذوا يُقرّبون الأطباء إليهم، ويفرضون لهم الرواتب العظيمة، حتى أصبحت هذه المهنة مصدرا للثروة والجاه، " مما أدى إلى كثرة الأطباء، وظهور نوع من التخصص، مثل الطب الباطني، وطب العيون الذي كان يسمى صاحبه الكحّال، والطب البيطري"[5].

ولمع اسم الكثير من الأطباء عند الملك الناصر، كالزين الحافظي الذي تولى المناصب العديدة عند الملك الناصر، وحاز الأموال الكثيرة، فضلا عن كونه أديبا شاعرا[6]. ومن الأطباء الذين اعتمد عليهم الملك الناصر، وأحسن إليهم، الحكيم موفق الدين عبد السلام بن عثمان الحموي، الذي تميز في "جمعه الصناعة الطبية، والعلوم الحكمية، والأخلاق الحميدة والآراء السديدة"[7]، "فكان من الفضلاء في علم الطب، جيد المباشرة جدا، وكان من ذوي المروءات، لم

---

(1) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص345. **عيون التواريخ**، ج20، ص268. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج12، ص154.

(2) "عبد الرحيم بن علي بن حامد (565–627هـ)، تخرج به جماعة كثيرة من الأطباء، وصنف كتبا منها "اختصار الحاوي"، وكان خبيرا بكل ما يُقرأ عليه". الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص655. انظر محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص100.

(3) "الوزير الصدر الصاحب يحيى بن محمد بن عبد الله (607–670هـ)، الطبيب المشهور بسعة العلم، توفي ودفن بتربته، التي أنشأها وجعلها دار طب وهندسة، وجعل ثلث أوقافه عليها". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص429. انظر محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص101.

(4) "محمد بن عباس بن أحمد بن صالح، قرأ الطب حتى برع فيه، وسمع الحديث بمصر، وصحب البهاء زهير وتخرج وتخرج به في الأدب والشعر، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، توفي سنة 686هـ". الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص365. انظر ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص761. علي: خطط الشام، ج6، ص101.

(5) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص59.

(6) انظر ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص 668. الكتبي، **فوات الوفيات**، ج1، ص461.

(7) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ص 755.

يقصده أحد إلا وساعده بجاهه ونفعه عند السلطان"[1]، إذ مكث في خدمة الملك الناصر إلـــى أن دهم التتار بلاد الشام، فتوجه إلى مصر وأقام فيها[2]. ومنهم الحكيم شرف الدين الرَّحَبي[3]، الذي الذي درَّس بالمدرسة الدَّخْوَارية، عملاً بوصية واقفها مهذب الدين الدَّخْوَار[4]. وخدم الطبيب نجم نجم الدين اللَّبودي الملك الناصر، وترقّى عنده، وجعله ناظر الديوان فـــي دمشـــق[5]، واشـــتغل "الحكيم العالم الأديب عماد الدين الدُّنَيْسري بقلعة دمشق، ثم خدم في البيمارستان الكبير النـــوري بدمشق"[6]، وكان قبل ذلك يعمل مدرِّساً في المدرسة الدَّخْوَارية[7].

وكثر تأليف كتب الطب، نظراً لكثرة الأطباء والمختصّين بهذا المضمار، وكان الحكـــيم عماد الدين الدُّنَيْسري من أكثرهم تأليفاً وتصنيفا، فقد صنف "المقالة المرشدة فـــي درج الأدويـــة المفردة"، و"أرجوزة في الدرياق الفاروق"[8]، وغير ذلك.

وأخيرا، فإن بلاد الشام ما كانت لتصل إلى هذا الحد من النضوج الفكـــري، والشـــمولية المعرفية، لولا اهتمام السلاطين الأيوبيين، ومواكبتهم الحركة الفكرية، وتشجيعهم علـــى البحـــث والتأليف، ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة التخصص في التأليف كانت واضحة عند بعضهم، ولكن الكثير منهم قد جمع أصول المعرفة في شتى العلوم وعناصرها الثقافيـــة، كـــالوزير القفطـــي، والصاحب ابن العديم، وأبي شامة المقدسي، وغيرهم.

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص284.

(2) انظر ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص757.

(3) "أبو الحسن علي بن يوسف بن حيدرة، شيخ الأطباء وكبيرهم، قرأ الطب، واشتغل بالأدب وفاق على أهـــل زمانـــه، توفي سنة 667هـ". الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص389. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص569.

(4) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص389. محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص101.

(5) انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص429. محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص101.

(6) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء**، ص761. انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص365.

(7) انظر محمد كرد: **خطط الشام**، ج6، ص101.

(8) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص365.

الفصل الثاني

الملك الناصر: شعره ومجالسه الشعرية

الفصل الثاني

الملك الناصر: شعره ومجالسة الشعرية

أولاً: الملك الناصر شاعراً

إن الحديث عن الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر يوجب على الباحث الحديث عن شاعريته، ودوره الفاعل فيها، فلم تكن هذه الحركة مزدهرة، لولا وجود الكثير من الجوانب المهمة في شخصيته الثقافية المهتمة بالشعر وأهله، التي ورثها عن أبيه الملك العزيز، ونشأ عليها، وكذلك ما أخذه وحفظه من مؤدبه كمال الدين الخزرجي[1] من فضائل الأدب وطرائفه، ونوادر الشعر في عصوره المختلفة، وغيرها من أمور ساهمت في نبوغ ثقافته الأدبية، وتَفَتُّح قريحته الشعرية، ما جعله يشارك الأدباء والفضلاء في فنون الأدب والشعر.

لقد أشاد النقاد والمؤرخون بشعر الناصر وشاعريته، وذكروا الكثير من المؤهلات التي حركت قريحته الشعرية، فسجلوا بآرائهم بعض ما يدلل على قرضه الشعر ونظمه له، وتمكُّنه منه، ومن ذلك ما أورده ابن واصل، فقال: "وتقرب إليه جماعة من الأدباء والفضلاء، فكان يحاضرهم أحسن محاضرة، وكان على ذهنه شيء كثير من الأدب والشعر، ينظم نظما حسنا، وكان حسن النادرة، سريع الجواب المسكت"[2]. وقال اليونيني: "وكان على ذهنه شيء كثير من الأدب وأشعار العرب، وغيرهم من المتأخرين، وينظم نظما حسناً، وله نوادر حلوة وأجوبة مسكتة "[3]. وتحدث الذهبي والكتبي والصفدي عن محبته الأدباء والفضلاء ومحاضرته لهم، وكثرة ما يحفظه من الشعر والأدب وما عنده من النوادر والأجوبة، والشعر الجيد، ورواج سوق الشعر في عهده[4].

---

(1) "يحيى بن محمد بن علي بن مجاهد، أبو زكريا كمال الدين الخزرجي، من أهل تلمسان من بلاد المغرب، نزل حلب، وسكنها وأدب الملك الناصر، وكان كثير التردد على مجالس الوزير مؤيد الدين القفطي ويمدحه، كان من أهل الأدب والفضل، ويحفظ القرآن الكريم، ويقول الشعر الحسن، توفي سنة 656هـ". ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص40-41.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 283.

(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص142.

(4) الذهبي: **تاريخ الإسلام** (651-660هـ)، ص402. انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 667-668. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص137. **تحفة ذوي الألباب**، ج2، ص156.

وقال ابن تغري بردي: "عنده معرفة بالأدب، وكان فصيحا شاعرا لطيفاً"[1]. وذكره الحنبلي، فقال:" وكان على ذهنه شيء كثير من الأدب والفوائد، وله أشعار كثيرة "[2]، وأورد ابن العماد نبذة عنه، من ذلك قوله:" كان للشعراء دولة في أيامه، لأنه كان يقول الشعر ويجيز عليه، ومجلسه مجلس ندماء وأدباء "[3].

والجدير بالذكر أن هؤلاء النقاد والمترجمين، لم يذكروا حجم أشعار الناصر، على الرغم من التنويه بكثرتها وغزارتها، ولم يُجمع شعرُه في ديوان يُرجع إليه، وذلك لمعرفة آثاره الشعرية، ونتاجه الفني، وقد يُعزى ذلك إلى أسباب كثيرة، منها أن هذه الحقبة الزمنية شهدت أحداثاً جساماً، تمثلت بكثرة الحروب، التي كان آخرها غزو التتار، وما تبعها من قتل وتخريب نتج عنه آفات صحية، أدت إلى انشغال الناس بأحوالهم الخاصة، وهروب الكثيرين من بلاد الشام، وراح ضحيتها الكثير من حفاظ الشعر ورواته، فضلا عن إحراق المكتبات الزاخرة بالكتب القيمة على أيدي المغول.

ومن الأسباب أن المترجمين لم يتعرضوا في كتبهم التاريخية لكل أشعاره، بل اقتصروا على ذكر بعضٍ منها، حسب ما يقتضيه الموقف، ودعت إليه الحاجة، لكونها كتب تاريخ لا كتب أدب، فقد سمع ابن واصل أشعارا كثيرةً جيدة للملك الناصر[4]، ولكنه أورد طرفاً منها في كتابه، ومن ذلك ما صرَّح به اليونيني بعد تقديمه بعضَ أشعاره، فقال: "وله إنشاء كثير اقتصرت منه على هذا، فلقد كان من حسنات الزمان رحمه الله تعالى"[5]، ومن ذلك ما ذكره الدواداري في معرض إيراده لأشعار الناصر التي قالها في رثاء حلب، وفي مقدمتها قصيدته المشهورة الطويلة، فقال عنها:" وهي قصيدة طويلة نيف وستين بيتاً، أشهر "من قفا نبك"؛ فلذلك أضربتُ عن إثبات جملتها كون تاريخنا تاريخ اختصار، لا تاريخ تحشية وإكثار" [6]. فلم يورد منها إلا خمسة أبيات فقط.

---

(1) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص204.

(2) الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص 373.

(3) ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

(4) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص285.

(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص469.

(6) الدواداري: **كنز الدرر وجامع الغرر**(الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، 1391هـ/1971م، ج8، ص59.

أضف إلى ذلك شهادة كبار الأدباء والشعراء ممن عاصره، وتحدثوا عن جودة أشعاره، في معرض روايتهم بعض أشعاره، كابن العديم، وكمال الدين بن العجمي، وأبي الحسن البصري(1).

وعليه، فإن أشعار الملك الناصر التي وردت في كل المصادر والمراجع التي توصل إليها هذا البحث –باستثناء ما تكرر منها– تعد مائة بيت، كان أكثرها عبارة عن مقطعات شعرية، وأبيات مفردة، جرت عادته على نظمها في حياته اليومية، إذ كانت هذه المقطعات قريبة التناول في التعبير عما يعتلج قلب الناصر من أفكار وعواطف، فهي لم تتطلب منه الجهد والوقت كما هو الحال في القصائد الطويلة، سواء ما كان في مجالسه الشعرية، أم في تنقلاته وأسفاره، أم ما قاله وهو أسير في قبضة التتار، يرثي نفسه ودار ملكه حلب.

وكان لشعراء عصره وبلاطه دور في تأكيد شاعريته، والتنويه بفضل شعره وجودته، من ذلك ما أنشده فيه نور الدين الإسعردي، الذي قال:

لقدْ وصلْتَ إلى مُلْكٍ سما شرَفًا وسُؤْدُدًا وعُلاً أَرْبى من الشُّهُبِ

بحرٌ إذا أمْطَرتْ أفْكارَهُ سُحُبُ الـ كاساتِ أبْدى لنا كَالرّاحِ والحَبَبِ(2)

يُديرُ منهُ على أسماعِنا مِلَحا شعرًا فَنَخْتالُ منْ سُكرٍ ومنْ طَرَبِ(3)

وأبدى كمال الدين بن العجمي إعجابه بأشعار الملك الناصر، التي كان ينشدها إياه بين الحين والآخر في مجالسه معه، إذ ترجم ذلك في أبيات من الشعر، قال فيها:

لقد حِرْتُ في هذا القَريضِ وحُسْنِه فمِنْ حيرَتي لمْ أدْرِ كَيْفَ أقولُ

(1) انظر الذهبي: **تاريخ الإسلام** (651–659هـ)، ص403. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص669. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140–141. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص204.

(2) الحبب والحَباب: الفقاقيع على وجه الماء، يقال طفا الحباب على الشراب، والراح بمعنى الخمر. **المعجم الوسيط**: مادة حبب، روح.

(3) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص124، نقلا عن ديوانه، مخطوط الإسكوريال، الورقة 53.

أسِــحْرُ عيــونِ العــينِ أم خمــرُ بابِــلٍ أم الــــدُّر أم روْضٌ زَهتْـــه قبـــولُ

بخـــطٍّ كمـــا خُـــطَّ العَـــذارُ مُنَمْنَـــاً لهُ فـــي ســـنا الخَـــدِّ الأســـيلِ مَســـيلُ[1]

ثانيا: موضوعات شعر الملك الناصر

كان الشعر للملك الناصر غذاءً روحانياً وحاجة فطرية، يتزود منه طيلة أيامــه، ســواء كان مقيماً في مملكته أم مرتحلاً عنها، والناظر في أشعاره المبثوثة في كتــب التــاريخ والأدب والتراجم، يجدها منظومةً في مناسبات ومواقف متعددة، فضلا عن استحضاره[2] شــعر غيــره، وتمثُّله به، حسب طبيعة الحدث الذي يعاينه، أو يسمع عنه، بما يتناسب وحالته النفســية، ومــا كانت عليه دولته، من أمن واستقرار، أو اضطراب.

وعلى الرغم من قصر عمره، وقلة ما وصل من شــعره، إلا أن أغراضــه الشــعرية تنوعت وتعددت، فقد قال في الغزل والخمريات والإخوانيات، وما يتناسب وحالة الرخاء التــي كان عليها، لاسيما بعد تملّكه دمشق، واتساع دولته، وكثرة إيرادات بلاده. وقال الناصر في رثاء النفس والمدن والشوق والحنين، معبِّراً عن معاناته النفسية التي نجمــت عــن ســقوط دولتــه، ووقوعه أسيرا في قبضة التتار.

أولا: الغزل

إن الغزل من أهم أغراض الشعر الذي تناوله الشعراء في عصر الناصر، إذ كــان لــه موروث ضخم من تجارب السابقين في الحب والعشق، فقد امتلأ الأدب العربي بهذا الغرض، إذ عبَّر كل شاعر عن عاطفته ووجدانه بطريقته الخاصة، وذلك حسب مقدار الحب فــي نفســه أو واقع الحياة، والبيئة المحيطة بالعاشقين، "بتحررها أو محافظتها، بانفتاحها أو انغلاقها، بثرائها أو فقرها، بخصبها أو قحطها، بقصورها أو مضاربها"[3].

---

(1) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص142.

(2) برزت ظاهرة استحضار أشعار السابقين بكثرة عند الملك الناصر وشعرائه.

(3) يوسف، خالد إبراهيم: **الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي الســلطان**، ط1، بيــروت، دار النهضــة العربية، 2003م، ص 399.

والغزل في محوره يدور حول المحبوبة، يذكر صفاتها الخُلقية والخَلقية، إضافة إلى ما يعانيه العاشق من ألم الفراق أو الهجر، ويتخلل ذلك الحزن والوجد والشكوى والتذمر من البعد والصد. في محاولة يائسة من الشاعر يستعطف فيها معشوقه لكسب وده وحنانه.

وكان غزل الملك الناصر عفيفا في ألفاظه ومعانيه، بعيدا عما يخدش الحياء من التصوير الحسي الدقيق والبذيء المثير للشهوة، واتسم ببساطة ألفاظه الطاهرة العذبة، في تصوير عواطفه الجياشة تجاه المحبوبة، ومعاناته ولجوئه إلى البكاء والسهر في مكابدة ألم الفراق والصد. ولعلَّ ما كان عليه الملك الناصر من ترف وعيش هانئ، ترك أثاراً بالغةً في غزله الذي هو أكثر أغراضه نظماً، فجعله يستهوي هذا الغرض، ويطرب لسماعه، في مجالس أنسه مع شعراء بلاطه، ويشاركهم في بعض مقطعاته الشعرية.

أما عن منهجه في الغزل، فقد كان الناصر مقلدا سابقيه من الشعراء في معاني غزله، وفي وصف المعاناة النفسية، والشكوى من الوشاة، والتركيز على الصفات المادية الحسية. ولقد عبّر الناصر في بداية مقطعاته الشعرية عن بكائه، وشوقه، وحنينه، وحزنه الشديد على فراق المحبوبة، ومن ذلك قوله:

ألا هَلْ يعيدُ اللهُ وصلَ الحبايِبِ فقد طال حزْني من دموعي السَّواكبِ[1]

فالناصر تمنّى امتداد حبل المودة بعدما انقطع، وفاضت دموعه، مما زاد من كمده، وزاد أرقه وطول سهره. وقد امتلأت نفسه بعشق المحبوبة، فقال:

جفا النومُ عيني حينَ فاضتْ مدامِعي وخافَ هلاكاً من خِلال النحايب

وكيف أُرجّي النّومَ بعدَ بعادِكُم وفي قَلبيَ الأشواقُ من كُلِّ جانِبِ[2]

ويستسلم الناصر أمام محبوبته، إذ وقع بشَرَك حبها، فغدا مملوكاً ضعيفاً، ليس له سلطان على نفسه، بعدما ملك بسلطانه البلاد والعباد، فقال:

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 286. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص466.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص286. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص467.

وأصـــبحتُ عبـــداً بعـــدَما كنـــتُ مالِكًـــا   كذلكَ ربّ الســـجْن يوســـفُ صـــاحِبي[1]

فقد أصبح الملك الناصر عبدا أسير الهوى تتحكم بمصيره الأقدار، فلـم يسـتطع أحـد نصرته وإنقاذه، وهذا من شأنه يذكى روح التمايز والمفارقة في شعره، لكونه ملكا على النـاس ولكنه في حقيقة الأمر مملوكاً لمحبوبته، كما يبدو في قوله:

وأمســـيتُ مخـــذولاً وقـــدْ كنـــتُ ناصـــراً   وكنتُ مليكًـــا صـــرتُ عبـــدًا مُكَلَّفـــاً[2]

لقد فطر الملك الناصر على الحب والغرام منذ صغره، وقلبه مملـوء بـالهوى، وهـو يصرح بذلك ويعلنه على الملأ، ويُشهد الله عليه، ويقال إنه لما سمع قول الشاعر العذري مجنون ليلى:

أتاني هَواهـــا قبْـــلَ أنْ أعـــرفَ الهَـــوى   فصـــادفَ قلْبـــي فارغًـــا فَتَمَكَّنـــا

أنشد في الحال ارتجالا:

فُطِـــرْتُ علـــى حُبّـــي لهـــا وألِفْتُـــهُ   ولا بُـــدَّ أنْ ألقـــى بِـــه اللهَ مُعْلِنـــا

ولمْ يخْلُ مـــن قلبـــي هَواهـــا بِقَـــدْرِ مـــا   أقـــولُ أتاهـــا فارِغـــا فَتَمَكَّنـــا[3]

وكاد الناصر أن يموت من مكابدة الهوى، وظلّت دموعه تذرف شوقا وحبا، حتى غـدا البكاء عنده أمرا مألوفا، يقول:

أبـــى الوجـــدُ إلاّ أنْ أمـــوتَ تأَسُّـــفًا   ألمْ يجْرِ منْ دَمْعي على الوَجْـدِ مَأْلفـــا[4]

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 286. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص259.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 286. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص467. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص259.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287.

ويظل الشوق والحنين يراودانه، مهما نجم عن المحبوبة من الصد والحرمان، وهو يقسم على البقاء في حبها والوفاء لها، يقول:

فَـــوَاللهِ لـــو قطعـــتِ قلْبـــي تأَسُّـــفًا وجَرَّعْتِني كاساتِ دمْعـــي دَمًـــا صِـــرْفا

لَمـــــا زادَنـــــي إلاّ هَـــــوىً ومَحبَّـــــةً ولا اتَّخَذَتْ روحي سَـواكِ لهـا إِلْفـا[1]

ولم يزل الناصر في شوق لمحبوبته، ظامئا لبحر وصلها، يناجي الحمائم كي تهـون عليـه همه، وتشاركه مصابه، يقول في المخمس[2]:

فُؤادي في بحـــرٍ مـــن الشـــوق قـــدْ طَمـــا ولكنَّـــه قـــدْ مـــاتَ مـــن دونِـــه ظَمـــا

أَيا بِنْتَ أيـــكٍ قـــد تغنّـــتْ علـــى الحِمـــى خُذي مـــنْ فُنـــونِ الوَجْـــدِ عنّـــي فإِنَّمـــا

بِدَمْعي يُروى بانُ سفْحِ طُوَيْلِعِ[3] [4]

واشتكى الناصر من العذّال واللائمين والحساد، الذين حاولوا ثنيـه عـن هـذا الحـب، وناشدهم الله أن يتركوه في محنته وبلواه، يقول:

لـــكَ اللهُ دَعْنِـــي يـــا عَـــذُولي فـــإِنَّني بِما جَرَت من بَلْوى الغَرامِ علـــى شَـفا[5]

أما عن صفات المحبوبة، فهي ظاهرة في أشعار الملك الناصر الغزلية، وهـي كالشـمس صفاء ونورا، بل الشمس مرآة لها، يقول:

الشـــــمسُ أنْـــــتِ وإِنَّمـــــا لـــــكِ وجْـــــهُ هـــــذا الشـــــمسِ ظِـــــلٌّ[6]

---

(1) أبو الفداء، **المختصر**، ج3، ص212. ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج2، ص305. الكتبـي، **فـوات الوفيـات**، ج2، ص669. **عيون التواريخ**، ج20، ص260. الحنبلي، **شفاء القلوب**، ص373.

(2) "المخمس: أن يُؤتى بخمسة أقسمة (أشطر) على قافية، ثم بخمسة أُخر في وزنها على قافية غيرها كذلك، إلى أن يفرغ يفرغ من القصيدة، وهذا هو الأصل". ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، بيروت، دار الجيل، 1972م، ج1، ص180.

(3) "طويلع: هضبة بمكة معروفة، عليها بيوت ومساكن لأهل مكة، أو واد في البصرة إلى اليمامة". يـاقوت الحمـوي: **معجم البلدان**، ج4، ص58.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص286- 287. الكتبي:**عيون التواريخ**، ج20، ص260.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287.

(6) المصدر السابق، ص287.

وعيْنا المحبوبة سهامٌ أصابت قلبه، حتى سال دمه في محراب حبها، يقول:

هي الشمسُ تُجلى من سُجوف الغَياهِب[1] دمِـــــي قـــدْ أَظلَّتْـــهُ نـــواظِرُ غـــادةٍ
الغَياهِـــــــــــــــــــــب[1]

رمَتْنـــي بســـهمٍ مـــن كِنانـــةِ سِـــحْرِها فصـــارَ علـــيَّ الوجـــدُ ضـــربةَ لازِبِ[2]

ومحبوبة الناصر جمعت أطراف الجمال والكمال، فصوتها ناعم مرهف، وهـــي كحيلـــة العينـــين، رقيقة الخصر، أسنانها كاللؤلؤ المصون، كما يبدو في قوله:

تعشَّـــقْتُ أحـــــرى أغـــــنَّ مُهَفْهَفـــاً رشـــآءَ كحـــيلا مائـــلَ العِطْـــفِ أهيفـــا

سبى اللؤلـــؤَ المكْنـــونَ مـــن نظْـــمِ ثَغْـــرِه وأخْجـــلَ أقـــداحَ السُّـــلافةِ مرْشـــفا[3]

وبرز عند الناصر التغزل بالمذكر، جريا على عادة الشعراء في عصـــره – " إذ كـــانوا يكثرون من أسماء الغلمان والفتيان في غزلهم تقليدا للمحدثين والمولدين من الشعراء الذين نهجوا نهج أبي نواس"[4]– وإظهار قدراته الفنية في هذا الجانب، فقد انتشر هذا الغرض انتشاراً واســـعا في ذلك العصر نظرا لتعدد الأعراق والجنسيات في حاضرة الدولة الأيوبية، وما نجم عنها مـــن عادات وتقاليد أبعدت الناس عن الدين، وكشفت عن بعض أمراض المجتمع الســـائدة[5]، حتـــى خاض الشعراء في التغزل بالغلمان ووصف محاسنهم ومفاتنهم دون تحرج، وكان للملك الناصر غلام اسمه يعقوب، كثير الصد والإعراض عنه، فاستحضر قصة النبي يوسف –عليه الســـلام– للتعبير عن حزنه وفراق يعقوب –عليه السلام–، يقول:

أيعقـــوبُ إنـــي يوســـفٌ قـــد تركْتَنـــي من الحُزْنِ يعقوباً وأصـــبحتَ يوســـفا[6]

---

(1) السِّجْفُ هو أحد السِّترَيْن المقرونين، بينهما فُرْجة. **المعجم الوسيط:** مادة سجف. الغيهب من الليل: شـــديد الظلمـــة، ومن الخيل ونحوه: الشديد السواد. **المعجم الوسيط:** مادة غهب.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 286. الكتبي، **عيون التواريخ**، ج20، ص259.

(3) ابن واصل، **مفرج الكروب**، 287.

(4) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص579.

(5) انظر عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: **فن الرثاء في الشعر العربي فـــي العصـــر المملـــوكي**، ط1، عمـــان، دار الرازي، 1424هـ– 2003م، ص270–272.

(6) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287. الهيب، **الحركة الشعرية**، ص 116، نقلا عن مخطوط ابن خطيب الناصـــرية: الناصرية: **الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب**، حلب، المكتبة الوقفية، ج2، ص446.

بل يستعطف حاله عذاله ولائميه، فترق له قلوبهم، ويستهوي نفوسهم البكاء والحزن، فقال يخاطبه:

فَمَــا لَــكَ لا تَحْنُــو علــيَّ وعــذّلي   بَكَوْا لي حتّى عادَ يبْكــي لــي الصَّــفا[1]

وأنشد الناصر في غلام له، فقده بعد دهم التتار حلب سنة 658هـ، فحزن عليه حزناً شديداً، إذ كان مصدر سعادته وأنسه، مستذكراً أوصافه وجماله، طالباً من اللائمين تركه وشأنه في داء حبه وغرامه، كما يبدو في قوله:

والله مــا أبكــي لمُلْــكٍ مضــى   ولا لحــالٍ ظــاعنٍ أو مقــيمْ

وإنَّمــا أبكــي وقــد حُــقَّ لــي   لفَقْــدِ مــن كُنــتُ بــه فــي نعــيمْ

يطلــعُ بــدراً ينثنــي بانــةً   يمــرُّ فيمــا رُمْتُــهُ كالنَّســيمْ

فــي خــاطري أُبْصِــرُهُ خــاطراً   فــأَلْتَوي مثْــلَ التِــواءِ الســقيمْ

يــا عــاذِلي دِعْنــي ومــا حــلَّ بــي   فمــا سِــوى الله بحــالي علــيمْ

إنْ مِــتُّ مــن حُــزْنٍ لــهُ أسْــترِحْ   وإنْ أعِــشْ عِشْــتُ بهَــمٍّ عظــيمْ[2]

فلم يعبأ الملك الناصر بزوال ملكه، ورحيله عن موطنه بقدر ما شغله موت غلامه، فإن صحت نسبة هذه الأبيات إليه "فإن ذلك مؤشر على مدى السقوط والفردية التي وصل إليها، إذ لم يعد يعنيه أمر المسلمين، ولا ما نزل بهم من قتل وأسر وتشريد على يد أعدائهم المغول وأحلافهم من الصليبيين وغيرهم، وإنما همه الوحيد من بين الآلاف الذين قتلوا مملوكه وأيامه معه"[3].

وقد شكك رائد عبد الرحيم في نسبة هذه المقطوعة إلى الناصر، لمجانبتها العقل والفكر، لما عهد عنه من الصفات الطيبة ودماثة الأخلاق، ومحبته أهل الخير والصلاح، "وخاصة في ذلك الوقت العصيب، فلا يعقل أيضاً أن يرى ملكه يسلب أمام عينيه، ولا يشغله سوى مملوكه،

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287.

(2) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص369.

(3) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص277.

ويؤكد ذلك المؤرخون الذين ذكروا أن الهم الذي كان يؤرقه وقتذاك هو موطنه، ولذا رثاه بمراث كثيرة"[1].

ثانيا: الخمريات

ورد ذكر الخمر في الشعر العربي على اختلاف عصوره، ابتداء من العصر الجـاهلي إلى العصور المتأخرة، وقد خَفَتَ ذكرها في صدر الإسلام نظراً لقرب النـاس مـن الإسـلام، وامتثالهم أوامره في تحريمها، ولكن سرعان ما عاد تعاطيها وترويجها إلى بغداد حاضرة الدولة الإسلامية، بسبب ما أصابها من حياة الرفاهية واللهو والمجون، حتى غدا وصفها فنا من فنـون الشعر العربي لا يمكن للدارس تجاوزه أو تجاهله، لاسيما أن الشعراء الـذين تنـاولوا ذكرهـا والحديث عنها ذائعو الصيت والشهرة، ولهم الباع الطويل في ميادين الشـعر، أمثـال الأخطـل والوليد بن يزيد في العصر الأموي، وأبي نواس في العصر العباسي، والنور الإسـعردي فـي العصر الأيوبي.

وكانت تقام في بلاط الناصر مجالس أنس يحضرها الشعراء والندماء، فيتنافسـون فـي وصف الخمر ويشاركهم الملك في ذلك، فوصفوا ألوانها، وكيفية تعاطيها، وتغزلوا بمن يقـدمها لهم. وكان للخمر نصيب في شعر الملك الناصر، إذ قال الشعر فيها، وتغزل بساقيها، في جوّ من السرور والبهجة والاطمئنان، صحيح أن ما ورد من شعره في الخمر قليل جدا، لم يتجاوز أبياتا قليلة على شكل مقطوعتين شعريتين، ولكنها كافية لتكشف عن مدى الحال التي وصل إليها فـي اقتراف المعصية، على الرغم من أخلاقه الحسنة التي نعته بها أكثر المـؤرخين، مـن العـدل والكرم وحسن الأخلاق والصفح وعدم المؤاخذة، إلا أن بعضهم يزيد على هذه الصفات ويـذكر بعض مثالبه، يقول اليافعي:" كان حكيما جوادا موطأ الأكناف حسن الأخلاق، فيه بعض عدل مع ملابسة الفواحش على ما قيل"[2]، ويقول الصالحي: " فيه عدل في الجملة، وقلة جور، وصـفح، وكان الناس معه في بلهنية من العيش، لكن مع إدارة الخمر والفواحش"[3].

---

(1) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص277.

(2) اليافعي: **مرآة الجنان**،ج4، ص152.

(3) الصالحي: **القلائد الجوهرية**، ج1، ص147. انظر ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

ومما يدلل على شرب الخمر في مجالس غناء الملك الناصر، التي كان يحييها الشــعراء في كل يوم، وما يصحب ذلك من شرب الخمر، وانحلال وانغماس في الشهوات، ما قاله النــور الإسعردي بعدما سكر في المجلس:

أيـــا مَلِكًـــا حَـــوَى كـــلَّ المَعَـــاني أتَـــأْذنُ فـــي انبِعـــاثي وانْحِلالـــي

فقال له الناصر:

أيـــا اشْـــربْ يـــا أُخـــيَّ وكـــنْ ظَريفًـــا ودعْ قـــولَ الحســـودِ ولا تُبـــالي[1]

ومن أشعاره مقطوعته التي دعا بها أصحابه إلى مشاركته فــي شــرب الخمــر يــوم الأربعاء، حيث الأعباء قد زالت، والجمع قد اكتمل يحفّه السرور والبهجة، وسط مسامرة الندماء وملاطفتهم، كما يبدو في قوله:

اليـــــــومُ يـــــــومُ الأربعـــــــا فيـــــــه يطيـــــــبُ المَرْبَعـــــــا

يـــــا صـــــاحِبي أمَـــــا تَـــــرى شَـــــمْلَ المُنـــــى قـــــدْ جُمِّعـــــا

وقـــــــد حَـــــــوى مجْلِسُـــــــنا جُـــــــلَّ السُّـــــــرورِ أجمعـــــــا

ثم يسترسل في وصف ساقي الخمر، فيتغزل به غزلاً تقليدياً، فيقول:

فَقُـــــــمْ بِنـــــــا نَشْـــــــربُها ثلاثـــــــــــةً وأرْبَعـــــــــــا

مـــــن كَـــــفِّ ســـــاقٍ أهيـــــفٍ يَشْـــــبَهُ بـــــدرًا طَلَعـــــا

يسْـــــطو ويرْنـــــو تـــــارةً كاللّيـــــثِ والظَّبْـــــيِ معـــــا[2]

ويتأسف الناصر على فراق الساقي أو الساقية التي كانت تــدير علــيهم الكــؤوس فــي مجالس أنسه، التي كانت توصل الليل بالنهار حتى يغلب عليهم النعاس، يقول:

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص64، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة 56.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص288. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140. ابــن تغــري بــردي: **النجــوم الزاهرة**، ج7، ص205.

البـــــدرُ يجـــــنحُ للغــــروبِ ومُهْجتِـــــي ... لفِـــــراقِ مُشْـــــبِهِهِ أســـــىً تَتَقَطَّـــــعُ

والشُّـــرْبُ قـــد خـــاطَ النعـــاسُ جُفُـــونَهم ... والصّـــــبحُ مـــــن جِلبابِـــــه يَتَطلَّـــــعُ[1]

ثالثا: الحنين و الغربة

لم يستقر الملك الناصر في حلب التي ورثها عن أبيه، بل شاءت الأقدار أن يستولي على دمشق ويتسع ملكه ليشمل الشام كله، بل إن أطماعه في بسط سـيطرته علـى مصـر، بهـدف إخضاعها للحكم الأيوبي، جعلته كثير السفر والتنقل بعساكره وجيوشه بعيداً عن حلب مقر ملكه، ما جعله يحن ويتشوق إليها في شعره، فهي موطن صباه وأهله وأحبابه، فالإنسـان منـذ القـدم "أحب أرضه وحنّ إليها مشتاقا كلما اضطر للابتعاد عنها، وسال هذا الشعور الأصـيل شـعرا رائقا صادقا غزيرا على لسانه "[2].

والدارس لشعر الحنين عند الملك الناصر، يجده منظوما في حلـب وأهلهـا وديارهـا وجبالها ومعالمها وحضارتها، فلم يرد له بيت واحد يشتاق به إلى غيرها من المـدن الأخـرى، الواقعة تحت حكمه، لأنّ حلب عنده تمثل " مرتعه وملعبه وملهاه، ومسرح ذكرياته، يستشعر في كل شبر منها ظلال الآباء والأجداد وأفياء الماضي "[3].

نظم الملك الناصر شعره في حنينه وشوقه إلى حلب لابتعاده عنها في حالتين متناقضتين من حياته، أما الأولى فكانت طواعية منه، في رحلاته وأسفاره ومقامه في دمشق، لـذا يُبْـرق

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص287. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص468. الذهبي: **تـاريخ الإسـلام**(651-660هـ)، ص403. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص669. **عيون التواريخ**، ج20، ص261. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140. الصفدي: **تحفة ذوي الألباب**، ج2، ص158. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص205..

(2) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص129.

(3) المرجع السابق: ص129.

التحيات من دمشق إلى حلب مع الركبان الذين تحملهم النوق السريعة، يشتاق فيها إليهــا وإلــى أهلها في بيتين من الشعر كتبهما بخط يده إلى وزيره مؤيد الدين القفطي[1]، فيقول:

أيـــا راكِبـــاً يَطْـــوي الفَـــلاةَ بِشَـــمْلةٍ عُذافِرَةٍ[2] وجْناء[3] مـــن نسْـــلِ شَـــدْقَم[4]

إذا حلبـــاً وافيْتَهـــا حـــيٍّ أهْلَهـــا وقـــلْ لهـــمْ مشـــتاقُكم لـــم يُهـــوِّم[5]

والملك الناصر محب لحلب متيم بها وبأهلها، يبكي وينوح لبعده عنها، كما يبكي المحب لفراق إلفه، بل يستحلف الركبان أن يبلغوا سلامه وتحياته إليها، ويتجلى ذلك في قوله:

لـــكَ اللهُ إن شـــارفتَ أعْـــلامَ جوْشَـــنٍ[6] ولاحَـــتْ لـــكَ الشـــهْبا وتلـــكَ المَعـــالِمُ

فبلِّـــغْ ســـــلامًا مـــــنْ مُحـــــبٍّ متـــيَّمٍ ينوحُ اشـــتِياقًا حـــينَ تَشْـــدو الحَمـــائِمُ[7]

ويستذكر أيام الصبابة واللهو في حلب، فيتمنى أن تنعم بوافر الخير والنعم، طالباً السقيا لربوعها ولأهلها، وذلك في حضرة كمال الدين بن العجمي، يقول:

يـــا بـــرقُ أنْـــشِ مـــن الغَمـــامِ ســـحابةً وَطْفـــاءَ هاميـــةً علـــى بَطْيـــاسِ[8]

وأدِمْ علـــى تلـــكَ الرُّبـــوعِ وأهلِهـــا غيثًـــا يروّيهـــا مـــعَ الأنْفـــاسِ

---

(1) إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد بن إسحاق، أبو نصر بن أبـي الفضـائل الشيباني القفطي(594–658هـ)، وزر بحلب بعد أخيه القاضي الأكرم. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمـان**، ج1، ص133. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص7. الصفدي: **الوافي بالوفيات**: ج6، ص172.

(2) عذافرة: الناقة الصلبة القوية. **لسان العرب**: مادة عذفر.

(3) وجناء: الشديدة أو العظيمة الوجنتين. **المعجم الوسيط**: مادة وجن.

(4) الشدقم: اسم فحل من فحول إبل العرب معروف، وشدقم فحل كان للنعمان بن المنذر ينسب إليه الشَّدْقميَّاتُ من الإبل. الإبل. **لسان العرب**: مادة شدقم.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص285–286. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص144.

(6) جوشن: جبل مطل على حلب في غربيِّها. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج2، ص216.

(7) الطباخ: **إعلام النبلاء**، ج4، ص460.

(8) بطياس قرية من باب حلب بين النَّيْرَب وبابِليَّ، كان بها قصر لعلي بن عبد الملك بن صالح أمير حلب، وقد خربـت القرية والقصر. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج1، ص533.

وعلـــــى ليـــــالٍ بالصَّــــفاءِ قطعْتُهـــــا   مـــعَ كـــلِّ غانيـــةٍ وظبـــيٍ كِنـــاسِ

فبادر ابن العجمي وأنشد على نفس الوزن والقافية، ليعلل اشتياق الناصر وحنينه لحلــب وأهلها، فقال:

فلتِلـــــكَ أوْطـــــاني ومعهـــــدُ أسْـــــرَتي   ومقـــــرُّ أحْبـــــابي ومجمـــــعُ ناســـــي

لـــــيسَ الفـــــؤادُ وإنْ تنـــــاءتَ سَـــــالِيا   عنهـــــا ولا لعهودِهـــــا بالنّاســـــي[1]

وأما الحالة الثانية في اشتياقه لحلب، فتمثلت في محنته التي أصابته آخر عمــره، فــي ابتعاده عن دياره قسرا حين وقع في أسر هولاكو، فقد كان لهذه الحادثة بالغ الأثــر فــي نفســه وبالتالي انعكس على هذا الغرض الشعري الذي جاء ضمن أشعاره في رثاء حلب[2]، فكان الهــم يعتلج قلبه لأمرين، أحلاهما مر، وهما الأسر والغربة، وهو في هذه الحالة يدعو بالسقيا لحلــب، يقول:

ســـــقى حلــــبَ الشــــهباءَ كــــلَّ مزنَّــــةٍ   ســـحائبُ غيْـــثٍ نوءُهـــا لـــيس يقلـــعُ

فتلــــكَ ديــــاري لا العقيــــقُ[3]ولا الحمــــى   وتلــــكَ رُبُــــوعي لا زرودُ[4]ولعلــــعُ[5] [6]

ثم يعيد استعطافه السحاب والدعاء بالخير لحلب وأهلها، وقد حمَّــل الســحاب تحياتــه وأشواقه إلى حلب، إذ لا حامل لها من بني البشر في غربة السجن، يقول:

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص669. الصفدي: **الــوافي بالوفيــات**، ج29، ص141. **تحفــة ذوي الألبــاب**، ج2، ص158.

(2) انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص221–222. حيث تعرض بالتفصيل لأشعار الناصر في رثائه وحنينه لحلب.

(3) هما عقيقان: عقيق بني عقيل، وعقيق المدينة، فيها نخل وقبائل من العرب. الحميري: **الروض المعطار**، ص416. ص416.

(4) الزرود: من قولهم : جمل زرود أي بلوع، والزرد: البلع، ولعلها سميت بــذلك لابتلاعهــا الميــاه التــي تمطرهــا السحائب، لأنها رمال بين الثعلبية والخُزيْمية بطريق الحاج من الكوفة. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج3، ص156.

(5) لعلع: موضع أو جبل بظهر الكوفة، قريب من العذيب، وقيل: هو ببطن فلج، وقيل: من الجزيرة، وقيل: مــن ديــار بني ضبَّة. الحميري: **الروض المعطار**، ص511.

(6) ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة**، ج1، ق1، ص400. اليونيني: **ذيل مرآة الزمــان**، ج1، ص466. الــدواداري: **كنــز الدرر**، ج8، ص57. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص669. **عيون التواريخ**، ج20، ص260. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص142. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص205. الحنبلي: **شفاء القلوب**، 372.

ناشـــدتُكِ اللهَ يـــا هطّالـــةَ السُّـــحُبِ | إلاّ حملـــتِ تحيـــاتي إلـــى حلـــبِ
لا عـــذرَ للشَّـــوْقِ أن يمشـــي علـــى قـــدرٍ | ماذا عسى يبلُغُ المشـــتاقُ فـــي الكتـــبِ[1]

ويسترسل في بث أشواقه لحلب حزينا متمنيا لو يظفر برؤيتها، أو تطأ قـدماه ثراهـا، ولكن أنّى له ذلك ما دام القضاء لم يحكم باللقاء، ولسان الحال يمنعه من تحقيق مأربه، يقول:

أيـــا ســـاكنَ الشـــهباءِ لا زالَ حُـــبُّكُمْ | يُخـــالطُ منّـــي أعْظُمـــي والترايبـــا
وحزنـــي علـــيكمْ لا يـــزالُ مجَـــدَّداً | وشـــوقي إلـــيكمْ لا يـــزالُ مُغالِبـــا
أرومُ لُقـــاكُمْ والقضـــاءُ يُعيقُنـــي | فلـــو جـــادَ ســـيَّرْتُ الســـحابَ ركايبـــا
وعفَّرتُ خـــدَّي فـــي الثَّـــرى فَرَحـــاً بكـــم | وقلـــتُ لقلبـــي قـــدْ بَلَغْـــتُ المآرِبـــا[2]

رابعا: الإخوانيات

للملك الناصر مقطعتان في الشعر الإخواني، هذا الشعر الذي يستلهمه الشاعر من حبـه وصداقته مع الآخرين، فقد كان على علاقة وثيقة بأبناء عصره، وهذا أمر طبيعي لملـك كـان يكرم رعيته، ويتودد إليهم، ويقربهم إليه، فضلا عن نوادره وفكاهة حديثه، ولـين جانبـه فـي مجالسه لأكابر دولته وأمرائه وشعرائه، ما جعل الناس تتقرب إليه وتحبّه حبّا ماديـا ومعنويـا إنسانيا، أما المادي، فكان من ورائه التكسب والمنفعة في خدمته ومدحه، بينما الحـب الإنسـاني نابع من الأعماق مصورٌ الشعور المتبادل بين الإخوة والأصدقاء.

واقتصر الشعر الإخواني عند الناصر على موضوعين اثنين. أولهما يتعلق بالعتاب، فقد عاتب الصاحبَ شرف الدين الأنصاري على بعده عنه، ودعاه إلى مجلسه، إذ كانـت تربطهمـا علاقة حميمة، وكان الأنصاري يزوره في دمشق، "والملك الناصر يكرمه ويعظمه جدا، وكـان يقيم في خدمته المدة الطويلة، يحاضره ويقع بينهما في حال الغيبة مكاتبات كثيرة "[3]. وعنـدما

(1) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص58. الحنبلي: **شفاء القلوب**، 372.
(2) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص58.
(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص143.

قصد مصر بهدف تملكها سنة 648هـ، لازمه الشرف الأنصاري وقام على خدمته، وله فيه مدائح رائعة غصَّ بها ديوانه[1].

والناصر في عتابه الشرف الأنصاري يظهر ما يقاسيه من الحب والشوق له، والسهر في وصفه والتفكير به، ويشيد بنسبه ورفعة مكانته التي لا تشوبها شائبة، وما عليه إلا الصبر حتى يحظى بشرف اللقاء والأنس معه، ويبدو ذلك في قوله:

إن طالَ ليلُكَ يا عبدَ العزيزِ لقدْ … أسهرْتَ في وصفِكَ الشُّبّانَ والشِّيبا

وإن رُميتَ لأَجْلي إنَّ عِرْضَكَ لمْ … يُعْرَضْ لهُ دَنَسٌ يومًا ولا شِيبا

وصبرُ يوسفَ أدْناهُ إلى شَرَفٍ … فاصبرْ ألستَ منَ الأنصارِ منْسوبا

أكرمْ بهِ حَسَباً عزٌّ النبيِّ بهِ … وصارَ في النَّيِّراتِ الزّهرِ محسوبا[2]

وقد وصف ابن واصل هذه المقطوعة بأنها " في غاية الجودة"[3].

وحدث أن كان شرف الدين الأنصاري في ضيافته وخدمته في حلب، ولما أراد العودة إلى حماة، شيّعه الملك الناصر ليودعه، واستحضر بيتا للمتنبي، فقال:

يا منْ يعزُّ علينا أنْ نُفارِقَه … وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ

فأنشد الأنصاري بيتا آخر من القصيدة نفسها، فقال:

إذا تَرَحَّلْتَ عن قومٍ وقدْ قَدِروا … أن لا تُفارِقَهم فالراحلونَ هُمُ[4]

فأقسم عليه الناصر بالعودة، فرجع ومكث عنده عشرين يوما أخرى[5].

---

(1) انظر الأنصاري، شرف الدين: **الديوان**، تحقيق عمر موسى باشا، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1967هـ، ص49، 77، 101، وغيرها.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 285. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص143.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 285.

(4) اليازجي، ناصيف: **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، ب.م، ب.ن، 1955م، ص344-345.

(5) انظر الأنصاري: **الديوان**، ص 22. ابن المغيزل: نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد: **ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1425هـ/2004م، ص51.

أما الموضوع الثاني الذي تعرض له الملك الناصر في شعره الإخواني، فهو المواساة والتعزية، فقد كان على علاقة وطيدة مع مجد الدين عبد الرحمن بن كمال الدين بن العديم، الذي كان من العلماء الفضلاء، وكان يدنيه من مجلسه ويحاضره، ولعبد الرحمن بن العديم أشعار جميلة في مدحه(1)، فحدث أن توفي أحد مماليك عبد الرحمن بن العديم، يدعى سيف الدين بكتاش(2)، فأرسل إليه رسالة يشاركه المصاب ويشاطره الحزن، قال فيها:

نُبِّئْتُ أنَّ السَّيْفَ فُلَّ غرارُهُ　　　وقد كنتُ أرْجوهُ لنائبةِ الدَّهْرِ

فعانَدَني فيهِ الزمانُ ورِيبُهُ　　　وجاءَتْ صروفُ الدَّهْرِ من حيثُ لا أدري(3)

وهكذا كان الملك الناصر يجمع في أكثر أوقاته بين ملك الرعية وصداقتهم، التي تغذيها علائق المودّة والأخوة والمحبة.

خامسا: الرثاء

إن مشاركة الملك الناصر في شعر الرثاء، لم تكن داخل مجالسه الأدبية، أو عبر حروبه مع ملوك الجوار، بل تزامن ذلك مع حادثة ألمَّت به، وتركت أثرها في نفسه، إذ كان شعره نابعاً من قلب المأساة التي لحقت بمملكته بعد سقوط الشام بيد التتار، وحمله أسيرا إلى هولاكو، فكان لذلك كبير الأثر في استثارة عواطفه، واستنهاض قريحته الشعرية الموجوعة، وتمثّل ذلك في رثائه نفسه، ورثائه حلب عاصمة ملكه، وكانت قد استعصت على المغول، إلى أن دخلوها فأعملوا فيها القتل والخراب، ولمّا أخذه المغول أسيراً، ومروا به قريبا من حلب، "عزّ عليه أن يرى دار ملكه يتحكم فيها الغرباء، وآلمه حالة الدمار التي وصلت إليها بعدما كانت عامرة بالحسن والجمال، لذا راح يتوجع على ما أصابه "(4)، منشدا قصيدته الطويلة المشهورة، التي تفيض ألما وحسرة، ولكن كتب التاريخ لم توردها كاملة، وذلك للاختصار في كتبهم، يقول

(1) انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص315. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج21، ص178.

(2) لم أهتد إلى ترجمة له.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 288. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص141.

(4) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص 221.

الدواداري: " وهي قصيدة طويلة نيف وستين بيتا أشهر من " قفا نبك"؛ فلذلك أضربت عن إثبات جملتها كون تاريخنا تاريخ اختصار، لا تاريخ تحشية وإكثار"[(1)].

ويشيد ابن سعيد المغربي[(2)] بمراثيه لحلب، في قوله:" وصنع في نعيها أشعاراً يغني بها بها المسمَّعون" [(3)].

وبينما هو يبتعد –مكرهاً– عن حلب التي دمرت، جرت دموعه، وأخذ يدعو لأرض حلب بالسقيا، فقال:

سقى اللهُ أكنافَ الشّآمِ ومعْهدًا   بهِ العهدُ باقٍ لا يزالُ مُواظِبا
ولا بَرِحَتْ أرضُ العَواصِمِ عِصْمَةً   من السوءِ تُسقى دايمَ الأُفْقِ دايبا[(4)]

ويذكر في أبيات أخرى خلوَّ الديار من ساكنيها بعد قتلهم وتهجيرهم، ويتمنّى لو يطيل النظر إلى معالم حلب، وذلك عندما "سار نحو هولاكو، فلما مرّ بحلب ونظر إلى معاهده على غير ما يعهد، قال:

مررتُ بجَرْعاءِ الحمى فتَلَفَّتَتْ   لِحاظي إلى الدّارِ التي رَحَلوا عَنْها
ولو كان عندي ألفُ عيْنٍ وقُمْتُ   في معالمِها عُمري لما شَبِعَتْ منها[(5)]

وفي خضم هذه المحنة وتفكير الملك الناصر في مصيره المحتوم، وشعوره بدنو منيته على يد المغول، استذكر الأهل والأحباب الذين انقطعت أخباره عنهم، فلم يعلموا عن مصيره شيئا، فقال:

---

(1) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص59.

(2) علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد الغُماري المغربي العَنْسي (610–685هـ)، المصنف الأديب النحوي المؤرخ، لازم الملك الناصر مدة يؤلف له. انظر ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص7. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص153. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج22، ص253. ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد: **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ص208. المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص262.

(3) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص370.

(4) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص58.

(5) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص370.

أَحْبابَنَـــــا لـــــو دَرَى قلبـــــي بِـــــأَنَّكُمْ تدرونَ مــا أنــا فيــهِ لــذَّ لــي تَعَبــي

لكـــنَّ أصــــعبَ مـــا ألقـــاهُ مـــنْ أَلَـــمٍ أنّي أمــوتُ ولا تَــدْري الأحِبَّــةُ بِــي[1]

ويتأسّى الناصر بمن اكتوى قبله بنار التتار من المسلمين في بغداد، وهــو ينظــر إلــى الأعداء يصولون ويجولون في أرضه، مستذكراً لذائذ عيشه فيها، ذارفاً الدموع السجام، وتجري الحكمة على لسانه، إذ عبَّر عن قصر أمد الظلم مهما طال، فقال:

يعـــزُّ علينـــا أنْ نـــرى ربْعَكـــم يَبْلَـــى وكانـــتْ بـــهِ آيـــاتُ حُسْـــنِكُمْ تُتْلَـــى

أُقلِّـــبُ طرْفـــي نَحـــوَكُمْ فـــي ديـــارِكُمْ فـــأُكْثِرُ فيـــهِ النَّـــوحَ كالناحـــةِ الثَّكلـــى

لقـــدْ مـــرَّ لـــي فيهـــا أفـــانينُ لـــذةٍ تُرى هَــلْ لأوْقــاتي بهــا عــودةٌ أمْ لا

عبرتُ على الشهباءِ وفــي القلــبِ حســرةٌ ومنْ حولَهــا تــركٌ تُشــايعُها مُغْــلا[2]

ولـــي أســـوةٌ مـــعَ آلِ بيـــتِ محمـــدٍ فبعْضُـــهم أســـرى وبَعْضُـــهُم قتلـــى

وقد حكمــوا فــي مُهْجَتــي حُكْــمَ ظــالمٍ ومـــا ظـــالمٌ إلا ســـيبلى كمـــا أبلـــى[3]

وكان الأمل يراود الملك الناصر بأن يعفو هولاكو عنه، ويرده إلى ملكه، وكان له ذلــك فقد أذن له في الرجوع إلى مملكته، ولكنّه أمر بردّه لمّا سمع بهزيمة جيشه على عــين جــالوت وحمص، فتأكد الناصر بهلاكه على يد هولاكو لا محالة، وأنشد يندب نفسه:

أعلامُهـــمْ علـــى الحِمـــى لـــي بانَـــتْ لمّـــا وصـــلَ الرَّكـــبُ إليهـــا بانَـــتْ

---

(1) الدواداري: **كنز الدرر**، ج2، ص58. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص 372.

(2) خطأ نحوي، والصواب: مغل، وهذا إقواء، وهو "اختلاف حركة الروي الذي ينجم عنه اختلاف في إعراب القوافي". أبو عمشة، عادل: **العروض والقافية**، ط1، نابلس، **مكتبة خالد بن الوليد**، 1406هـ/1986م، ص221.

(3) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص 50. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص468. الدواداري: **كنز الــدرر**، ج8، ص58-59. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص372.

ما أعجلَ مـا فـي الحـال عنـي خَفِيَـتْ		يا سـعدُ كـأنْ فـي منـامي كانَـتْ[1]

ولما استحثوا الخطى في سيرهم بدا اليأس والتسليم بالقدر واضحا في نفسية الملك الناصر، وأخذ ينشد:

يـا سـائِقَها وجْـدًا علـى الآمـاق		لا تعْجـلْ فـي تَفـرُّقِ العُشّـاق

واحـبسْ نفْسًـا تحْـظَ بـأجرٍ وَثَنـا		مِنّـا ومـنَ المَهَـيْمِنِ الخـلاّق[2]

فهذه الأشعار كشفت عن مدى المعاناة التي لحقت بالملك الناصر في أسره، وما كان يقاسيه من ألم الغربة وتذكر أمجاده الماضية، ولأنه عايش مصيره المحتوم، وشعر بدنو موته في غربته، جمع في أشعاره الرثائية بين محورين اثنين وهما رثاء النفس، ورثاء المدن[3]، وكشفت من جهة أخرى عن هول الهجمة المغولية، وبشاعة المجازر التي اقترفتها، وحجم الدمار الذي أحدثته، وبينت الوضع المزري الذي كانت عليه الأمة الإسلامية، فإذا كان الملك الناصر يبكي كالنائحة الثكلى، فكيف حال شعبه ورعيته يومذاك؟

ثالثا: المجالس الشعرية والنقدية في بلاط الملك الناصر

1- اهتمامه بالحركة الشعرية ورعايته لها

إن اهتمام الملك الناصر بالشعر وأهله، إنما هو نتاج طبيعي لما كان عليه الحال أيام الملك العزيز، الذي كان يكرم الشعراء، ويهتم بهم، لذا فقد نشأ الناصر على هذا الارتباط، وما شعراء الناصر إلا امتداد لشعراء بلاط العزيز.

وحظي الملك الناصر عند شعراء زمانه من المدح والإطراء الكثير، ولا شك أن فصاحة لسانه، وثقافته الشعرية والأدبية كان لها دور بارز في استقطابهم إلى بلاطه؛ إذ كانوا أكثر

---

(1) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص53. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص285.
(2) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص53. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص285.
(3) انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص222.

جلسائه وندمائه ومساعديه. ولا أدل على ذلك من كثرة ملازمة نور الدين الإسعردي له في حله وترحاله. يقول الكتبي:" كان في خدمته جماعة كثيرة من الفضلاء والعلماء والأدباء والشعراء، وغيرهم، ولهم عليه الرواتب الجليلة"[1]. بل لم يكن اسم أحدهم ليظهر في هذا العصر، إلا ومقروناً باسم الناصر لتشجيعه الحركة الشعرية ورعايته لها واهتمامه بها، ما جعل المكتبة الأدبية تزخر بنتاجهم الأدبي والإبداعي. ومن أشهر شعراء البلاط الأمير سيف الدين المشد، والبهاء زهير، وشرف الدين الأنصاري، وأمين الدين السليماني، وكمال الدين بن العجمي، وغيرهم ممن تبوأ المكانة العالية الرفيعة عنده. وفي ذلك يقول ابن العماد:"كان للشعراء دولة في أيامه، لأنه كان يقول الشعر ويجيز عليه، ومجلسه مجلس ندماء وأدباء"[2].

وكان الملك الناصر يشجع أدباءه وشعراءه على تأليف الكتب في أخبار الشعراء، وفي أغراضهم الشعرية، وحثهم على ذلك بكثرة هباته ومعونته لهم، وعندما وفد عليه ابن سعيد المغربي الشاعر الأديب بصحبة كمال الدين بن العديم، أكرمه وعظَّمه لعلمه بمقصود رحلته التأليفية، وقال له: " نعينك بما عندنا من الخزائن، ونوصلك إلى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا "[3]. وكان من جملة ما ألَّفه للملك الناصر كتابه " ملوك الشعراء"، رتب مؤلفه فيه الشعراء حسب جودة أشعارهم[4]. وألَّف صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري كتاب كتاب " الحماسة البصرية " سنة 647هـ بطلب من الملك الناصر، وقد فاقت حماسة أبي تمام في أغراضها الشعرية كما يقول حاجي خليفة[5]، وحتى يستمر الغناء في مجالس أنسه؛ بعث الملك الناصر إلى سيف الدين المشد يطلب إليه بعض أشعاره لتُغنّى بين يديه، " فسيّر إليه كراريس فسُمّيت ديوان المشد، فعمل هذه الأبيات:

الحمدُ للِه حمدَ الشاكرينَ له ... على الذي نِلْتُ من علمٍ ومن عملِ

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**،ج20، ص258.

(2) ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

(3) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص273. ابن الخطيب، لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1397هـ-1977م، ج4، ص157.

(4) انظر: المقري: **نفح الطيب**،ج2، ص295.

(5) انظر حاجي خليفة: **كشف الظنون**، ج1، ص693.

حسْبي عُلُوًّا وحسْبي فــي الــوَرى شَــرَفاً   وأشرفُ الخَلْــقِ بعــدَ الهاشِــمِيِّ علــي
قـــد كنــــتُ بــــالأمسِ للــــديوانِ منْتَسِــــباً   واليومَ أصبحتُ والديوانُ يُنســـبُ لِـــي"[1]

ولم يكن هذا الاهتمام بالحركة الشعرية من الملك الناصر ناجما عن فراغ، أو كان حدثا عارضا؛ بل صدر هذا الدعم منه لثقافته الأدبية والعلمية، التي انعكست على شــعراء بلاطــه، وأثَّرت في نتاجهم الفني، وحدَّدت اتجاهات أغراضهم الشعرية، وفي ذلــك يقــول نــور الــدين الإسعردي:

ومـــا النَّفْـــعُ بالـــدَّعوى وممـــدوحُنا فتـــىً   غـــدا فِكْـــرُهُ أدْرى بمـــا كـــانَ خافِيـــا
يعلِّمُنــــــا علْمــــــاً ويتْحِفنــــــا نــــــدى   فيُخْجِلُنـــــا قـــــولاً وفِعْـــــلاً مُواتِيـــــا
ومـــا زالَ همِّـــي فـــي الملـــوكِ مُـــرَدَّداً   إلى أنْ سما بِـــي نَحْـــوَ عَلْيـــاهُ رامِيـــا[2]

2- الدوافع والأسباب في وصول الشعراء إلى الملك الناصر

كثرت الحوافز والأسباب التي دفعت الشعراء إلى الالتحاق بالناصر، منها ما كان يتعلق به، إذ كان يستقطب أصحاب المال والجاه من الشعراء وغيرهم، ويستلطف ظرافــة الشــعراء، ومنها ما تعلَّق بالشعراء أنفسهم، كحبهم شخصية الناصر، وحوافزه، ورعايته لهم. وذلك علـــى النحو الآتي:

أ- المال والجاه:

استقطب الناصر كبار التجار والأثرياء من رعيته، ليكونوا مصدر دعم للدولة وعوناً لها في ظروفها الصعبة، ولا ضير إذا اجتمع الثراء مع الشاعرية في أحدهم، أمثال وجيه الدين بـــن سويد الذي كان من أعيان التجار وذوي المكانة عند الناصر، ومن أعز ملازميه، إذ كانت كلمته

(1) الرفوع، هاني محمد حمود: **ديوان ابن قزل المشد** دراسة وتحقيق (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعـــة مؤتـــة، الكرك، الأردن، 2000م، ص339.

(2) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص205، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة35.

نافذة عنده[1]. وسيف الدين السامري[2]، الذي كان معظَّما عند الخليفة المستعصم، ووزيره ابن العلقمي[3]، وحل دمشق- بعد سقوط بغداد بيد التتار- بثروته الكبيرة، فحظي عند الملك الناصر وصار من خواصّه، وارتفعت مكانته عنده حتى أغضب حاله أرباب المملكة، وحسدوه على محبة الناصر له، ومرد ذلك عائد إلى كثرة أمواله وجميل مدائحه[4]. ومن مدائحه أرجوزته المشهورة بالسامرية التي مطلعها:

" يا سائِقَ العِيسِ إلى الشّآمِ   وقاطِعَ الوِهادِ والآكامِ

مدَّرِعاً مطارِفَ الظلامِ   كبارقٍ يلمعُ في غَمامِ

وُقِيتَ حوادثَ الأيَّامِ

فلما سمعها الملك الناصر صادرهم جميعا، وحصل للناصر بسببها مال عظيم"[5]، إذ تعرض السامري فيها لمثالب المتنفذين في الدولة وأظهر عيوبهم وفسادهم الإداري، وكان قد حسده كبار الدولة وأمرائها على مكانته عند الناصر، فقال هذه القصيدة يمدحه، ويتعرض لهم ولسوء نواياهم. وقد ضاعت هذه القصيدة مع ما ضاع من الشعر في هذه الفترة، ولم تثبتها كتب التراجم والأدب على الرغم من شهرتها.

---

(1) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص284. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص427.

(2) أحمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامَرَّي (619-696هـ)، ولد بكرخ سامرّا، وتوفي بدمشق، كان حسن الأخلاق، جميل العشرة، ظريفا، حلو المجالسة، له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة، وله شعر كثير غالبه هجاء، أوقف داره بدمشق، فعرفت بدار الحديث السامرية، أوقف عليها باقي أملاكه. انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص173. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج8، ص66. **أعيان العصر**، ج1، ص349. ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج13، ص351. المقريزي: **المقفى الكبير**، ج1، ص612. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص369.

(3) محمد بن محمد بن علي الوزير مؤيد الدين بن العلقمي البغدادي الرافضي(591-657هـ)، كاتب التتار، جرأ هولاكو على أخذ بغداد، وقرر معه أمورا انعكست عليه، وندم حيث لا ينفعه الندم، ولم تطل مدته حتى مات غماً وغيظاً. انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص256. **عيون التواريخ**، ج20، ص193. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص184.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص173. **عيون التواريخ**، ج20، ص193. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج8، ص66. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص370. المقريزي: **المقفى الكبير**، ج1، ص612. ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج2، ص148. النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، ص55.

(5) العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص370-371.

ب- المنصب الإداري:

كان معظم شعراء الملك الناصر يعملون في خدمته في مختلف الوظائف، فهذا أمين الدين السليماني كان جنديا عنده، وتولى سيف الدين المشد شد الدواوين في الدولة، ومدحه بعدد من القصائد عرفت باس "الناصريات"(1) وكتب كمال الدين بن العجمي الإنشاء له، وتولى الزين خالد مشيخة دار الحديث الشريف بأماكن متفرقة(2)، وتولى عون الدين بن العجمي(3) الأوقاف بحلب، وكان ناظرا للجيوش؛ إذ اعتمد عليه الناصر، وأدناه منه، ونال الرتب العالية والمنزلة الرفيعة(4)، وبدر الدين بن الفويرة الذي درس بمدارس كثيرة "وطلب لنيابة القضاء فامتنع"(5)، وفضّل البقاء في التدريس، وغيرهم من الشعراء الذين كانت تربطهم بالناصر علاقة العمل في متابعة أمور الدولة وشؤونها.

د- الظرافة والمؤانسة:

كانت شخصية الملك الناصر تميل إلى الفكاهة والدعابة لمن حوله من الناس، جعلتهم يتقربون إليه، ويحبونه، لما كان له من طباع حسنة أساسها العفو والصفح والإحسان.

---

(1) انظر المشد، سيف الدين علي بن عمر بن قزل: **الديوان**، تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي، القدس، مركز التعاون والسلام الدولي، 2002م، ص10.

(2) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: **تذكرة الحفاظ**، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م، ج4، ص1447.

(3) سليمان بن عبد المجيد بن الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن طاهر بن محمد بن الحسن بن علي بن زيد العجمي الحلبي الشافعي (606-656هـ)، ولد بحلب وتوفي بدمشق وشيعه السلطان والأعيان، كان رئيسا عالما فاضلا جليل القدر كريم الأخلاق، حسن العشرة، لطيف الشمائل، حسن الصورة، حفظ القرآن، وسمع الحديث على جماعة من أعيان الحلبيين، جيد الكتابة والنظم، كان من أكابر الدولة الناصرية وأعيانها. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص85. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص249. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص240. الذهبي: **تاريخ الإسلام**(651-660هـ)، ص255. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص452. **عيون التواريخ**، ج20، ص176. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص399.

(4) انظر: ابن الشعار الموصل: **قلائد الجمان**، ج3، ص86. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص241. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(651-660)، ص256.

(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص203. ابن كثير: **البداية والنهاية**، **ج**13، ص273.

وكان ذلك أحد طرق وصول الشعراء إليه ممن اتصفوا بالفكاهة والهزل ورشاقة الروح، الأمر الذي جعل الناصر ينتقي منهم من يتسم بالظرافة وحسن الحديث، ومثال ذلك العز الضرير الإربلي الرافضي، الذي اتصف " بطيب العشرة، ولا تُملّ مُفاكَهته"[1]. فقد كان الناصر" يكرمـــه، وله عليه راتب جيد، وشفاعته عنده مقبولة لا ترد"[2]. ومنهم الزين خالد صاحب النـــوادر فـــي مجالس الناصر؛ إذ كان " فكه النفس كثير المزاح"[3]، ويعد من الظرفاء الشعراء الـــذين يحـــبهم ويحسن إليهم، ويجزل لهم العطاء[4]، وكان ذات يوم" بحضرته، فأنشد شاعر قصيدة يمدحه بها، فخلع الزين خالد سراويله وخلعه على الشاعر، فضحك الملك الناصر، وقال: ما حملك على هذا؟ قال: لم يكن معي ما أستغني عنه غيره، فعجب منه ووصله"[5]. ومنهم الشاعر سليمان بن بليمان بليمان الإربلي[6] صاحب النوادر الممزوجة بالمجون وروح الفكاهة؛ إذ وصفه ابن العماد بأنـــه "أحد الظرفاء في العالم"[7].

ومنهم نور الدين الإسعردي الذي كان متصفا بالخلاعة والمجون والظرافة والهـــزل[8]، "واتفق أنه حضر عند الملك الناصر، فاصطفاه لمنادمته لما رأى من ظرفه ولطف عشـــرته"[9]، وقد أحبه الملك الناصر وجعله من كبار شعرائه، وأقربهم إليه، وأخصّهم به[10]. ومنهم بدر الدين

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص167.

(2) الكتبي: **عيون التواريخ، ج**20، ص268–269. انظر ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص522.

(3) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج13، ص246. النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، ص79.

(4) انظر الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (660–671هـ)، ص145–146. الكتبي: **فوات الوفيـــات**، ج1، ص378. الصـــفدي: **الوافي بالوفيات**، ج13، ص284. الزركلي: **الأعلام**، ج2، ص379.

(5) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص379.

(6) سليمان بن بليمان بن أبي الجيش بن عبد الجبار بن بليمان الصائغ الهمذاني ثم الإربلـــي، (590–686هــــ)، ولـــد برعيان من نواحي حلب، وقدم دمشق واستوطنها إلى أن توفي فيها، له نوادر وزوائد ومزاح وهو أحد الظرفاء في العالم، كان شاعرا جيدا يحفظ جملة من الشعر وله بديهة حسنة وأجوبة مسكتة. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمـــان**، ج3، ص65. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص321. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(681–690هـ)، ص263. الكتبـــي: **فـــوات الوفيات**، ج1، ص443. **عيون التواريخ**، ج21، ص403. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص356. ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج6، ص24. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص690.

(7) ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص690.

(8) انظر الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (650–661)، ص289. الصفدي: **الوافي بالوفيـــات**، ج1، ص186. ابـــن العمـــاد: **شذرات الذهب**، ج7، ص491.

(9) الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (650–661)، ص289.

(10) انظر المصدر السابق: ص289.

الذهبي[1] الشاعر الظريف، كان أول أمره يعمل في دكان له، وفيها قفص فيه خـواتم وغيرهـا، فجاءه مملوك من مماليك الملك الناصر، وقال له:"عندك خاتم على قدر إصبعي؟ فقال: بـل عنـدي إصبع على قدر خاتمك. فبلغت الواقعة الناصر، فاستظرفه وكان سبب اتصاله بـه"[2]. وغـدا مـن أعظم شعرائه.

هـ- وفود الشعراء إليه:

إنَّ احتضان الملك الناصر الحركة الشعرية في عصـره، وجزيـل عطائـه الشـعراء، وفصاحة لسانه وبلاغته، جعلهم يفدون عليه، من أجل مدحه[3]. وكان منهم ابن سعيد المغربـي الشاعر الأديب، صاحب المصنفات الكثيرة، الذي وفد إلى حلب بصحبة كمال الدين بن العـديم، ومدح الناصر بقصيدة طويلة رائعة، وهنأه بدخول دمشق سنة 648 هـ، فأكرمه، وعظَّمه وأدناه منه. ومن الوافدين إليه أبو الوليد الجنان، الذي صحب كمال الدين بن العديم وابنه القاضي مجد الدين، وأحسنا إليه غاية الإحسان، ولما علم الملك الناصر فضله وعلمه، جعلـه مـن ندمائـه، ومرتبا في شعرائه[4]. ومنهم محي الدين بن زبلاق[5] كاتب إنشاء الملك الرحيم بدر الدين لؤلـؤ

---

(1) يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله بدر الدين الذهبي الدمشقي،(607-680هـ)، كان فاضلا نبيها من الأدباء الظراف، لـه نظم يفوق الأسماع ويعقد على فضله الإجماع، وكان من كبار شعراء الدولة الناصرية. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص134. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(671-680هـ) ص377. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص672. **عيون التواريخ**، ج21، ص287. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص122. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص351. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان: **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م، ج1، ص463. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص644.

(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص122.

(3) انظر اليافعي: **مرآة الجنان**، ج4، ص152. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج 7، ص 204. الصالحي: **القلائد القلائد الجوهرية**، ج1، ص147. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

(4) انظر ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص206. المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص120-123.

(5) يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم العباسي الموصلي،(603-660هـ)، قتله التتار حين استولوا على على الموصل، كان من أروع أهل زمانه ذكاء وفطنة، حسن العشرة كريم النفس، يضرب به المثل في العدالة، كان شاعرا جيدا فاضلا حسن المعاني سائر القول. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص311. اليونيني: **ذيل مـرآة الزمان**، ج2، ص181. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(651-660هـ)، ص432. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص684. **عيون التواريخ**، ج20، ص279. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص168. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق2، ص476.

لؤلؤ صاحب الموصل[1]. والبهاء زهير وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب وكاتب إنشائه، الذي وفد على الملك الناصر بعد وفاة صاحبه، ومدحه بقصائد فائقة، وخدمه مدة من الزمن[2]. ومنهم الصاحب الوزير جمال الدين بن مطروح[3] الذي مدح الملك الناصر، وهنأه بولايته حلب[4].

3 – علاقة الملك الناصر بالشعراء:

ومن الجدير وصفُ العلاقة الوثيقة بين الشعراء روّاد تلك المجالس، وقيم المجلس الملك الشاعر، الذي لم يأل جهدا في توفير المناخ الملائم لهم في بلاطه، فضلا عن رواتبه السنية لشعراء مملكته، أو الهبات والعطايا للشعراء الوافدين عليه من الممالك الأخرى، فقد اتسمت علاقة الملك الناصر بشعراء بلاطه بروح الحب والاحترام والتقدير، وقد ذكرت كتب التاريخ كثيرا من صور تعامله معهم وإكرامه لهم، إذ كان يقدمهم على غيرهم من الجلساء، وكانوا ينعمون عنده بالراحة والطمأنينة في مجالسه، فلا يضير أحدهم هيئة جلسته عنده لمكانته لديه، ومن ذلك أن "عون الدين ابن العجمي حضر يوما مجلس مخدومه الملك الناصر، وأدار ظهره إلى الطراحة، فقال له أستاذ الدار: السدة وراءك، فقال له الملك الناصر: سلمان من أهل البيت [5]، فقال:

رعى اللُه مَلْكا ما لَهُ منْ مُشابِهٍ   يَمُنُّ على العاني ولمْ يكُ منَّانا

---

(1) انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص312. الزركلي: **الأعلام**، ج8، ص259.

(2) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص238. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(650–661)، ص251. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص181. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص477.

(3) يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح بن سليمان الأعرابي الحميري المصري،(592–649هـ)، كان كامل الفضيلة والمروءة والظرف والخلق الرضي، كثير البر بالفقراء والمساكين، استمع بقوص وحدث، وله النظم البديع والنثر الفائق، وديوانه مشهور، وكان متقدما عند الملك الصالح رتبه ناظرا في الخزانة بمصر، وجعله وزيرا له بدمشق إلا أنه نقم عليه وعزله. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص13. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص169. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص186. الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (641–650هـ)، ص433. ابن سباط: **صدق الأخبار**، ج1، ص361.

(4) انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص28. ابن مطروح، جمال الدين يحيى المصري: **الديوان**، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1298هـ، ص 174–175.

(5) اقتبس الناصر نص الحديث الشريف " سلمان من أهل البيت". الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار الكتاب العربي، ج3، ص598، كتاب معرفة الصحابة.

لإحسانِهِ أمسيتُ حسَّانَ مدْحِهِ وكنتُ سليْمانًا فأصبحتُ سلمانا"[1]

وكانوا إذا غابوا عنه يشتاق إليهم، ويسأل عنهم لمكانتهم في نفسه، إذ كانت تربطه بهم علاقات طيبة أخوية، وتجري بينه وبينهم مراسلات كثيرة في غيبتهم عنه، ومن أهمهم شرف الدين الأنصاري[2]. والقاضي مجد الدين عبد الرحمن بن العديم الذي حنَّ إليه الملك الناصر وافتقده " وقد سيّر له الملك الناصر فَرْجِيَّة[3] وسأل عن حاله، فكتب إليه مع الرسول:

أقولُ لدمعي حينَ ساروا بِمُهْجَتي لقد خِفتُ أن تَبْيضَّ عيني الآقِفِ

فقالتْ جُفُوني لا تَجِفُّ فَيْضُ عَبْرَتي فبشراكَ قدْ أوفى قميصٌ ليوسفِ"[4]

ومزج الملك الناصر في علاقته بشعرائه بين الحب والاحترام والشوق إليهم والسؤال عنهم من جهة، وبين تشجيعهم معنويا، واستنهاض مواهبهم، وتنمية قدراتهم الإبداعية، ومن أهم مظاهر هذا التشجيع تلقيبهم بأسماء الطيور لما لها من المدلولات الفنية لدى الشاعر، تتعلق بحسن صوته، ونظمه الجيد، وكيفية إلقائه، من ذلك ما قاله الملك الناصر مداعبا ابن سعيد المغربي عندما وفد إليه: "إن شعراءنا ملقبون بأسماء الطيور وقد اخترت لك لقبا يليق بحسن صوتك وإيرادك للشعر، فإن كنت ترضى به، وإلاّ لم نُعلمْ به أحدا غيرنا وهو البلبل، فقال: قد رضي المملوك يا خوند، فتبسم السلطان وقال: اختر واحدة من ثلاث؛ إما الضيافة التي ذكرتها أول شعرك، وإما جائزة القصيدة، وإما حق الاسم، فقال: يا خوند، المملوك مما لا يختنق بعشر لقم؛ لأنه مغربيّ أكول، فكيف بثلاث؟ فطرب السلطان، وقال: هذا مغربي ظريف، ثم أتبعه من الدنانير والخلع الملوكية والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف"[5].

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص452. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص400. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق محمد إبراهيم حورّ، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1424هـ/2003م، ج16، ص122.

(2) انظر عن علاقته بالملك الناصر: ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص285. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص143.

(3) الفرجية: ثوب واسع طويل الأكمام، يتزيا به علماء الدين. **المعجم الوسيط**، مادة فرج.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص312.

(5) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص157. المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص273.

والمتتبع ألقابَ الشعراء يؤكد صحة ما قاله الملك الناصر لابن سعيد، فمعظم شعرائه لقبوا بأسماء الطيور، مثل الهزار، وهو لقب الشاعر علاء الدين[1]، وقنابر لقب الشاعر صفي الدين[2]، والهدهد والشحرور لقبا تاج الدين التنوخي[3]، وغير ذلك من الألقاب. ومما يؤكد ذلك ذلك ما رواه الصفدي في قوله: "وكان جماعة يلقبون بأسماء الطيور، يجتمعون في مكان فيه لأغراضهم، فقال الجماعة: ينبغي أن نسمي هذا المكان الدوحة، لأن الطيور تأوي إليها، ثم قالوا: لا بل ينبغي أن يُسمّى الأيكةَ، فقال السلطان: إنما عدلت عن الدوحة إلى الأيكة ليقال:(كَذَّبَ أَصْحابُ الأَيْكَةِ)[4] "[5]. ومن الجدير بالذكر أن الملك الناصر ربما كان يهوى صيد الطيور واقتناءَها، فكان عالما بصفاتها إذ أطلق أسماءها على الشعراء بحسب ما يتصف به هذا الشاعر أو ذاك، ومن أخبار صيده الطيور ما نظمه أبو عبد الله الكندي[6] يمدح الملك الناصر، ويذكر فيه فيه اصطياده طيرا "يسمى الكُيّ، فقال:

كَويتَ قلوبَ مَنْ عاداكَ كَيَّا ... بِصرْعِ الكُيِّ لمّا أنْ تَهَيَّا "[7]

ومن وسائل التشجيع المعنوي عند الملك الناصر لفت الأنظار إلى الشعر الجيد وتكراره، والثناء على صاحبه وفضله، ومن ذلك ما نظمه شرف الدين الأنصاري يمدح به الملك الناصر بعمّان [8]:

أفدي حبيبًا منذُ واجهْتُهُ ... عنْ وجْهِ بدْرِ التَّمِّ أغْنانِي

---

(1) علاء الدين علي الموصلي، من أهل الموصل، كان من شعراء الملك الناصر، امتدحه وامتدح غيره من الملوك. انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص259.

(2) صفي الدين قنابر، أحد شعراء الملك الناصر، كان أديبا فاضلا شاعرا، له النظم الرائق والقريحة الوقادة، توفي سنة سنة 668هـ. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص546. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص388.

(3) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص380. **عيون التواريخ**، ج20، ص414.

(4) سورة الشعراء، آية 176.

(5) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140.

(6) محمد بن علي بن المسلّم بن محمد بن الحسين بن مراجل الحموي (578–663هـ)، سمع بحلب وحدث بالقاهرة، لم لم يكن عنده ما يقوِّم به لسانه في النحو، ويلحن إذا أنشد، وله طبع يطاوعه في قول الشعر. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص270. المقريزي: **المقفى الكبير**، ج6، ص359.

(7) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص271.

(8) عمّان: بلد في طرف الشام، وكانت قصبة أرض البلقاء. ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج4، ص170.

فـــــي وجهِـــــهِ خـــــالانِ لولاهُمـــــا   مــــــا بِـــــتُّ مفْتونًـــــا بِعَمّـــــانِ

فأعجب بهما الملك الناصر، " وطرب لهما، وكرر إنشادهما، وطلب كتّاب الإنشاء، وقال لهم: مثل هذا يكون معاني الشعر ورقته"(1).

ومن الملاحظ في علاقة الملك الناصر بشعرائه أنهم كانوا على مراتب عنده، ولم يكونوا طبقة واحدة، ومرد ذلك إلى أمرين اثنين: أما الأول، فعائد إلى منصب الشاعر في الدولة، وأما الثاني، فعائد إلى قيمة الشاعر الفنية، وتتمثل بفصاحته، وجودة شعره، ومدى طرب الناصر له، وفي حديث ابن سعيد المغربي عن شهاب الدين التلعفري(2) دليل على ذلك إذ قال:"وحظي الشهاب بمنادمة الملوك وكونهم يقدرونه، ويقبلون على على شعره، وعهدي به لا ينشد أحد قبله في مجلس الملك الناصر مع كثرة الشعراء، وكثرة من يعتني بهم"(3).

4- موضوعات مجالسه الشعرية والنقدية

لم يخل بلاط الملك الناصر من المجالس الشعرية والنقدية، على الرغم من قلة الإشارة إليها في كتب التاريخ والأدب، التي أتت بالمقتطفات السريعة، عما كان يدور في تلك المجالس، لم يقتصر دور الملك الناصر على سماع قصائد المديح في مجالسه الشعرية، أو سماع

---

(1) ابن المغيزل: **ذيل مفرج الكروب**، ص53. انظر أبو الفداء: **المختصر**، ج3،ص 219. الأنصاري: **الديوان**، ص571-572.

(2) محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم الشيباني التلعفري (593-675هـ) ولد بالموصل وتوفي بحماه، كان خليعا معاشرا ماجنا ابتلي بالقمار، اشتغل بالأدب، وقال الشعر، ومدح الملوك والأعيان، واشتهر ذكره، وسار شعره، وله ديوان موجود، وكان مقدما في الشعر عند أدباء عصره، نادم الأشرف والعزيز وصاحب حماه، وهو من شعراء الملك الناصر. انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص35. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص219. الذهبي: **تاريخ الإسلام**،(671-680هـ)، ص203. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص455. **عيون التواريخ**، ج21، ص121. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج5، ص167. المقريزي: **المقفى الكبير**، ج7، ص515. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة**، ج7، ص255. وديوانه محقق، انظر الصايغ، هنربيت زاهي سابا: **ديوان شهاب الدين التلعفري** تحقيق ودراسة، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القاهرة، القاهرة، مصر، 1976هـ.

(3) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص295.

المساجلات الشعرية بين شعرائه، بل كان يشاركهم النظم تارة، وإبداء الرأي في أشعارهم تـــارة أخرى، إما معجَبا، أو منتقدا وموجها لهم. وقد حفلت مجالسه بالكثير من الشعراء، والمغنين ممن كان لهم دور في عمارة هذه المجالس بشكل مستمر، حتى غدت منارة يستهدي بنورها عشـــاق الأدب والفن والطرب، وعلى الرغم من أن كتب التراجم والأدب لم تثبت الكثيـــر مـــن أخبـــار مجالس الملك الناصر الشعرية والنقدية، إلا أن الباحث استطاع -بحمـــد الله- أن يلملـــم شـــتاتها المبثوث هنا وهناك، وكان معظمها ينطوي تحت إعجاب الملك الناصر بالشعر والطرب لـــه، أو إعجابه ببلاغة جلسائه من شعراء مملكته، أو من الوافدين عليه، أو إبداء رأيه في شاعر بعينـــه، وهذه الموضوعات على النحو الآتي:

1) النقد الفطري وأنواعه

لم يعتمد هذا النقد على قواعد ثابتة، ومنهج واضح، بل كان معظم نقد الناصـــر فطريـــاً يعتمد على السليقة، وسرعة البديهة، والاستحسان، شأن النقد فـــي العصـــر الجـــاهلي وصـــدر الإسلام، فقد كان الشعر يلبّي الغريزة الداخلية عند الملك الناصـــر، فالإنســـان مفطـــور علـــى استحسان الأشياء التي يحبها ويرغبها. واستحسان الناصر للشعر يتجلى فيثنائه علـــى الشـــاعر، وترديده الشعر المنشود أمامه، وعبارات التشجيع والتأييد للشعراء على أدائهم، وتصديقه أقوالهم.

1- تكرار إنشاد الشعر:

ومن ذلك أن ابن سعيد المغربي جمع للملك الناصر كتابه(ملوك الشعراء)، وقـــدَّم فيـــه الشهاب التلعفري، على قوله:

وتفـــــرّدتَ بالجَمـــــالِ الـــــذّي خـــــــ لاّك مستوحِشًـــــا بِغَيْـــــرِ رفيـــــقِ

فأعجب الناصر به واستحسنه" وكان كثيرا ما ينشده وينوه به"[1].

---

(1) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص295.

ومن الشعر الذي كان يعجبه، ويكرر إنشاده في مجلسه قول الشاعر:

قتـــلُ مثلـــي ياصـــاحِ شـــربُ المـــدامِ   لـــيسَ قتْلـــي بِلَهْـــذَمٍ وحُســـامِ[1]

ومن أمثلة استحسانه أن سيف الدين المشد أنشد قصيدة في مدحه مطلعها:

"أيـــا مَـــنْ حُسْـــنُهُ الأَقْصـــى   ولكـــنْ قلبُـــهُ الصَّـــخْرَهْ

فوقف عليها الملك الناصر، واقترح على الشعراء عمل أبيات على وزنها ورويّها"[2].

ونظم وجيه الدين بن سويد في صبيّ من القَيْمَريّة، قد تزوج في دمشق، فقال:

لمّا جَلو ذا الصَّبيَّ كالبدرِ في هالو

سَبى المواشِطَ وقالوا فيهِما ما قالوا

صبِيٌّ كرديٌّ وكرديّةٌ من أشكالو

لولا بناتٍ عذارٍ ولا بئسَ ما قالوا

فأعجب الملك الناصر بها وطرب لها، وكان يستنشده هذه الأبيات في حضرة أهل الصبي الذين كانوا من زعماء القيمرية وسادتهم[3].

2- عبارات التشجيع والتأييد والثناء:

كان الناصر يحفز شعراءه من خلال عبارات التشجيع التي كان يطلقها عليهم، ومنها أن العز الضرير حضر مجلسه، وكان مما أنشده:

"تـــوهَّمَ واشـــينا بليْـــلٍ مـــزارُه   فَهَـــمَّ لِيســـعى بَيْنَنـــا بِالتَّباعُـــدِ

فعانَقْتُـــه حتـــى اتّحَـــدْنا تَعانُقـــاً   فلمّـــا أتانـــا مـــا رَأى غيـــرَ واحِـــدِ

(1) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص141

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص118.

(3) انظر ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص284.

فاستحسن الحاضرون ما أشار إليه من ضيق العناق وشدّته. فقال الملك الناصر: لا تلومــوه لزِمهُ لزوم أعمى. فقال العز: والله هذا الكلام أحلى من شعري"[1].

ومن استحسانه الشعر ثناؤه على صاحبه، ومثاله أن ابن سعيد المغربي عندما وفــد علـــى الملك الناصر ومدحه، إلى أن وصل إلى قوله:

" الناصــــرُ الملـــكُ الـــذي عَزَماتُـــهُ   أبـــداً تكـــونُ مـــع العســـاكرِ عسْـــكرا

مـــا كـــانَ أنبـــا الفـــتحِ يلـــزمُ لامَـــه   والجمـــعُ مـــنْ أعدائِـــه مُتكسِّـــرا

فعظم استظراف السلطان لهذه المقاصد وأثنى عليه"[2] أمام جلسائه.

3- التصديق والإقرار:

وَثِقَ الناصر بشعرائه، فكان يبدي تصديقه وإقراره لما يقولونه من الشعر في مجلسه، ومن أشكال استحسانه الشعر تصديقه ما قاله الشاعر في عرض فكرة بعينها، أو بلوغ الهدف وإصـــابته المعنى، إذ أقرّ الملك الناصر بالاشتياق إلى الأهل والولد بعد طول غياب وفراق، ومثال ذلك أن ابن سعيد المغربي استأذن الناصر بالعودة إلى أهله في المغرب مراراً، بل كتـب شـعرا علـى ذلـك يستعطفه، وكان الناصر يرفض السماح له بالسفر حبا له، إلى أن حضر عنده فأنشده:

" بـــــاللهِ يـــــا أكـــــرمَ مَـــــنْ قـــــدْ رأَتْ   عينـــــــاي بـــــــالمغربِ والمشـــــــرقِ

انظـــــرْ لقـــــولي مُنْصِـــــفًا مُفكِـــــرا   حينـــــاً وعـــــوّقْ بعـــــدُ أو أطلـــــقِ

قضـــيتُ خيـــرَ العمـــرِ فـــي أرضِـــكُمْ   فمتِّعـــوا أهلـــي بمـــا قـــدْ بقِـــي

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص167.

(2) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص156.

فارتاح وظهر منه الحنان والإسعاف، وقال لجمال الدين بن يغمور [1]: صدق! يسرّح بما يكفيه من الإحسان، فأخذ في السفر وجرى مع القدر"[2].

2) النقد التحليلي وأنواعه:

كان للملك الناصر دور في نقد الشعر وتوجيهه الوجهة السليمة؛ إذ كان يعتمد –أحيانا– التحليل والتفسير، وكان يعجبه من الشعر ما كان مضمونه جيدا حسنا، والأمثلة على ذلك كثيرة، وأشكال هذا النقد على النحو الآتي:

1- التعليل والتفسير:

من ذلك ما رواه الصفدي أن جماعة من الأدباء حضروا مجلس الملك الناصر في إحدى الليالي، " فذكروا قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

تشكّى الكُمَيْتُ الجرْيَ لمّا جهدْتُهُ وبيّنَ لو يَستطيعُ أنْ يتكلَّما

فقال بعضهم: يا مولانا. متى نعود إلى الكُمَيْت، ويشير إلى الخمر، فقال له: حتى تعود إلى الأدهم، يريد القيد، وكان قيِّد مرة وسجن"[3]. وهذا التعليل الموجز ينم عن سرعة بديهة الناصر، فالكميت والأدهم من أسماء الحصان.

2- الاقتراح والتغيير:

لم يقتصر نقد الملك الناصر على وصف الشعر المنشود في مجالسه الشعرية، وإبداء الرأي فيه، بل تعدى ذلك إلى تغيير بعض الأبيات واقتراح أبيات غيرها لقوة مبناها ومعناها بحسب ما يقتضيه الحال، ومثال ذلك أنه " أمر يوما كاتبه القاضي تاج الدين بن الأثير[4] أن

---

(1) "جمال الدين بن يغمور الباروقي موسى (599-663هـ)، كان من جِلَّةِ الأمراء، ولي نيابة مصر ونيابة الشام". ابن ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص544.

(2) ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص8.

(3) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص138.

(4) أحمد بن سعيد بن محمد، الصاحب تاج الدين بن شرف الدين بن شمس الدين بن الأثير الحلبي، الموقع وكاتب السر، السر، كتب الإنشاء للملك الناصر وللظاهر بيبرس من بعده، كان كبير القدر عديم الشر، توفي بغزة ذاهباً إلى القاهرة سنة691هـ. انظر الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج6، 392.

يكتب له كتابا إلى هولاكو على يد ولده، وقد جهَّز معه تحفا، فكتب كتابا حسنا جاء فيه عند ذكر الولد ما قاله الشاعر:

يجـــودُ بـــالنفسِ إذْ ضـــنَّ الجـــوادُ بهـــا والجودُ بـــالنفسِ أقصـــى غايـــةَ الجـــودِ

فلما وقف السلطان عليه، قال: هذا حسن، ولو قلت هنا ما قاله ابن حمدان:

فـــدى نفسَـــهُ بـــابنٍ عليـــهِ كَنفسِـــهِ وفي الشـــدّةِ الصّـــماءِ تفنـــى الـــذخائرُ

وقـــدْ يُقطـــعُ العضـــوُ النفـــيسُ لغيـــرِه ويُـــدْخرُ للأمـــرِ الكبيـــرِ الكبـــائرُ[1]

فأقر له بالإحسان"[2].

3) نقد الشكل:

اهتم الملك الناصر وشعراؤه في مجالسه الشعرية بهيكلية القصيدة وبيان سر الجمال في تكامل أبياتها، وكيفية تقديم الشاعر لغرضه الشعري الرئيس ومدى نجاحه في ذلك التقديم، ومـــن أهم الموضوعات الشكلية في تلك المجالس الآتي:

1- الوحدة الموضوعية:

إن أغلب القصائد والمقطعات التي نظمت في حضرة الملك الناصر كانت تـــدور حـــول موضوع واحد، وهو المدح، فكانت القصيدة وحدة موضوعية يأخذ بعضها برقاب بعض، ومـــن ذلك أن الملك الناصر " كان مرّة جالسا وبين يديه شاعر، فأنشد قصيدة في مدحه، فأخذ بعـــض الجماعة ينتقد عليه، فقال الشاعر: دعوني حتى أتم الإنشاد وبعد ذلك يكون الانتقاد.فقال السلطان:

---

(1) الحمداني، أبو فراس: **الديوان**، تحقيق بدر الدين حاضري محمد حمـــامي، ط1، بيـــروت، دار الشـــرق العربـــي، 1412هـ/1992م، ص91.

(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج6، ص395. **تحفة ذوي الألباب**، ج2، ص158-159.

لا تجعلوا النقد نقدا "[1]. و يدل قول الملك الناصر على اهتمامه بالوحدة الموضوعية في القصيدة، فلا يحكم على بعضها دون الآخر بل هي كل متكامل مقدمتها وعرضها وخاتمتها.

2- بناء القصيدة:

اختلف بناء القصيدة عند شعراء الملك الناصر باختلاف الموضوعات والأغراض الشعرية، وبحسب الجو العام عند إنشاد القصيدة، فبعض قصائد المديح على سبيل المثال، بدأها أصحابها بما بدأ به الأقدمون قصائدهم، من الغزل وذكر الديار، ووصف الرحلة والسفر في الصحراء التي كان يقطعها بفرسه أو جمله، وفي مقابل ذلك وُجد من الشعراء من يدخل في موضوعه مباشرة، ويذكر مقصده من المديح في مطلع قصيدته. لما له من أثر في نفس السامع، علما من الشاعر أن حسن المطلع، ينعكس على حسن العطاء والحظوة عند الملك الناصر، ومن ذلك أن ابن سعيد المغربي عندما وفد إلى حلب بصحبة كمال الدين بن العديم، ودخل على الملك الناصر، أنشد قصيدته الطويلة التي مطلعها:

" جُدْ لي بما أَلْقى الخَيالُ من الكَرى   لابدّ للضيفِ المُلمِّ من القِرى

فقال كمال الدين بن العديم: هذا رجل عارف، ورّى بمقصوده من أول كلمة"[2]. وهنا إشارة إلى إلى حسن المطلع، وما يتضمنه من كلام موجز يحمل في طياته الشيء الكثير.

وكان الملك الناصر عالما بمقاصد الشعراء في مدائحهم، وتهانيهم له، " قال ابن العديم: حضرت يوما بين يديه، وشاورته على هذا الشاعر أن ينشد قصيدة عملها في تهنئته بقدوم دمشق، وشفعها بأبيات يذكّر برسمه، فوقف على الودقين[3]ثم أذن له، فحضره. وأنشد قصيدة المدح وخرج بسرعة، فاسترجعه، وقال له: أنشد هذه الأبيات، فإنك أنشدت أبيات القصيد ولم

(1) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص139.

(2) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص272. وانظر ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص156.

(3) ودق إلى الشيء ودْقاً وودوقاً، أي دنا منه، وودقت به ودقاً أي استأنست به، والمودق المأتى للمكان وغيره، والمودق والمودق الحائل بين الشيئين. لسان العرب: مادة ودق.

تنشد أبيات القصد، فلما أنشد الأبيات قال: السيف يحتاج إلى الهزّ، وأمر له بتشريفه ورسمه"[1].

ورسمه"[1].

3- الأسلوب ومقياس النحو:

كان الملك الناصر يستهويه محاضرة شعرائه في أساليبهم اللغوية والنحوية، ويشاركهم الرأي في عرض أساليبهم؛ إذ كان يسأل عما اختلط عليه في هذه المسائل، ويستمع لآرائهم، ومن ذلك أن شرف الدين الأنصاري مدح الناصر في مجلسه بعمّان، فقال:

" أفدي حبيباً منذُ واجهتُهُ   عن وجهِ بدرِ التّمِّ أغناني

في وجهِهِ خالانِ لولاهُما   ما بِتُّ مفْتونًا بِعَمّانِ"[2]

فاعترض كمال الدين بن العجمي كاتب الإنشاء على إيراده التورية في البيت الثاني، وقال: " يا مولانا، هذان البيتان ما تخدم فيه التورية، ولا يتفق أن يكون المراد إلا اسم المكان، ودخول حرف الجر مانعٌ من غرضه، وإلا قال: "بعمين". فأسقط في يد الملك، فلما كان من الغد واجتمعا، قال له: ما جرى بالأمس؟ فقال له الصاحب: يا مولانا هذا إنكار من لم يقرأ القرآن العظيم، ولا يعرف كلام العرب، قال الله تعالى: (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ)[3]، وقال بعض العرب:

أنّ أباها وأبا أباها   قد بلغا في المجد غايتاها

وقال أعرابي:

فأطرقَ إطراقَ الشجاعِ ولوْ رأى   مُساغًا لناباه[4] الشجاعُ تضمَّما

(1) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج29، ص139.

(2) أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص219. انظر الأنصاري: **الديوان**، ص271-272.

(3) سورة طه، أية: 63.

(4) لنابيه، بلفظ المثنى.

وهذا جائز، أعني ثبوت الألف في المثنى في الأحوال الثلاث عند بني الهجيم، وبني العنبر، وبني الحارث. فازداد الملك الناصر سروراً بما علم، وانضم حسنُ الاحتجاج إلى حسن البيتين انضماماً جميلا"[1].

4) نقد المضمون:

اعتنى الملك الناصر بسلامة المضمون ودقة معانيه، لما فيه من سمة فنية واتصال مباشر بشكل النص، وتكامل مبناه ومعناه، فكان يعجبه المعنى الجديد المبتكر في الشعر، ولم يقتصر على ذلك، بل كان يسأل صاحب الشعر عن معانيه ويصدر رأيه في النهاية، وموضوعات النقد حول المضمون على النحو الآتي:

1- مراعاة المعنى مقتضى الحال:

ومن ذلك أن الملك الناصر سأل شاعره الهزار عن الملك المغيث صاحب الكرك، ونائبه النجيب، وعما لحق بهما من جرّاء الحصار المفروض عليها وعلى المماليك عندهما، وكان الهزار قد دخل الكرك، ولقي الملك المغيث ومدحه، إلا أن الأخير قصر في حقِّه وضيافته، فقال:

"إن حِصنَ الغرابِ قد ضاقَ حتى ... لمْ يكنْ فيه ما يقوتُ الهزارا

قد وجدتُ المغيثَ فيهِ أُواماً[2] ... ورأيتُ النجيبَ فيهِ حِمارا

فأعجب السلطانَ ذلك، وأعطاه ما كان عليه، وقال بعد انفصاله: هذان البيتان بهما ومثلهما تُمهَّد الممالك"[3]، قال الناصر ذلك لمطابقة المعنى مقتضى الحال السياسي والاقتصادي الذي لحق بالكرك وصاحبها بسبب الخناق المفروض عليهم.

ومن ذلك أيضا أنه " كان لبعض الشعراء عليه رسم في كل سنة وتشريف ودراهم، فأنشد:

---

(1) ابن المغيزل: **ذيل مفرج الكروب**، ص53-54. انظر الأنصاري: **الديوان** ص571-572. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ج3، ص219.

(2) آم يؤوم أوماً اشتد عطشه، والأُوامُ حرارة العطش. **المعجم الوسيط**: مادة آم.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص260.

أمـــولايَ رســـمي قـــدْ تقـــادمَ عهـــدُه   ومـــنْ يـــدكَ العُليـــا تجـــدُّدُ عَهـــدِهِ

فقال السلطان: الرسوم كثيرة، فأيُّ رسم أردتَ؟ فقال الشاعر: رسوم العامـــة أطـــلال الـــديار، ورسوم الخاصة جوائز الملوك، فقال السلطان: على هذا الرسم هو المعوّل. يشير إلى قول امرئ القيس:

وهلْ عندَ رسمٍ دارسٍ منْ معوّلِ(1) "(2)

2- جودة المعاني وابتكارها:

إن ابتكار المعنى الجديد المخترع عند الشعراء لفت نظر الملك الناصر وجلسائه، لعلمهم بأفضلية صاحبه، وتفوقه على أقرانه بذلك، فبعد استحسان كمال الدين بن العديم مطلـــع قصـــيدة ابن سعيد المغربي، واستظراف الناصر له والثناء عليه عند سماعه البيتـــين الآتيـــين للمطلـــع، واصل ابن سعيد قصيدته إلى أن قال:

" الـــدينُ أصـــلحَهُ وعـــمَّ صـــلاحُهُ   الـــدُّنيا وأصـــبحَ ناصـــراً ومُظفَّـــرا

فكـــأنَّ كُنْيَتَـــهُ غَـــدَتْ موْضـــوعَهُ   مـــنْ ربِّـــه والوصـــفُ مِنـــهُ مُقـــرَّرا

وكأنّمـــا الأســـماءُ قـــدْ عُرِضـــتْ علـــى   عَلْيـــاهُ قبـــلَ وجـــودِهِ مُتخيِّـــرا

فقال السلطان: كيف ترون؟ واستعاده، فقال عون الدين بن العجمي عميد المجلس وكاتب الإنشاء: استنباطه ما سمعَ الملوكُ بمثله يا خوند"(3). فهذا الحكم على جودة ما جاء به ابن ســـعيد من الابتداع والمعنى المبتكر، صدر من عون الدين بن العجمي الذي وُصف بأنه " بحر لا تنزفه الدلاء"(4)، ليدلّ على إعجاب أهل المجلس بهذا المعنى الجديد ورفعته.

---

(1) الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين: **شرح المعلقات العشر**، بيروت، دار مكتبـــة الحيـــاة، 1979م، ص33.

(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص139.

(3) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص156.

(4) المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص273.

ومن ذلك أن الملك الناصر أذن لابن سعيد بالسفر للحج، " فأنعم عليه، وأمر له بخلعة موشّية، ولم يصلْه معها زاد، فكتب إليه:

يـــــا أيُّهـــــا الملـــــكُ الـــــذي نفـــــعَ الزمـــــانُ بـــــه وضـــــرّْ

أهـــــديتَ لـــــي التشـــــريفَ لـــــكـــــنْ دونَـــــه زادُ السَّـــــفَرْ

فكأنَّمـــــا أهـــــديتَ لـــــي فصـــــلَ الربيـــــعِ بِـــــلا مَطَـــــرْ

فحلف كمال الدين على ابتداع هذا المعنى، وزكّاه الملك الناصر، وأمر له في الحين بالزاد المبلّغ"[1].

---

(1) ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص7.

الفصل الثالث

الشعر في بلاط الملك الناصر: دراسة موضوعية

الفصل الثالث

الشعر في بلاط الملك الناصر: دراسة موضوعية

طرق الشعراء أبواب الشعر جميعها، في عهد الملـك الناصـر، وتعـدّدت أغراضـهم الشعرية حسبَ ميولهم ورغباتهم، ومكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية، التي كـان لهـا الأثر في إثراء موضوعاتهم الشعرية، فلم ينقطع ينبوع الشعر في بلاد الشام على الـرغم مـن الظروف السياسية الصعبة التي عاشتها الدولة الأيوبية في عهده، فقد تدفق الشعر بانسياب علـى ألسنة الشعراء، وتشهد بذلك دواوينهم الشعرية، وكتب التاريخ والأدب والتراجم.

لم تكن الدراسة هذه لتحيط بكل ما قاله الشعراء في ذلك الوقت؛ وإنما ارتكـزت علـى الشعر الذي قيل في بلاط الملك الناصر، على اختلاف أغراضه، سواء ما ألقـاه الشـعراء فـي حضرته، وفي مجالسه بحلب ودمشق، أم في أسفاره وغزواته، أو ما أرسله الشعراء إليه مكتوبا من قصائدهم لتقرأ على مسامعه، أو تغنّى في مجالس أنسه وطربه.

وبدأت الدراسةُ الموضوعية للأغراض الشّعرية التي قيلت في بلاط الملك الناصر بتقديم الغرض الأكثر شيوعا، وانتشاراً، وغزارةً، ثم الأقل فالأقل، ولا غرابة إن وجد القارئ أكثر من غرض في القصيدة أو المقطوعة الواحدة، فقد تعدّدت أغراض الشعراء فيها حسب ما يقتضـيه الحال، فجمعوا بين الغزل والخمريات، أو بين الغزل والمديح، أو بين المديح والحنين، أو بـين المديح والوصف، أو بين المديح والهجاء، ورأس ذلك كله هو قصيدة المديح، التي جمعت هـذه الأغراض، وطوتها في ثوبها الفضفاض. وهذه الأغراض على النحو الآتي:

1) المديح

" المديح ضرورة فرضها الإعجاب والإكبار بالممدوح، وحاجة الشعراء إلى من يكفـل لهم العيش الرغد، وحاجة الممدوح إلى شاعر يخلده على مرِّ الأيام، فكم خلّد الشـعراء أناسـا، فطغت شهرتهم على مَنْ هم أشدُّ منهم هيبة وسلطانا"[1].

---

(1) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص77-78.

والمديح من أكثر أغراض الشعر انتشارا في مختلف العصور؛ إذ طرق بابه معظم الشعراء، وصالوا وجالوا في معانيه وألفاظه المستمدة من مخزونهم التاريخي، ومن بيئتهم العربية، وكثر المدح زمن الملك الناصر، وانتشر في حاضرة دولته، وبخاصة في حلب ودمشق؛ لكثرة الشعراء وازدحام بلاطه بهم؛ إذ تجاوز عددهم العشرين شاعراً ما بين وافدٍ عليه، أو مجالس له؛ بحثاً عن هباته وعطاياه، حتى إنّ دواوين بعضهم غصّت بمدائحهم له، فناهزت مدائح سيف الدين المشدّ للملك الناصر الأربعين مابين قصيدة ومقطوعة وسماها "الناصريات"، وكانت مدائح شرف الدين الأنصاري له قرابة خمس وثلاثين قصيدة ومقطوعة، وثلاث قصائد طويلة للبهاء زهير، وغيرهم من شعرائه الذين تناثرت أشعارهم في كتب التاريخ والأدب والتراجم، ولم تجمع أشعارهم في دواوين بعدُ. وقد أخذ المدح الجهد والوقت من الشعراء الذين اتخذوه وسيلة للكسب والعطاء، وتوفير عيش هانئ طالما سعوا لتحقيقه.

نهج الشعراء في مدائحهم الملك الناصر نهج القدماء في إبراز المناقب والصفات له، سواء أكانت مادية أم معنوية، وجاءت مدائحهم طويلة استفاض فيها الشعراء سعياً لرسم صورة مثالية له، تثير إعجابه، وتسخي يديه.

وانصبّ جلّ شعر المديح في قالب الصفات المعنوية، والقيم الإنسانية النبيلة الموروثة من القدم عبر العصور السابقة، التي يطيب للنفس البشرية سماعُها، من خلال إبراز الأخلاق الحميدة للممدوح، وقد حصرها قدامة بن جعفر في" العقل والشجاعة والعدل والعفة"[(1)]، ويبين ابن طباطبا أنها "خلالٌ مشهورة كثيرة: منها في الخَلْق الجمال والبسطة، ومنها في الخُلق السخاء والشجاعة"[(2)]. وغيرها من المناقب الموروثة الأصيلة، التي تنبَّه لها الشعراء، وأجادوا في عرض معانيها في قوالب لفظية متنوعة جديدة.

---

(1) قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي: **نقد الشعر**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت، ص96.

(2) ابن طباطبا، محمد بن أحمد: **عيار الشعر**، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1956م، ص12.

نهج شعراء الناصر في مدائحهم نهج القدماء في معانيهم، ثم أساليبهم، إذ بدأوها بالغزل، وذكر الخمر، ووصف الرحلة ووصف الطبيعة بحيوانها وجمادها، وقد استحسن القدماء أن يفتتح الشاعر مدحه بالغزل والنسيب، شرط أن يتصل بما بعده مباشرة، حتى تكون القصيدة كالجسد الواحد متكامل الأعضاء(1).

وبدت العاطفة الدينية واضحة لدى الشعراء في إضفاء الصفات الدينية على الملك الناصر، فهو متواضع حليم على الرغم من عزّة نفسه وقوته، كما يبدو في قول شرف الدين الأنصاري:

عظيمُ التواضع في عزّةٍ حليمٌ على أنهُ قادرُ(2)

وأمن الناس في دولته من السوء والأذى، وكانوا سواسية في الحقوق والواجبات، ومثاله قول الشرف الأنصاري:

وأمّنْتَنا من كلِّ نحْوٍ من الأذى فلمْ يسْطُ في التمثيل زيدٌ على عمْر(3)

والملك الناصر عادل في رعيّته، وبرّه ومعروفه واصل إليهم، وأياديه مبسوطة إليهم، وهي سمات متأصلة في نفسه لا يحيد عنها، كما يبدو في قول سليمان بن بُليْمان:

يعدِلُ في الحكْمِ لكنَّهُ عنْ طرُقِ المعروفِ لا يعْدِلُ(4)

وقول سيف الدين المشدّ:

ما زالَ يقصُدُ عدلاً في رعِيَّتهِ فلنْ تراهُ إذا ما جادَ مقتصِدا(5)

بل امتلأت الدنيا بعدل الملك الناصر حتى عمّ عدلُه الأرض، وأضاءها، وهذا ما يتجلى في قول أبي عبد الله الكندي:

(1) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص117. سيأتي الحديث عن ذلك في الفصل الرابع تحت عنوان بناء القصيدة.
(2) الأنصاري: **الديوان**، ص222.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص155.
(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص355.

ملكْتَ الناصرَ السلطانَ عدلاً طويْتَ بهِ بِساطَ الأرضِ طيّاً[1]

وقول محيي الدين بن زبلاق:

وقد استحالَ ظلامُهُ وفسادُهُ بضِياءِ ناصرِ دينهِ وصلاحِهِ[2]

ويرى البهاء زهير أنّ سيرة الملك الناصر عطرة لا تشوبها شائبة، فأخلاقه عظيمة فاقت معرفته وإحصاءه لها، وذلك في مطلع قصيدته، التي يقول فيها:

طريقَتُكَ المُثْلى أجلُّ وأشْرفُ وسيرتُكَ الحُسْنى أبرُّ وأرْأفُ

وأعرفُ منْكَ الجودَ والحِلْمَ والتُّقى وأنتَ لعمري فوْق ما أنا أعرِفُ[3]

ورسم له الشعراء صورة المجاهد، الحامي لدين الله، الذي يذود عن حمى الإسلام والمسلمين، ويحمي حياضهم، ويقضي على أعدائهم، ويبدو ذلك في قول النور الإسعردي:

حَمى حِمى ساحةِ الإسلامِ حين محا الطُّغيانَ فالشِّرْكُ لم يثبت له هِضَبُ[4]

عزَّتْ به ملَّةُ الدّين الحنيفِ كما ذلَّتْ بصوْلتهِ الأوْثانُ والصُّلبُ[5]

وقول سيف الدين المشدّ:

وأيُّ ثُغورٍ لا يعِزُّ منالُها ومنْ حوْلَها بيضٌ ومن دونِها سُمْرُ

كما قد حمى الإسلامَ في كلِّ وِجْهةٍ مليكٌ على كلِّ الملوكِ لهُ الفخْرُ

هو الناصرُ السلطانُ والسّيِّدُ الذي بأيّامِهِ يزْهو ويفتَخِرُ الدهرُ[6]

ومن معاني الشجاعة والإقدام التي تغنّى بها الشعراء أن الملك الناصر مَهيبُ الجانب، ويخافه أعداؤه، وتدين له أسدُ الفلاة؛ يقول سليمان بن بليمان:

---

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص271.

(2) المصدر السابق، ج10، ص316.

(3) البهاء زهير، بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي المصري: **الديوان**، القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، ب.ت، ب.ت، ص131.

(4) الهضب من الخيل الكثير العرق. **لسان العرب**: مادة هضب.

(5) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص60. نقلا مخطوطة الديوان، الورقة 3.

(6) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص352.

ليــــثٌ إذا مــــا صــــار فــــي معــــزلٍ   دان لــــه ليــــثُ الشّــــرى المشــــبلُ[1]

بل إن الملوك تتودّد له، وتستعطفه رهبةً منه، وطمعاً في رضاه، وهذا ما يتجلى في قول البهاء زهير:

يــــا أيُّهــــا الملــــكُ الــــذي دانــــتْ لــــه   كــــلُّ الملــــوكِ تــــودُّدًا و توسُّــــلا
فعَلاهُــــــمُ متطــــــوِّلا وحبــــــاهُمُ   متفضِّــــــلا وأتــــــاهمُ مُــــــتمهِّلا[2]

وتغنى الشعراء بإقدام الناصر وشجاعته في ساحة المعركــة، وذكــروا بأســه وقوتــه، ووصفوا أسيافه التي تخضَّبت بدماء الأعداء، وكانت بروقاً لامعة وسط ظلام المعركــة، وهــي صورة تقليدية، يقول بدر الدين بن الفويرة:

كما لمعتْ أســياف يوســفَ فــي الــوغى   مخضَّــبةً أطرافُهــا مــن دمِ الكفــر[3]

ويقول سليمان بن بليمان:

تُعيـــــدُ ليـــــلَ النقـــــعِ أســـــيافُه   صُــبْحا إذا مــا ازدحــم الجحفــل[4]

ومن مظاهر شجاعته، حديث الشعراء عن مصير أعدائه في ساحة المعركة، كما يبــدو في قول سيف الدين المشد :

يـــــا ملكًـــــا أضـــــحتْ عِـــــداهُ   علـــى جـــذوعِ النخـــلِ تُصـــلبْ[5]

وسيفُ الناصر قهر أعداءه كلّهم، ولا غرابة في ذلك، فَمُمْسِكُه سيد شجاع كــريم يفــرج الكرب عن الناس في حربه وسلْمه، يقول شرف الدين الأنصاري:

ســـــــيفٌ أبــــــادَ الأعــــــادي   مــــا بــــينَ عُــــرْبٍ وعُجْــــمِ
بِكَــــــفِّ ملــــــكٍ هُمــــــامٍ   مُفــــــرِّجٍ كــــــلَّ هــــــمِّ

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325
(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص179.
(3) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.
(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325.
(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص256.

كالليـــــثِ فـــــي يـــــومِ حـــــربٍ   والغيـــــثِ فـــــي يـــــومِ سِـــــلْمِ[1]

وسيوف الناصر صيغت من الذهب الخالص، على خلاف سيوف الملوك كلها، وقد جاد بها على جنده كلهم، كما يبدو في قول سيف الدين المشد:

مليـــكٌ صـــاغَ مـــن ذهـــبٍ نُصـــولا   يجـــود بهـــا وللأعـــداءِ رجـــفُ[2]

ومن الصفات التقليدية التي ألحّ عليها الشعراء، وأطالوا في الحديث عنها صـــفة الكـــرم والجود، التي يتمتع بها الملك الناصر، وقد عبّر الشعراء عن هذه السمة بطرق مختلفـــة، فهـــذا شرف الدين الأنصاري يصوِّر الناسَ في عهده، وقد نعموا بجوده الذي شغلهم عن انتظار قطـــر السماء، كما يبدو في قوله:

وزيَّنْتَنَـــا مـــن راحَتَيْـــكَ بـــأَنْعُمٍ   عَنينا بها في المَحْلِ عن صيِّبِ القطْـرِ[3]

وصور الشعراء الغيث يحذو حذوه بجوده وعطائه، إذا انهال فضله على الناس، وهو ما عبّر عنه كمال الدين بن العجمي في قوله:

وجـــودٍ صـــلاحيٍّ إذا جـــادَ صـــوْبُهُ   تعلَّـــمَ منْـــهُ الغيْـــثُ كيـــف يصـــوبُ[4]

ويبالغ سيف الدين المشد إذ وصف يدي الناصر تمطران ذهباً، ويفـــوق كرمهمـــا نعـــم السماء، وهذا ما يتجلى في قوله:

ويـــا مـــن جـــودُ كفَّيْـــهِ   يفـــوقُ الغيْـــثَ فـــي الكثْـــرهْ[5]

وقوله:

لا ولـــمْ ننظُـــرْ مُعايَنَـــةً   سُـــحُباً قـــدْ أمْطـــرتْ ذهبـــا
غيْـــرَ أيْـــدي يوسُـــف المـــلكِ   الناصـــرِ النـــدْبِ العزيـــزِ أبـــا[6]

---

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص431.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص331.
(3) ابن واصل: مفرج **الكروب**، ص155.
(4) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص368.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص119.
(6) المصدر السابق، ص 130

ولا يستطيع أحد أن يحصي فضائله ومكارمه على الناس، فهي كثيرة لا تعدّ ولا تحصى مثل عدد الكواكب، يقول سيف الدين المشد:

ومكـــــــــارمٍ كثُـــــــــرتْ فَـــــــــلا   تُحصـــى وهـــلْ تُحصـــى الكواكـــبْ[1]

وبلغ نعيم الناس في دولته مرتبة نعيم الجنة، بعدما تحققت أمنيـــاتهم، وأدركـــوا آمـــالهم ومطالبهم، كما في قول سليمان بن بليمان:

فالنّـــاسُ فـــي عصْـــرِكَ فـــي جنَّـــةٍ   قطوفُهـــــا دانيـــــــةٌ مُيَّـــــــلُ

قـــدْ بلغـــوا فيـــه الـــذي حـــاولَوا   وأدركـــوا منـــكَ الـــذي أمَّلـــوا[2]

والملك الناصر بحر العطاء والكرم، عطاؤه موصول للقريب والبعيد، فلا يردّ من قصده سواء أكان من مملكته، أم من الممالك الأخرى، واختاروا له صورة البحر، وهي صورة تقليدية أتى بها الشعراء بكثرة قبله، يقول سيف الدين المشد:

ملـــكٌ هـــو البحـــرُ فـــي العطايـــا   لكـــنْ نـــدى راحَتيْـــهِ أعـــذبْ

إذا أتـــــــاهُ غريـــــــبُ قـــــــومٍ   أحســـنَ فـــي حقِّـــهِ وأغـــربْ[3]

وفضل الناصر سابغ وافر على رعيته، تناقله الناس في ذهابهم وإيابهم، وكأنـــه حـــديث الساعة، يقول شرف الدين الأنصاري:

مليـــــكٌ يميـــــرُ الـــــورى أنْعُمـــــاً   يُهَنِّـــي بهـــا الـــواردَ الصـــادرُ[4]

وصوره الشعراء يتفوق على ملوك الأرض في كرمه وعطائه، قد أنست عطايـــاه مـــن اشتهر بالكرم قبله، وهذا يتجلى في قول سيف الدين المشد:

أنْســـــى الأنـــــامَ بجـــــودِهِ وبعفْـــــوِهِ   كـــرمَ ابـــنِ زائـــدة وحِلْـــمَ مُعاوِيـــةْ[5]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص136.
(2) اليونيني: ذيل **مرآة الزمان**، ج4، ص326.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، 256. الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص108.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص222.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص106.

ويدعو البهاء زهير إلى ترك ذكر كعب وحاتم اللذين اشتهرا بالسماحة والكرم، لأنهما لا يقرنان بسماحة الملك الناصر وكرمه، وفي ذلك يقول:

دعوا ذكــرَ كعــبٍ فــي السَّــماحِ وحــاتمٍ　　فلـــيسَ يُعــدُّ اليـــومَ ذاك التَّســـمُّحُ[1]

ويصور المشد كرمه وفضله قد فاق التصور، وزاد على آمال الناس، وعلى ما تمنوه:

ســـــمْحٌ يجـــــودُ بمــــا يزيـــــــــدُ علــــــى الآمــــالِ والمطالِــــــبِ
لا تعجبـــــــــــــوا لعطائِـــــــــــــهِ　　فــــــالبحْرُ يــــــأتي بالعجائــــــبِ[2]

وركّز الشعراء على وصف مكارم الناصر وعطاياه معهم، وجعلوا ذلك باباً من أبــواب إطرائه، والوفاء له، وهذا ما يقرُّه سليمان بن بليمان في قوله:

يــــا مليكًــــا فــــاقَ الأنــــامَ جميعًــــا　　منــــهُ جــــودٌ كالعــــارضِ الوكّــــافِ[3]
والــــذي راشَ[4] بالعطايــــا جَنــــاحي　　وتلافــــى بعــــدَ الإلــــهِ تلافــــي[5]

ويذكر صفي الدين قنابر لذائذ عيشه في بلاط الملك الناصر، حيث النعيم المقيم، ومــن حوله الرياض والأزهار، وأنغام الطيور، فيقول:

لله أيــــامُ القصــــورِ ونحــــنُ فــــي　　اللّــــذّاتِ فــــي شُــــرُفاتِها نتــــنعَّمُ
والــــرّوضُ يبسُــــمُ والغمــــامُ معــــبِسٌ　　والطّيــــرُ فــــي أغصــــانها يتــــرنّمُ
لــــولا مكــــارمُ يوســــفَ بــــنِ محمــــدٍ　　مــــا كــــان فــــي الــــدُّنيا جــــوادٌ مفعِــــمُ[6]

وتحدث البهاء زهير عن اتصاله بالملك الناصر، الذي ألبسه ثوب الفخار، وقرَّبه منه، إذ كان غزير العطاء والجود، سريع الإجابة لسؤاله، وصوَّر الناس يتناقلون مفاخره ومآثره، وكــأن سجاياه أضحت حديثا شريفا حفظه الناس ورووه، يقول:

---

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص43. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص149.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص136.
(3) الوكّاف: المطر المنهلّ. **المعجم الوسيط**: مادة وكف.
(4) راش فلانا: قواه وأعانه وأصلح حاله. **المعجم الوسيط**: مادة ريش.
(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص323. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص444. **عيون التواريخ**، ج21، ص405. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص356.
(6) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص547. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص389

ملــكٌ شــمخْتُ علــى الملــوكِ بقُرْبِــهِ ... ولبســتُ ثــوبَ العِــزِّ منــه مسْــبَلا

ورفعــتُ صــوتي قــائلا يــا يوســفُ ... فأجــابني ملــكٌ أطــالَ وأجْــزلا

وإذا نظــرتُ وجــدتُ بعــضَ هِباتِــهِ ... فيهــا المفــاخرُ والمــآثرُ والعُــلا

يُــروى حــديثُ الجــودِ عنــهُ مســندا ... فعــلامَ ترويــه الســحائب مُرســلا[1][2]

ولم يتنكَّر الملك الناصر لشعرائه بعدما ضعفت عزائمهم، وقلَّ نتاجهم، ولم يعودوا قادرين على العمل في مراتب الدولة، فالجندي الشاعر نور الدين الإسعردي فَقَدَ بصره في أواخر عمره، ما جعل الملك الناصر يعتني به أكثر من قبل، وهذا ما عبَّر عنه الإسعردي في قوله:

لله فــي هــذا الــورى حكمــةٌ ... وأنْعُــمٌ أعيــتْ علــى الحاصِــرِ

عوَّضــني والله ذو رحمــة ... عــن نــاظري الباصــرِ بالناصــرِ[3]

وحدث أن أرمد سيف الدين المشد، وأصابه مرض في عينه، فاستحضر فضل الملك الناصر عليه، موظفاً القرآن الكريم في الإشارة إلى قميص النبي يوسف عليه السلام، وأنشد:

لا يختْشــي رمَــدًا يُلِــمّ بعَيْنِــهِ ... منْ كان ريحُ قميصِــهِ يُبْــري العمــى[4]

وينعم شرف الدين الأنصاري بالأمان والاطمئنان لقربه من الناصر، فلا يخشى صروف الدهر، كما يبدو في قوله:

وإذا أمنــتُ بيوســفَ بــن محمــدٍ ... جــورَ الزمــانِ فخيفتــي مِمّــاذا؟

ملــكٌ إذا ســئم الملــوكُ بنــيهمُ ... ألْفيْتــهُ لبنــي الزمــانِ مــلاذا

ما عُــذْتُ مــن شــيطانِ بــؤسٍ أو ردىً ... بجلالِــهِ إلا وجــدتُ معــاذا

ذلَّــتْ عــدايَ إذِ اتَّصــلتُ بحبلــهِ ... وتقطَّعــت أكبــادُهم أفــلاذا[5]

---

(1) "الحديث المرسل: ما سقط من إسناده الصحابي، كأن يقول التابعي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يذكر الصحابي الذي أخذه عنه". **المعجم الوسيط:** مادة رسل.

(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص177.

(3) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص190.

(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص133.

(5) الأنصاري: **الديوان**، ص186.

ومزج الشعراء بين صفتي الكرم والشجاعة للملك الناصر، فهو كريم في عطائه على مواليه، وذو بأس شديد على أعدائه، كما يبدو في قول عبد الله بن محاسن[1]:

أنـــتَ الـــذي يُفنـــي ويُغنـــي بالنـــدى   والبـــأسِ فـــي يَـــوْميْ عطـــاهُ وحربـــهِ
فعلـــى المُـــوالي نِعمـــةٌ مـــن مالـــهِ   وعلى المُعادي نِقْمـــةٌ مـــن عَضْـــبه[2][3]

والملك الناصر كالأسد يصون مملكته، وكالغيث الهامر، يقول محيي الدين بن زبلاق:

كالليـــث ممنـــوعُ العـــرينِ مصـــونُهُ   والغيـــثِ مبـــذولُ الحيـــاءِ مُباحُـــهُ[4]

ويصوره سيف الدين المشد بحراً وليثاً في قوله:

الملـــكُ الناصـــرُ خيـــرُ الـــورى   يوسُـــف بحـــرُ الجـــودِ ليـــثُ الكفـــاحْ[5]

ويقول البهاء زهير:

وإذا ســـألتَ ســـألتَ غيثـــا مُســـبِلا   وإذا لقيـــتَ لقيـــتَ ليثًـــا مُشـــبِلا[6]

وجعله شرف الدين بن قاضي اليمن[7] يعلو على كل رموز الجود والكرم والقـوة التـي اعتاد عليها الشعراء في تصوير ممدوحيهم، ويتجلى ذلك في قوله:

هـــذا الملـــكُ الناصـــرُ مـــولايَ إذا   وافـــاكَ كفـــاكَ كـــلَّ هـــمٍّ وأذى
ما الغيثُ ولا اللّيـثُ ولا البحـرُ كـذا   للعـــينِ وللقلْـــبِ وللـــروح غِـــذَا[8]

وجمع المشد شمل الأوصاف والمناقب المعنوية للملك الناصر في بيت واحد، فقال:

---

(1) "عبد الله بن محاسن بن عبد الله بن محمد بن عبد الملك بن علي بن محمد، أبو هلب العباسي الحلبي، أحـد شـعراء الملك الناصر". ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص175.

(2) العَضْبُ السيف الحاد القاطع. **المعجم الوسيط:** مادة عضب.

(3) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص175.

(4) المصدر السابق، ج10، ص317.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص257.

(6) البهاء زهير: **الديوان**، ص177.

(7) "إسماعيل بن عبد الله، شرف الدين ابن قاضي اليمن، ولد بدمشق سنة589هـ". الصفدي: **الـوافي بالوفيـات**، ج9، ص150.

(8) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج9، ص150.

جـــوادٌ شـــجاعٌ عـــادلٌ مُتطـــوِّلٌ   حليمٌ عليمٌ كامـل العقـلِ لَـوْذَعِي[1] [2]

والنسب والشرف الأصيل من المعاني الجلية في المديح؛ إذ تغنى بها الشعراء وأولوها اهتماما بالغا في بلاط الملك الناصر، ومردّ ذلك اعتزاز الملك الناصر بآبائه الأيوبيين، فهو يسير على خطاهم، ويقتفي أثرهم ومآثرهم، فمدحهم مدح له، والإشادة بفضائلهم إنما هو تنويه بفضله، الذي ورث عنهم الكرم، والشجاعة، والرياسة، وهنا خاصية مهمة عند النقاد فيما يتعلق بشعر المديح، وأكثر ابن رشيق من الحديث عنها، بذكر صفات الآباء، فينبغي على المادح أن يذكر أن الممدوح يتحلى بسمات تمتد وتتأصل فيمن قبله، وأنه ورثها عنهم، وذلك حتى يكتمل المجد الأصيل، وتكتمل دائرة الصورة المثالية. يقول ابن رشيق:" إنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح بشرف آبائه، والآباء تزداد شرفا به؛ فجعل لكل واحد منهم حظاً في الفخر، وفي المدح نصيباً"[3]، يقول ابن سعيد المغربي:

مـن آلِ يعقـوبَ الـذينَ هـمُ هـمُ   ورثـوا النَّـدى والبـأْسَ أكبـرَ أكبـرَ

أهـل الرياسـةِ والسياسـةِ والعُـلا   بسيوفهِم حلّـوا الـذّرى منحـوا الـذُّرا

كـادوا يُقيلـون العُـداةَ مـن الـرّدى   لوْ لـمْ يمُـدّوا كالحِجـابِ العَثْيَـرا[4][5]

ويقول البهاء زهير:

مـن معْشـرٍ فـاقوا الملـوكَ سـيادةً   وسـعادةً وتطَـوُّلاً وتفضُّـلا

وكـأنَّ مـتنَ الأرضِ يـومَ ركـوبهم   يكْسـونه بُـردًا عليـهِ مُهلْهَـلا[6][7]

---

(1) اللَّوذعيُّ: الخفيف الذّكي الظريف الذِّهن، أو الحديد الفؤاد والنفس، أو اللَّسِن الفصيح. **المعجم الوسيط:** مادة لذع.

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص122.

(3) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص145.

(4) العثير: الغبار. **المعجم الوسيط:** مادة عثر.

(5) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص156.

(6) الهلهال والمهلهل: الثَّوْبُ الضَّعيفُ النَّسْج. **المعجم الوسيط:** مادة هلهل.

(7) البهاء زهير: **الديوان**، ص177.

ويرى البهاء زهير أن الأيوبيين سنّوا سنة حسنةً للناس في الكرم والجود والفصاحة والثقافة، وهدوا الناس إلى طرق الخير والهدى، يقول:

كذاك بنو أيوب ما زالَ منهمُ ... عظيمٌ مُرجّى أو كريمٌ مُمَدّحُ
أناسٌ همُ سنُّوا الطريق إلى العُلا ... وهم أعْربوا عنها وقالوا وأفْصَحوا
لم يتَّبِعوا في الناس من جاء بعدَهم ... لقد بيَّنوا للسالكين وأوْضحوا[1]

وزاد مجد الملك الناصر رفعةً وعلواً، حتى افتخر به جده الملك الظاهر، وهذا ما يتجلى في قول شرف الدين الأنصاري:

ويُعلي جدودَ بَنِيها نَداهُ ... ويعْلو بهِ جدُّهُ الظاهرُ[2]

بل كان حظه من المجد والسؤدد أوفر من سابقيه، وفي ذلك يقول سليمان بن بليمان:

وسُدْتَ من مجدِكَ فوقَ الذي ... بناهُ آباؤُكَ أو أثَّلوا[3][4]

ويرى شرف الدين الأنصاري توحُّداً بين صفات الناصر وصفات آبائه العزيز والظاهر والناصر صلاح الدين، وهذا نتاج وامتداد طبيعي للأصل الشريف والنسب الطيب، يتجلى ذلك في قوله:

بيتٌ تشابهَ أصلهُ وفروعُهُ ... في عدْلهِ وجِلادِهِ وسَماحِهِ
فصلاحُهُ كعزيزِهِ وعزيزُهُ ... كغياثِهِ وغياثُهُ كصلاحِهِ[5]

وقول شرف الدين الأنصاري:

من أسرةٍ غرستْ منهم أوائلُهم ... في خيرِ مغرسِ مُلْكٍ خيرَ أغراسِ[6]

---

(1) المصدر السابق، ص45.

(2) الأنصاري: **الديوان**، ص222.

(3) أثل يأثل أثولا: تأصل وقدم، ويقال شرف أثيل أي أصيل، وأثَّل المال: جمعه وادَّخره ليستثمره. **المعجم الوسيط**: مادة مادة أثل.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص326.

(5) الأنصاري: **الديوان**، ص119-120.

(6) الأنصاري: **الديوان**، ص255.

ومزج الشعراء بين معاني المجد والرفعة، والصفات الدينية ومكارم الأخلاق، وعزّة النفس والشجاعة، كما يبدو في قول البهاء زهير يمدح الناصر:

وأشرفُ ما تبنيهِ مجدٌ وسؤددٌ ... وأزينُ ما تقنيهِ سيفٌ ومصحفُ[1]

ويقول بدر الدين بن الفويرة في ذات المعنى:

يشيدُ بنيانَ المعالي لمجدِهِ ... ويرفلُ في ثوبِ المكارمِ والفخرِ[2]

وكان الملك الناصر يحسن إدارة الدولة، ويكشف ما اعتراها من الأمور الغامضة المُلبسة، وينصح الرعية، ويجمع شملها تحت طاعته، ولهذا أحبته، وأخلصت له الولاء، ويتجلى ذلك في قول شرف الدين الأنصاري:

فأنتَ صلاحُ الدينِ وابنُ صلاحه ... فلا مَلْكُ أولى منكَ بالنهْيِ والأمرِ

وما أحدٌ لليوسفين[3]بثالثٍ ... سِواكَ وللبكرينِ والشمس والبدر

ومشكلةٍ كشفتَ بالرأيِ لَبْسَها ... فغادرتها في مثلِ منصَدَعِ الفجرِ

نصحتَ لخلقِ الله سرًّا وجهْرةً ... فأصْفوا لك الإخلاصَ في السِّرِّ والجهرِ[4]

وأشاد الشعراء بمملكةِ الناصر وعظمتها، وهذه الصورة استكمال لحنكته الإدارية، وشجاعته، وكرمه، حتى تكتمل الصورة المثالية لهذا القائد، فهذه الدولة عزيزة بنصره، صالحة بصلاحه وعزيمته التي فاقت عزم الجبابرة من الملوك، إذ ارتبطت هذه الصفات بصفات دولة جده الناصر صلاح الدين، يبدو ذلك في قول سيف الدين المشد:

ويا حُسْنَها من دولة ناصِريَّة ... صلاحيَّة طبعاً بغيرِ تطبُّعِ

ورعْياً لها من عزْمةٍ يوسُفِيَّةٍ ... تقاعس عنها عزمُ كِسرى وتُبَّعِ[5]

---

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص132.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.

(3) هما النبي يوسف عليه السلام، والملك الناصر صلاح الدين الأيوبي.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص155.

(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص121-122.

وكان من الطبيعي أن تنعكس صفات الملك الناصر على جيشه، وعادةً ما تأتي صورة الجيش ثانوية في قصائد المديح، فهي استكمال لصورة القائد الهمام، لأن القائد الشجاع صاحب العزمات لابد أن يكون له جيش قوي يحقق به آماله وانتصاراته. وفي ذلك يقول سيف الدين المشد:

ملكٌ تتْلو كتائبُهُ جاءَ نصرُ اللهِ واقتربا[1]

ومدح سيف الدين المشد كتَّابَ إنشاء الملك الناصر ونوه بمكانتهم العظيمة، ومناقبهم الحسنة، من الفخر والعزة والوقار والكرم، فهم أمناء على أسرار الدولة حافظين عهودها، كما يبدو في قوله:

وكاتبينَ كرامٍ تَعاظموا أقدارا
توارثوا الفخرَ والجودَ شيمةً ووقارا
يعيشُ فيهم أميراً من سامهُمْ إيثارا
لو لمْ يكونوا صُدوراً ما أودِعوا الأسْرارا[2]

وكشف هذا المدح لهؤلاء الكتّاب عن قدرة الناصر على انتقاء موظفين أكفاء في دولته.

وأما الصفات المادية، فقد قلّل النقاد من شأنها، وبعضهم أنكرها، لتركيزهم على الفضائل المعنوية عند الممدوح[3]، ما جعل الشعراء يقللون منها في مدائحهم، وتعرض شعراء الناصر لهذه الصفات، على الرغم من قلتها، واقتصر مديحهم على جمال الناصر، فشبهوه بالقمر والهلال، كما يبدو في قول الشرف الأنصاري:

فيا يوسُفَ الحسْنِ الذي مذ علِقْتُه بسَيّارةٍ من فكْرتي قلتُ يا بُشْرى[4]

وقول بدر الدين الذهبي:

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص131.
(2) المصدر السابق: ص433.
(3) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص 135.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص196.

طلعْــتَ بــدراً بــداجي ليلِهــا وبــدَتْ   كواكــبُ الــذَّهبِ القــاني بهــا بَــدَدا[1]

وصوَّره المشد هلالاً بجامع الجمال والحسن وعلوِّ المرتبة في المجلس، فقال:

ولقــد أقــولُ وقــد رأيتُــك جالِسًــا   مثْلَ الهِــلالِ يلــوح فــي جــوِّ السَّــما[2]

ومزج الشعراء في مدحهم الناصر بين مناقبه المعنوية، ومناقبه الحسية، فقد نعــت ابــن رشيق الجمع بين الفضائل النفسية والجسمية بالشيء الحسن[3]، من ذلك قول الشرف الأنصاري:

الأنصاري:

أتــمُّ بنــي أيــوبَ حِلْمــاً وقــدرةً   وأصْبَحُهمْ وجْهًــا وأفصــحُهُمْ منطِقًــا[4]

ويتفوق الملك الناصر بالجمال والكرم والشجاعة، يقول سيف الدين المشد:

فــاقَ الأنــامَ جمــالاً والغمــامَ نــدى   والأُسْدَ بأسـا وإن كانــت ذوي خطــرِ[5]

ومن ظريف مدائح الشعراء للملك الناصر أنهم مزجوا بين معــاني الخمــرة، ومعــاني المدح، فوظّفوا بعض ألفاظ الخمرة في مدائحهم، وكان رائدهم في ذلك نور الدين الإسعردي، إذ كان الخمر والمجون والهزل هو الغالب على شعره، ما جعله يفرد كتاباً لهذا الغــرض، أســماه "سلافة الزَّرجون في الخلاعة والمجون"، ضمَّ فيه الكثير من أشعاره، وأشعار غيره[6]. فهو يتأثر يتأثر عند سماع اسم الناصر، وينتشي انتشاء معاقر الخمرة ومدمنها، بل يتمايل طربــا فضــائل شكره فضائل الناصر عليه، كما يبدو في قوله:

ترانــي إذا كــرَّرتُ ذكــراهُ أنثَنــي   وأُثنــي عــن اللُّــوّام فيــه عِنانيــا
وأهتــزُّ مــن سُــكري بشُــكري لمجــده   كــأني بــهِ ســاقي المُــدامِ ســقانِيا
وأحــبِسُ كأســي عُنْيــةً بثنائــهِ   فيســترجعُ الســاقي كــؤوسَ مُــداميا

---

(1) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص142.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص133.
(3) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص135.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص369.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص102.
(6) انظر: الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص271. **عيون التواريخ**، ج20، ص189. ابن كثير: **البداية والنهايــة**، ج13، ص212. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص189.

وأطْـــري وأُغْـــري بالثَّنـــا كـــلَّ ســـامعٍ   وأطـــربُ حتـــى لا أقـــدَّرُ صـــاحِيا[1]

ويرسل النور الإسعردي قصيدة مكتوبة في مدح الملك الناصر، ويستميحه العذرَ إن رأى اختلالا في سطورها بسبب سكره في جميل أوصافه، فيقول:

فعُـــذْراً إذا مالـــت ســـطوري تطرُّبـــا   فإنَّ بها مـــن خمْـــرِ أوصـــافكمْ سُـــكْرُ[2]

ولم يطِبْ لسيف الدين المشد من لذائذ الدنيا إلا شرب الخمرة، ومدح الملـــك الناصـــر، يقول:

مـــا لـــذَّ لـــي عـــيشٌ سِـــوى شُـــربِها   ومـــدحِيَ الســـلطانَ ربَّ الســـماحِ[3]

ويقول البهاء زهير في ذات المعنى:

كـــأنَّ المُـــدامَ الصِّـــرْفَ مـــال بعطفـــه   كمـــا مـــالَ فـــي الأُرْجوحـــةِ المتـــرجِّحُ
كـــأني وقـــد أنشَـــدْتُهُ مـــدحَ يوســـفٍ   فأَطْربـــهُ حتـــى انثنـــى يتـــرنَّحُ[4]

ومن معاني المديح الدّعاء للملك الناصر، فقد جاء به الشعراء – في معظمه –في خواتم قصائدهم، وهذا ما دعا إليه النقاد فيما يتعلق بمدح الملوك، يقول ابن رشيق:" وقد كره الحـــذّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنه من عمل أهل الضـــعف، إلا للملـــوك؛ فـــإنهم يشـــتهون ذلك"[5]، ومن ذلك الدعوة بالنصر والتمكين، والرفعة والمجد والسؤدد، وطول العمر للناصر، كما كما يتجلى في قول الشرف الأنصاري:

فـــدُمْتَ طويـــل البـــاعِ منشـــرحَ النَّـــدى   بسيطَ رحابِ المجدِ والشُّـــكرِ والعمـــرِ[6]

وقوله:

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص203، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة45.
(2) المصدر السابق، ص203. نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة29.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص112.
(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص149. زهير: **الديوان**، ص42.
(5) ابن رشيق: **العمدة**، ج1، 241.
(6) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص155.

وبقيْـــتَ ملْكـــاً للخلائـــق واحـــداً ترعـــاكَ عـــينُ الواحـــدِ الخـــلاّقِ[1]

ويدعو عبد الله بن محاسن بتحقيق آمال الملك الناصر، وبجعل ملوك الدنيا خـدما لـه، وهذا ما يبدو في قوله:

يـــا ملِكـــاً فـــرْعَ مَلَـــكْ أعطـــاكَ ربِّـــي أمَلَـــكْ
وصـــيَّرَ اللهُ ملـــوكَ الأرضِ جمْعـــاً خَوَلَـــكْ[2] [3]

وهكذا دار شعر المديح في بلاط الملك الناصر حول الجانب الديني بما انطوى تحتـه مـن أخلاق دينية للممدوح، والجانب السياسي وتمثل في أحقية الناصر بتولي زمام الملك من كل ملـوك الأرض، فضلا عن نقل صورته المشرقة إلى رعيته وتثبيت دعائم ملكه، وأما الجانب الأخير وهـو الجانب الاجتماعي للشعراء، فكان الغاية من قصائد مدحهم للناصر هو التكسُّب والاسـتجداء، مـن أجل الفوز بعطائه ونيل هباته ورواتبه، " والجدير بالذكر أن المديح قيـل أولا لمجـرد الإعجـاب الصادق، ثم قيل للشكر ثانيا، وأخيرا قيل للتزلف والتكسب. فأصبح مهنة تدر الكثير من المـال"[4]. وهذا واضح وجلي في قصيدة المديح ابتداء من العصر الجاهلي إلى هذا العصر.

والتكسُّبُ هو السمة الغالبة على شعر المديح، وكان كثير من شعراء الدولة الأيوبية يتنقلون بين الممالك، "يبيعون الشعر في أسواق المديح، فإذا كان له رواج زادوا منه وإن كسد قللوا منه"[5]، منه"[5]، يقول البهاء زهير:

عرضتُ علـى خيـر الملـوكِ بضـاعتي وألْفيـتُ سـوقا صـفقتي فيـهِ تـربَحُ[6]

وجاء التكسب في مدح الملك الناصر على صورتين: تكسب غير مباشر، وتكسب مباشـر. أما غير المباشر، فورّى الشعراء في طلبهم بصورة خفية في ثنايا القصيدة، ولم يصرحوا به- ومردُّ ذلك إلى ما يتمتع به الشاعر نفسه من صفات العفة والكرامة، وأنفتـه مـن ذلّ السـؤال والطلـب

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص366.
(2) الخَولُ: العبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم. **المعجم الوسيط**: مادة خول.
(3) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص175.
(4) محمد، سراج الدين: **المديح في الشعر العربي**، ط1، بيروت، دار الراتب الجامعية، ب. ت، ص6.
(5) المرجع السابق: ص39.
(6) البهاء زهير: **الديوان**، ص46. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 150.

الصريح- وبخاصة في خاتمتها؛ إذ هي أقرب لذهن الممدوح لكونها آخر ما يبقى في الأسماع، وغالبا ما كان الشعراء يختتمون قصائدهم بالحديث عن الجود والكرم الوافر لدى الملك الناصر، كما يبدو في قول عون الدين بن العجمي في خاتمة قصيدة مدح فيها الناصر:

خيرُ الملوكِ صلاحُ الدينِ ليسَ له   في الجود ثانٍ ولا عن جودهِ ثاني[1]

ويختتم هاشم الأسدي قصيدته مستخدما أسلوب التأكيد في تحقيق كل ما يصبو إليه، ويؤمله من خلال مدائحه للناصر، يقوله:

فلأظْفرنَّ بكُلِّ ما أمَّلْتهُ   بِمَدائحي للناصرِ السُّلطانِ[2]

ويوشك كمال الدين بن الأعمى[3] أن يموت من شدة حبه الملك الناصر، إلا أن الكرم والعطاء المنسوب إلى يديه تنفخ الروح فيها من جديد، ويتجلى هذا في خاتمة قصيدته:

وإذا ما قضيْتُ سُكْراً من الوجْـ   ـدِ فلا تحزنا ولا تدفناني

فأيادي ذا الناصرِ المَلْكِ تُحْيِيـ   ـني كإحْياءِ النَّدى وهو فاني[4]

في مقابل ذلك وُجد من الشعراء من صرّح بتكسُّبه المباشر في مدحه الملك الناصر، في مختلف مواضع القصيدة، منهم من بدأ قصيدته بالطلب المباشر من غير تمهيد بالغزل أو الوصف، كما في قول ابن سعيد المغربي في مطلع قصيدته:

جُدْ لي بما أَلْقى الخيال من الكَرى   لابُدَّ للطَّيْفِ المُلِمِّ من الكَرا[5]

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص453.

(2) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج9، ص114.

(3) علي بن محمد بن المبارك بن سالم بن أبي الغنائم الدمشقي(610-692هـ)، سمع الحديث واشتغل مقرئا بالتربة الأشرفية، وكان فاضلا بارعا، له قصائد يمتدح بها رسول الله- صلى الله عليه وسلم- سماها الشفعية، وهو صاحب المقامة البحرية المشهورة في الفقراء المجردين، وكان شيخا كبيرا من بقايا الدولة الناصرية. انظر الذهبي: **العبر في خبر من عبر**، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3، ص379. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص140. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج22، ص129. ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج13، ص333. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق3، ص788. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص192. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص736.

(4) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 141.

(5) ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص156. انظر المقري: **نفح الطيب**، ج2، ص262.

ويصرح البهاء زهير بطلبه في مدحه الملك الناصر، راغبا في إعادة الاعتبار والمكانة الرفيعة التي كان ينعم بها عند الملك الصالح أيوب قبل موته، كما يبدو في قوله:

أُجِلُّكَ أن أُنْهي إليكَ شكِيّتي ... فها أنا فيها مقدِمٌ متوقِّفُ
ولي منْكَ جودٌ رامَ غيرُكَ نقْصَهُ ... وحاشا لجودٍ منكَ بالنَّقصِ يوصَفُ
لأني أدْري أنّ لي منكَ جانِباً ... سيُسْعِدُني طولَ الزمانِ ويُسعِفُ
تُبشِّرني الآمالُ منكَ بنظرةٍ ... تزفُّ ليَ الدنيا بها وتزخرفُ
وليسَ بعيدًا عن أياديكَ أنها ... تجدْهُ عزاءً كنتَ فيه وتضعف
إذا كنتَ لي فالمال أهونُ ذاهبٍ ... يعوِّضه الإحسانُ منكَ ويَخْلفُ(1)

ويستجدي نور الدين الإسعردي نوال الملك الناصر، ويطلب فرسًا منه، مستخدما أسلوب الحوار الجميل المائل إلى روح الظرافة والخفة، فيقول:

لقيتُ صديقًا من أكابرِ صاحبي الرَّ ... سولِ فأبدي لي بتيهٍ باسمِ
وقالَ عجبتُ كيف ألْقاكَ راجلاً ... أبِنْ لِيَ ما عانيْتُهُ غير كاتمِ
فقلتُ نداهُ لم يفُتني وإنما ... أياديه أعْيَتْني ببَذْلِ الدراهمِ
فيا خيرَ منّاحٍ لواصلِ جوده ... ويا خيرَ منّاعٍ بقطْعِ الصوارمِ
بحقِّكَ حقِّقْ ظنَّ عبدِكَ عندَهمْ ... ليُعْلَمَ أنّي عندهمْ غيرُ نادِمِ(2)

فهو يطلب تحقيق ما يؤمله، ويصبو إليه من نعمة عند الناصر حتى لا يندم على ملازمته له وخدمته.

(1) البهاء، زهير: **الديوان**، ص131-132.
(2) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص212-213، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة40.

ويطلب هاشم الأسدي[1]من الملك الناصر تحقيق آماله في أعطياتـــه، ويصـــرح بـــذلك علانية، فشعره غالي الثمن، تناقل الناس الحديث عنه، فكان من الطبيعي أن يكون العطاء مناسباً لهذا الشعر ومكانته، كما يبدو في قوله:

حاشـــــاكَ ترجـــــعَ آمـــــالي مُخيَّبـــــةً   وسِعْرُ شِعري قـد سـارتْ بـه السِّـيرُ

وأنـــتَ أنـــدى الـــورى كفّـــاً وأعظمُهـــمْ   قدراً وبـالعُرْفِ والمعـروف مُشـتهرُ[2]

وعلى الرغم من اختلاف منهج التكسب عند الشعراء، فإن السامع لأشـعارهم المدحيـة يعلم أنهما وجهان لهدف واحد، ومقصودهم في ذلك التودد والتقرب إلى الملك الناصر، والظفـر بمجالسته ومنادمته، ونيل هباته ومِنحه، وسط أجواء من التنافس والغبطة والحسد فيما بينهم.

2) الغزل

الغزل والنسيب لفظان لمعنى واحد؛ فالغزل عند قدامـة بـن جعفـر "هـو التصـابي والاستهتار بمودّات النساء، ويقال في الإنسان: إنه غزل إذا كان متشكلاً بالصورة التـي تليـق بالنساء، وتجانس موافقاتهن"[3]، وهو عند ابن رشيق " إلفُ النساء والتخلُّق بما يوافقهن"[4]. أمـا النسيب، فقد عرَّفه قدامة " بذكر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى بـه معهـن"[5]. ويرى أحمد بدوي أن ثمة علاقة بين اللفظين، ويقول: إن " الغزل في أصله حديث إلى النسـاء، والنسيب أن ينسب الشاعر إلى نفسه هوى مبرحا وحبا عنيفا، وأن يتحدث عما ينسب إلى المرأة من ديار وآثار"[6].

---

(1) " هاشم بن محمد بن هاشم بن أحمد بن عبد الواحد بن هاشم، أبو طاهر الأسدي، من أهل حلب، ومن بيت الخطابـة والعلم والرواية، كان حافظاً للقرآن العزيز، وله عناية بقول الشعر، ويعمل منه المقطعات، فيه فضل حسن، وأدب جيـد، إلا أنه مبخوس الحظ من أبناء زمانه". ابن الشعار الموصل: **قلائد الجمان**، ج9، ص112.

(2) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج9، ص114.

(3) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص134.

(4) **ابن رشيق: العمدة**، ج2، ص117.

(5) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص134.

(6) بدوي، أحمد أحمد: **أسس النقد الأدبي عند العرب**، القاهرة، دار نهضة مصر، 1994م، ص139.

ومهما يكن الأمر فاللفظان يشكلان لوناً من ألوان الشعر العربي بغرضه المتميز، وصورته الواضحة، وحديثه عن الحب وذكر الحبيبة، وديارها التي رحلت عنها، والأثر الذي تركته في نفس الشاعر، وما يقاسيه من لوعة الهوى والفراق[1].

ارتبط شعر الغزل بالإنسان منذ بدء الخليقة، كونه يحاكي مشاعره وعواطفه غير المتناهية، ويعبر عن فطرة بشرية، ونظرة إنسانية، أودعها الله سبحانه وتعالى فيه، فهو من الأغراض الشعرية القديمة الأصيلة في الشعر العربي، "ويُعنى التغزل بذكر الحبيب، ووصف محاسنه والتعبير عن عاطفة الشوق والبين، ووصف حالة المحب والتودد والتحبب للحبيب"[2].

يشغل الغزل عند شعراء الملك الناصر حيزا كبيرا من أغراضهم الشعرية، فقد اهتموا به اهتماما حفياً، علماً أنهم لم يجعلوه غرضاً مستقلاً بحد ذاته في قصائدهم، بل كان أكثرهم يدمجونه ضمن أغراضهم المتعددة في القصيدة، على نحو استهلالهم قصائد المدح، أو شعر المناسبات، وغيرها من الأغراض[3]، حتى طالت هذه المقدمات فشملت جُلّ القصيدة، أو المقطوعة.

إن استهلال قصائد المدح للملك الناصر بالغزل ضرورة ملحة، ومطلب لا غنى عنه في حضرته، فهو يحب أن تُبدأ القصائد بالغزل، إذ كان يستهويه هذا التصدير، وتطيب له نفسه أكثر من غيره من الأغراض الشعرية الأخرى، ولهذا نهج مادحوه هذا النهج لتشنيف أسماعه، وشدَّ انتباهه، وقد أشار أبو عبد الله الكندي إلى هذا الشغف إذ قال:

أيا ملكاً ترنِّحهُ القوافي ويُطربُهُ من الشعرِ النسيبُ[4]

وعدَّ البهاء زهير هذا الاستهلال بالغزل قبل المدح بمثابة العبادة بالنوافل، التي يتلوها التعبد بالفرائض، كما يبدو في قوله:

---

(1) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي** ص139.
(2) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص111.
(3) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص117.
(4) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص270.

مهَّـــدْتُ بـــالغزلِ الرقيـــق لمدحـــه   وأردتُ قبـــلَ الفـــرضِ أن أتـــنفَّلا[1]

ووقف بدر الدين بن الفويرة على أطلال المحبوبة، يبكي على رحيلها وقد نفد صــبره، وسار قلبه أسيرا مكبلا مع ظعائن المحبوبة، يقول:

أذاع لســانُ الــدمعِ يــومَ النَّــوى سِــرّي   وحلَّت أكُفُّ البينِ فيــهِ عُــرى صــبري

وطلَّــتْ علــى الأطْــلالِ أســيافُ نَــأْيِهمْ   دُمى واغتدى قلبــي أســيرا مــع السَّــفْرِ

وعُطِّل نادي الأنْــسِ مــن حَلْــيِ حُســنهمْ   فحلَّيتــهُ مــن أدمُــعِ العــينِ بالــدُّرِّ[2]

واستهلّ ابن حواري التنوخي قصيدته بتذكر الأيام الجميلة التي قضاها مــع المحبوبــة، يتخللها استعطاف وأمل برجوعها والتئام الشمل، ويتجلى هذا في قوله:

مضـــتْ لنـــا بـــالحِمى والبـــان أوقـــاتُ   صـــفتْ لنـــا وصـــفتْ فيهـــا المسَـــرّاتُ

أيّـــام نختـــالُ فـــي ثـــوْبِ الصِّـــبا مرَحـــاً   وللصِّـــبا وزمـــــانِ اللَّهْـــوِ لــــذّاتُ

أحبابَنـــا هـــلْ لأوْقـــاتٍ لنـــا ســـلفَتْ   بقُـــرْبكمْ والتئـــام الشَّـــمْلِ عـــوداتُ

وهـــلْ تعـــودُ كمـــا كنّـــا وتجمعُنـــا   دارٌ وتُقضـــى لنـــا مـــنكُم لُبانـــاتُ[3]

بِنْـــتُم فـــلا البـــانُ ميّـــاسٌ يُرنِّحـــهُ   مـــرُّ النَّســيمِ ولا الروضـــاتُ روضـــاتُ

كـــمْ قـــدْ قطعنـــا لـــويلاتٍ بقُـــربكمُ   خلـــتْ فللّـــهِ هاتيـــكَ اللُّـــويْلاتُ[4]

ومحور شعر الغزل عند شعراء البلاط يدور حول الأوصاف الحسية بمفهومها الســائد، فقد نهجوا النهج التقليدي في غزلهم، وركزوا على الصفات المادية عند المحبوبة، فهــي شــمس وقمر وبدر وغزال في جمالها وخفتها، وفي إشراقها وطلعتها البهية، وشعرها أسود سواد الليل،

(1) البهاء، زهير: **الديوان**، ص177.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.
(3) اللُّبانة: الحاجة من غير فاقة ولكن من نَهْمة، يقال: ما قضيت منه لُبانتي: أي نَهْمتي. **المعجم الوسيط**: مادة لبن.
(4) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص411

والخصر أهيف، والقد مياس مثل الغصن الطريّ، والخدود كالورد، والعيون كـــالنرجس، ومـــن ذلك قول سليمان بن بليمان في مطلع قصيدته التي مدح بها الملك الناصر:

يـــا قمـــراً قلْبـــي لـــهُ منـــزِلُ ... قـــدْ رقَّ لـــي فـــي حبِّـــكَ العَـــذَلُ
يـــا طلْعـــةَ البـــدْرِ المنيـــرِ الـــذي ... فـــي كـــلِّ يـــومٍ حُســـنُهُ يَكْمُـــلُ[1]

ويحب البهاء زهير محبوبته لأن قوامها يشبه الغصن، هيفاء الخصر، خفيفـة الحركـة، كاحل العين مثل الغزال في الصحراء، والشمس في كبد السماء، كما يبدو في قوله:

وعلِقْتـــهُ كالغصـــنِ أســـمرَ أهيفـــا ... وعشـــقتُهُ كـــالظَّبْيِ أحـــورَ أكحـــلا
فَضَـــح الغزالـــةَ والغـــزالَ فتلـــك فـــي ... وسطِ السماءِ وذاك فـــي وســـط الفـــلا[2]

وتفوّق قدُّ المحبوبة في تمايله على الغصن النضر عند سيف الـدين المشـد، وتشـبهت المحبوبة بالشمس في ضيائها، والبدر في الليل الحالك، يقول:

تثنَّـــتْ فـــلا والله مـــا الغُصـــنُ النَّضْـــرُ ... بأحسنِ مـــا ضـــمَّتْ غلائلُهـــا الخُضْـــرُ
فتاةٌ هـــيَ الشـــمسُ المنيـــرة فـــي الـــدُّجى ... وفي ظُلْمة الليـــلِ البهـــيمِ هـــيَ البـــدْرُ[3]

وفاقت المحبوبة البدر جمالا، والغصون تمايلاً عند صفي الدين قنابر، حتى غارت منها الغصون، وخجل من منافستها الشمس والقمر، يقول:

فالبـــدرُ يطْلـــعُ مـــن خـــلالِ جيوبـــه ... والغصـــنُ مـــن حركاتـــهِ يـــتعلَّمُ[4]

وفي ذات المعنى يقول كمال الدين بن الأعمى:

وبروحي ظبْيٌ تغارُ غصونُ الـــ ... ـــبانِ منـــهُ ويخجـــلُ النيِّـــرانِ[5]

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص324.
(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص176.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص352.
(4) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص388.
(5) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص141.

واستلهم الشعراء بعض معاني الحرب وأضفوها على المحبوبة؛ وهذا أمر جليّ في تلك العصور التي كثرت فيها الحروب والفتن والصراعات، وفيما يتعلق بحسن قوامها وتأثير عينيها الفتاكتين يقول كمال الدين بن الأعمى:

ذو قـوامٍ يغنيـهِ عـن حملـه الرُّمـ ... حَ وجفْـنٍ وسْـنانُه كالسِّـنانِ[1]

واحتار الرمح أمام قدّ المحبوبة وخصرها، ووقف هاروت مبهورا أمام سحر عينيها، كما يبدو في قول محمد بن ثروان[2]:

قـدُّكَ قـدْ حيَّـرَ الرمـاحَ وقـدْ ... أعجـزَ هـاروتَ طرْفُـكَ السـاحرْ[3]

ويجمع المشد أوصاف المحبوبة في بيت، إذ قال:

وأغْيـدَ مثـلُ الظَّبْـيِ والشّـمسِ والقَمـرْ ... وكالرُّمحِ والغُصْـنِ المـرنَّحِ إذ خطـرْ[4]

وخدود المحبوبة كالورد نعومة واحمراراً، ألقت الشاعر في بحر الحب والهوى، وهذا ما عبَّر عنه هاشم بن محمد الأسدي:

مُـذْ عاينـتْ عينـايَ وردةَ خـدِّهِ الـ ... قـاني ففـي بحـر الهـوى أردانـي[5]

ويقول سليمان بن بليمان في عيني المحبوبة اللتين فاقتا عيني الغـزال، فـي سـحرهما وقتلهما:

ومـن لـه طـرْفٌ إذا مـا رنـا ... يغـارُ منـه الظبيـةُ الغـزلُ

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص141.

(2) "محمد بن ثروان بن سلطان بن حسان الهيتي المعروف بهياس، ويكنى أبا علي، ولد بالموصل سنة 578هـ، كانت صنعته في ابتداء أمره الحياكة، ثم مال إلى الشعر وأحبه من صغره، وصحب أدباء وقته من أهل الموصل، وامتدح بها جماعة، نزل حلب، ومدح الملك العزيز فأجازه وجعله أحد شعراء دولته، ولما تولى الملك الناصر لم يغير عليه شيئا، ومدحه، وأنعم عليه". ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص118.

(3) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص121.

(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص124.

(5) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج9، ص113.

ولحظُـــــكَ السّـــــاحرُ أم صـــــارمٌ مهنَّـــــدٌ فـــي جَفْنـــــهِ يُقْبَـــــلُ[1]

وأصيب صفي الدين قنابر برماح خصر المحبوبة التي تطعن أفئـدة النـاس، وسـيوف عينيها التي تجرح وتداوي، كما يبدو في قوله:

وعلـــى قنـــاةِ قوامـــهِ مـــن لحظِـــهِ للطعْـــنِ فـــي مهـــجِ البريَّـــة لهـــذمُ[2]

وأنـــا الجـــريحُ بمُشْـــرفيِّ جفونِـــهِ ولِـــيَ الرِّعايـــة وهـــو فـــيَّ مُحكَّـــمُ[3]

ويعكس سيف الدين المشد أثر رائحة المحبوبة الجميلة في نفسه، فيقول:

مِسْـــكِيَّةُ الأنْفـــاسِ تُمْلـــي الصَّـــبا عنهـــا حـــديثاً قـــطُّ لـــم يُمْلـــلِ

جُننْـــتُ لمّـــا أن ســـرى عَرْفُهـــا ومـــا نـــرى مـــن جُـــنَّ بالمَنْـــدلِ[4][5]

ويصور المشد وجه المحبوبة جنة ثمارها دانية، فيقول:

وبمُهْجتـــي مَـــن وجنتـــاهُ جنَّـــةٌ وقطـــوفُ صُـــدْغيْهِ لـــديْها دانيـــةْ[6]

ويعرِّج الشاعر على رقّة المحبوبة، ونعومتها مصورا رضابها بالعسل، كما فـي قـول صفي الدين قنابر:

مـــنْ لـــي بمعْســـولِ المراشـــف كُلَّمـــا مـــرَّ النَّســـيمُ بخـــدِّه يتـــألَّمُ[7]

ويعقد المشد مقارنة بين شدة سواد شعر المحبوبة الطويل، وإشراق وجهها، على سـبيل المقابلة بين النور والظلام، فيقول:

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص324.

(2) اللَّهْذم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب. يقال: سيف لهذم: حادّ. وكذلك السنان والنّاب. **المعجم الوسـيط:** مادة لهذمَ.

(3) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص388.

(4) المَنْدل: العود الطيِّب الرائحة. **المعجم الوسيط:** مادة ندَل.

(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص109.

(6) المصدر السابق: ص109.

(7) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص388.

وغـــــادةٍ كالبــــدْرِ لمّـــا ســــرتْ فـــي جُـــنْحِ ليــلِ الشَّــعرِ المُسْــبِلِ[1]

ويأخذ الليل سواده من شَعر محبوبته، ويقتبس النهار ضوءه من نضارة وجهها، وهــذا يتجلى في قول المشد:

بـــدرٌ ســـوادُ اللّيْــلِ مـــن شَـــعْرِهِ ومـــن مُحيّـــاهُ ضِيــاء الصَّـــباحْ[2]

ومن مظاهر الجمال التي تغنى بها الشعراء في المحبوبة حبة الخــال الموجــودة علــى خدِّها، وقد صوروا الخدود ورداً تارة، وحديقة غناء مليئة بزهر الرمان، تنبعث رائحة المســك في جنباتها، كما يبدو في قول سيف الدين المشد:

كأنّمـــا الخـــالُ علـــى خـــدِّهِ المُـــورّدِ إذا فــــتَّحَ والمِسْـــــكُ فــــاحْ[3]

ويُعجب المشدَّ منظرُ حبة الخال في الوجنتين فيقول:

يُعْجِبُنــــي خـــالُ وجْنتيْــــهِ والمسْــكُ فـــي الجُلَّنـــار[4] أعجـــبْ[5]

ومن الصور اللطيفة في حسن جمال الخد وحبة الخال عليه، ما يتجلّى في شــعر عــون الدين بن العجمي، إذ صور الخد بالنار المشتعلة، وصور قلبه بالفراش الذي يقع على هذه النـــار فيحترق، ويبدو وكأنه حبة خالٍ في الوجه، يقول:

لهيـــبُ الخـــدِّ حـــينَ بـــدا لعيْنـــي هـــوى قلبـــي عليـــهِ كـــالفَراشِ
فأحرقَـــهُ فصــــارَ عليــــهِ خـــالاً وهـــا أثـــر الـــدُّخانِ علـــى الحواشـــي[6]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص109.
(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص257.
(3) المصدر السابق: ص257.
(4) الجُلَّنار: زهر الرّمان. **المعجم الوسيط:** مادة جلّنار.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص107.
(6) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص241. الكتبي: **فوات الوفيــات**، ج1، ص452. ابن فضل الله العمري: **مســالك الأبصار**، ج16، ص121.

ويأتي الحديث عن الشكوى واللوعة، وانعدام الصبر عند الشاعر بسبب ابتعاد المحبوبة عنه، وتحولها عنه، مصوّرا نفسيتها وما انطوت عليه من قسوة القلب والبخل بالوصل والتسويف بالموعد، وهذه سمة المحبوبة عبر العصور، لأن المرأة تشعر أنها مطلوبة وليست طالبة، يقول ابن رشيق:" العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة والمخاطبة"[1].

ويلحّ الشعراء في غزلياتهم على تصوير حالتهم الجسدية والنفسية بعد رحيل المحبوبة عنهم، فهذا سيف الدين المشد قد ذوى جسده بعدها، وجرت مدامعه، وطال سهره، وهذا ما يتجلى في قوله:

يا راحلين عن الحِمى خلَّفْتُمُ   جسداً بكُمْ مُضنى ونفساً باليهْ

وسكنْتمْ غوْرَ الفؤاد فمدامعي   تجْري شرائعها وعيني داميهْ

وأنا الفِداءُ لحاضِرينَ بمُهجتي   أبداً وأشواقي إليْهمْ بادِيهْ

لي مُقْلةٌ إنسانُها في حُبِّهمْ   رفضَ الكَرى ودموعُها متواليهْ[2]

ويظلُ قلبه معلقاً بديار المحبوبة مشتاقاً إليها كلما هبت ريح الجنوب، فلهذه الريح مكانة عالية عند شعراء الغزل، لما لها من تعزيز الصبر في نفوسهم، وتلمُّسِ بارق أمل من جهة المحبوبة، كما يبدو في قوله:

شيِّقاً نحْوَ الدِّيارِ إذا   نسمتْ ريحُ الجنوبِ صبا[3]

ويشتكي جمال الدين بن مطروح مما يلاقيه من الوجد والحب، فقال:

اشتكى سَقْمي إلى أجفانه   ومتى يشْفى سَقامٌ بسقَم

---

(1) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص124.

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص104–105.

(3) المصدر السابق: ص130.

قمــــــرٌ نـــــــمَّ علـــــــى عشّــــــاقهِ   كـــلّ كيْـــدٍ منـــه لمّـــا قيـــلَ تـــمّْ[1]

ويصور الشاعر ما يقاسيه من ألم الوجد ولوعة الحب، بعدما اشتكى من صد المحبوبة وهجرانها، في سياق عقده مقارنة بين حالتين متناقضتين تماماً بين عينه وعين المحبوبة، وهذا ما يتجلى في قول سيف الدين المشد:

طرْفـــــــي لطرْفِـــــكَ عاشـــــقْ   لأنّنــــــــي لــــــــكَ عاشـــــــقْ
ومـــــــاءُ عينــــــي طَليــــــقٌ   لـــــــذالكَ النــــــومُ طــــــالقْ
شـــــــتّانَ مـــــــابين طَرْفــــــي   وطرْفِهـــــــا فـــــــي الحقــــــائقْ
هـــــــذا غريــــــقُ دُمــــــوعٍ   وذاك فـــــي النَّــــومِ غــــارقْ[2]

ويعاتب سليمان بن بليمان المحبوبة على بخلها بالوصل، وتسويفها باللّقاء، وعدم المبالاة فيه، كما في قوله:

إلــــى متــــى تمْطُلنـــي دائمـــاً   وحُجَّـــةُ الموسِــــرِ لا تُقْبَــــلُ
وكــــمْ ديــــونٍ لــــي تَقْتضـــي   وعــن غرامــي فيــكَ لا تسْــألُ[3]

والتسلي بالبكاء يجده الشعراء متنفسا لهم لبث همومهم أمام رحيل المحبوبة وابتعادها عنهم، والتشفي بطول البكاء وغزارته، لعله يجد له العذر أمام نفسه، كما في قول سيف الدين المشد:

فلمّـــا نــأى عنّـــي وطـــالَ بِعـــادُهُ   ولمْ يجْـرِ فـي سـمْعي لأوْبَتِـهِ خبـرْ
ولـــمْ يُسْـــلِني عنْـــهُ غِنـــاءٌ ولا غِنـــى   ولا صرِفَ راحٍ صَفْوُها يصْرفُ الكـدرْ
بكيْـــتُ عليـــهِ حجَّـــةً بعـــد حِجَّـــةٍ   "ومن يبْكِ حولاً كـاملاً فقـدْ اعتـذرْ "[4]

---

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص28.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص115.
(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325.
(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص124.

والدموع تسعف العاشق، وتخمد نار الجوى التي كادت تحرق جسده، كما في قول البهاء زهير:

لـــو لـــم تداركـــهُ الـــدُّموعُ لأشْـــعلا[1]		ورســـومُ جسْـــدٍ كـــاد يحْرِقُـــهُ الجـــوى

وتحوَّلت المحبوبة عن صاحبها، ما جعله يشكو ويتذمر من البعد، وكلما اقتـــرب منهـــا زادت بعداً وجفاءً وإعراضاً، في صورة تدل على عدم الاكتراث، وقسوة القلب، وهذا ما عبَّـــر عنه البهاء زهير في قوله:

ولقـــد خشـــيتُ بـــأن يكـــونَ أمالـــه		غيـــري وطبـــعُ الغصـــنِ أن يتمـــيَّلا

وأظُنُّـــــهُ طلـــــبَ الجديـــــد وطالمـــــا		عَتِـــقَ القمـــيصُ علـــى امـــرئٍ فتبـــدَّلا

أبـــداً يـــرى بُعْـــدي وأطلـــبُ قُربـــه		ولـــوْ أننـــي جـــارٌ لـــه لتحـــوَّلا

عجبـــاً لقلـــبٍ مـــا خـــلا مـــن لوعـــةٍ		أبـــداً يحِـــنُّ إلـــى زمـــانٍ قـــد خـــلا[2]

وتحدث الشعراء عن الصفات المعنوية للمحبوبة، وإن كان الحديث عنها قليلا ولا يرقى إلى مستوى ذكر المحاسن الحسية، ومنها الإباء والتمنّع، وغيرها من الصفات التي تخلّقت بهـــا المحبوبة، ما أذكى اللوعة والحرقة في نفس الشاعر، فرحيل المحبوبة، وإباؤها ورفضها اللقـــاء قد أرَّق هاشم بن محمد الأسدي، وأبعد عن عينيه النوم بقوله:

أحبابُنـــا رحلـــوا وواصـــل بعـــدَهم		وجْـــدي كمـــا جفَـــتْ الكَـــرى أجفـــاني

لله ريـــــــمٌ رمـــــــتُ منـــــــه زورْةً		فـــأبى وأرَّقَ نـــاظري وقلانـــي[3]

واشتكى محمد بن ثروان من صد المحبوبة وهجرانها، ما جعل النوم ينفر عن عيْنيـــه ، ويزداد لوعةً وأرقاً، وهنا يستعطف المحبوبة للسؤال عنه والاهتمام به، فيقول:

---

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص176.

(2) المصدر السابق: ص176.

(3) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج9، 113.

كـــمْ لـــي بإينـــاسِ نـــوْمي النـــافرْ وبالحبيـــــبِ المفـــــارقِ الهـــــاجرْ
يـــا غـــادِراً غـــادر المُحـــبَّ لقـــىً وراقـــداً عـــن أســـيره الســـاهرْ
لا تَسَـــلِ النـــاسَ مـــا مُنِيـــتُ بـــه وســـلْ بحـــاليْ خيالـــكَ الســـاهرْ
كـــمْ يجحـــدُ الحـــقَّ عنـــدَ ســـفْكِ دمـــي وفـــوقَ خـــدَّيْكَ شـــاهدٌ حاضـــرْ(1)

ويسهر أمين الدين السليماني الليالي الطوال، بسبب ما يعانيه من بعدِ المحبوبة، وقسوة قلبها وهجرانها له، كما في قوله:

رقَّ يـــا قاسِـــيَ الفـــؤادِ لأجْفـــا نٍ قِصـــارٍ أسْـــرى ليـــالٍ طِـــوالْ
شـــارِحاتٍ بـــدمعها مجمـــع البحـــر يـــن فـــي حـــبٍّ مجمـــعِ الأمْثـــالِ(2)

وعلى الرغم مما تبديه المحبوبة من الصدِّ والهجران والغدر، فإن الشاعر ما زال يطلب ودها، ويستجدي وصالها، كما يبدو في قول السليماني:

خُنْتَ عهْـدي فـدامَ وجْـدي فهَـلْ تكْـ بـتُ صـدىً يومـاً بطيـبِ الوصـالِ(3)

ويرسم البهاء زهير صورة واضحة للعاشق المحب، الذي يُعمل فكرة طوال اليوم والليلة، وينظر بالأسباب التي جعلت المحبوبة تنفر منه، وتبخل باللقاء ومد حبل الوصال ثانية معه، كما في قوله:

عـــرفَ الحبيـــبُ مكانـــهُ فتـــدلَّلا وقنِعْـــتُ منـــه بموْعـــدٍ فـــتعلَّلا
وأتى الرسـولُ ولـمْ أجِـدْ فـي وجْهـهِ بِشْـراً كمـا قـدْ كنـتُ أعهـدُ أوَّلا
فقطعْـــتُ يـــومي كلَّـــهُ متفكِّـــراً وســـهِرْتُ ليلـــي كلَّـــه مُـــتملْملا
فلعـــلَّ طيْفـــاً زارَ منـــهُ فـــردَّهُ ســـهَري فعـــادَ بغيْظـــهِ فتقـــوَّلا(4)

---

(1) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج7، ص120–121.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102.
(3) المصدر السابق: ج2، ص103.
(4) البهاء زهير: **الديوان**، ص176.

ويتحدث الشعراء عن العاذلين واللائمين بالحب، فهذا صفي الدين قنابر لا يعبأ بأقوالهم، ويطلب إليهم التماس العذر له، فإن حاله يبعث الشفقة لدى الصديق والعدو على حد سواء، كما في قوله:

يا لائمي في حبِّهِ ومُعنِّفي خفِّفْ عليَّ فإنَّ لومكَ مؤلمُ
لا تعْذِلنَّ على الصَّبابةِ مُغرماً رقَّ الحسودُ لحالهِ واللُّوَّمُ[1]

ومثله فعل سيف الدين المشد، فلم يصغ لهم، وكأن وقراً في أذنيه عن هذا الكلام، فقال:

أيَسومُني العُذّالُ عنهُ تصبّراً هيهاتَ ما أذُني لذالك واعيهْ[2]

وقد أضفى الشعراء بعض المعاني الدينية في غزلياتهم، وعدَّ سيف الدين المشد أن مرتبة المحب تضاهي مرتبة الشهيد، وأن لهم مذهباً وطريقة في الغرام، ساهرة عيونهم في طاعة الله، فقال:

بُشْرى لأهلِ الهوى عاشوا به سُعدا وإن يموتوا فهم من جملة الشُهدا
شِعارهم رِقَّةُ الشَّكوى ومذهبُهم أنَّ الضَّلالةَ في تيهِ الغرامِ هُدى
عيونهم في ظلامِ اللَّيْلِ ساهرةٌ عبْرى وأنفاسُهم تحت الدُّجى صُعدا[3]

وظهر الغزل الماجن الإباحي عند شعراء بلاط الملك الناصر، فكان أحدهم لا يتورع – فضلا عن ذكره مفاتن المحبوبة حسيا– من الحديث عن اختلائه بها، " وقد هجم على اللّذّة من غير حرمان، واقتحم معوقات القيم– أخلاقية ودينية– بغير عناء، يلبّي نداء هواه معلناً ومصرّحاً بمغامراته وحركاته، غير آبه بحبيب قضى معه سويعات لينتقل إلى آخر، يهوى الجمال ويتبعه من حسناء إلى حسناء، وينتقل من امرأة إلى أخرى تنقّل النحلة من زهرة إلى زهرة"[4]. وعلى عادة الأقدمين من شعراء الغزل الماجن، كان اللقاء بين الشاعر ومحبوبته؛ إذ تمتع بنعيم وصلها بعد انقطاعه، في ليلة أمن فيها الحساد والواشين، كما يبدو في قول سيف الدين المشد:

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص389.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص105.
(3) المصدر السابق: ص124.
(4) يوسف، خالد: **الشعر العربي أيام المماليك**، ص410.

تعاهـــدَ طيْـــفُ الهاجريَّـــةِ مضْـــجعي وجـــادت بوصـــل بعـــد طـــول تَمنُّـــعِ

وأبـــدتْ جبينـــاً كـــالهلالِ وســـلَّمتْ علـــيَّ ســـلامَ المُـــذْنبِ المُتشـــفِّعِ

وقالـــت لـــك البُشْـــرى بعـــيْشٍ مُـــنعَّمٍ وقـــد كـــان بالخُرْصـــانِ[1] أيُّ مُمنَّـــعِ

فقـــمْ وانتهزهـــا فرصـــةً لـــكَ أمْكنـــتْ من الوصْلِ وانعـمْ فـي الهـوى وتمتَّـعِ

فيـا طيبهـا مـن زَوْرةٍ لـم أخـفْ بهـا رقيبـاً ولـم أحْفـلْ بـواشٍ مشـنّعِ

نعِمْـــتُ بهـــا والكاشـــحون وحُسَّـــدي غُفـــولٌ وأُذْنُ البـــينِ لـــم تتســـمَّعِ[2]

ويعرض شرف الدين الأنصاري قدرته على اقتحام المغامرات الغزلية الماجنة، ناهجا أسلوب الحوار بينه وبين المحبوبة، مظهرا ما حصل عليه من اللذة دون تحرّجٍ، أو خوف من العواقب، وهذا ما يتجلى في قوله:

وقلْـــتُ لهـــا قِفِـــي إن لـــم تـــزوري فقالـــتْ والوُقـــوفُ مـــن الزِّيـــارهْ

شـــمرْتُ إزارهـــا عنهـــا فصـــدَّتْ فقلـــتُ تقـــدَّمي ودعـــي الشَّـــمارهْ

جســـرْتُ فنِلْـــتُ مـــا أمَّلْـــتُ منهـــا ومـــا نيْـــلُ المُنـــى إلا جســـارهْ

أدرْتُ علـــى مُزرِّرِهـــا عِنـــاقي فبِـــتُّ ومِعصـــمي للبـــدْرِ دارهْ

تـــرى فـــي خـــدِّها آثـــارَ عضّـــي لغُصْـــنِ بنفْسَـــجٍ فـــي جُلَّنـــارهْ[3]

ومن ذلك ما يستذكره بدر الدين بن الفويرة يوم زارته المحبوبة، وانفرد بهـا، واصـفاً لذاته معها، كما يبدو في قوله:

وللهِ ليـــلٌ زارنـــي فـــي ظلامـــهِ غزالٌ رشـيق القـدِّ كالغُصُـنِ النَّضـرِ

---

(1) مفردها خُرْص وخِراص، وتعني الرمح، أو الدرع، أو الحلقة من الذهب أو الفضة. **المعجم الوسيط:** مادة خرص.

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص120–121.

(3) الأنصاري: **الديوان**، ص187. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص245.

شربْتُ مياهَ الحسْــنِ مــن روْضِ وجْهــهِ   براحَةِ طرْفــهِ والــدُّجى مُســبِلُ السَّــتْرِ
وبِتْنـــا وثـــوْبُ الوصْـــلِ ينْشـــرُ بيننـــا   إلى أن طوتْ بُرْدَ الظَّــلامِ يــدُ الفجْــرِ[1]

ومثله محيي الدين بن زبلاق، الذي وصف لقاءه بالمحبوبة، بعد زيارتها له خفيةً، فذكر ما ناله منها في قضاء وطره من ضمه وتقبيله في جو من الهدوء والطمأنينة، إذ قال:

أخْفَـــى زيارتـــهُ بصـــمْتِ حُجولـــهِ   لـــو لـــم يـــنمَّ عليْـــهِ نُطْـــقُ وشـــاحهِ
أهْـــداهُ لـــي فضـــممْتُ غُصـْــناً يانِعـــا   تثْنيـــــهِ راحُ دَلالـــــهِ ومِراحِـــــهِ
وأبحْـــتُ لثْمـــي مـــن حديقـــةِ خَـــدِّهِ   فـــي آســـهِ الزّاهـــي وفـــي تُفّاحـــهِ[2]

والملاحظ عند أكثر شعراء الغزل الماجن العابث في هذا العصر، أن الشاعر هو المزور والمحبوبة هي الزائرة، على العكس مما كان معهوداً عند شعراء العصور السابقة الــذين كــانوا يتحدثون عن مغامراتهم، ويتحملون الأعباء والمخاطر في سبيل الوصول إلى المحبوبة، وربمــا كان ذلك إشارة إلى تردي الوضع الديني والاجتماعي، ويعكس الواقع في هذا العصر.

* * *

وتغزل شعراء الملك الناصر بالغلمان، وهو ما يعرف بالغزل بالمــذكر، الــذي شــاع وانتشر في هذا العصر انتشاراً كبيراً؛ إذ ابتعد بعضهم "عن الدين، فانحرفت أخلاقهم وســاءت سريرتهم وضاعت مروءتهم، كما أن الحرب طالت في هذه البلاد، مما أدى إلى إقلاع الرجــال عن الزواج لسبب أو لآخر، وكثر وجود الغلمان الأعاجم الذين امتازوا بالجمال، وكــذلك كثــر اللاجئون إلى التكايا والخوانق تحت اسم التصوف كسلاً وكذبا، كل هذا أدّى إلى شيوع فاحشــة اللواط وبالتالي التغزل بالغلمان"[3].

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.

(2) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص316.

(3) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص114. انظر سبيناتي، هناء علي: **صورة المجتمع في الشعر المملوكي**، (رسالة دكتوراه دكتوراه غير منشورة)، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 2007م، ص409-410.

نظم شعراء العصر الكثير من القصائد والمقطوعات في التغزل بالغلمان وجمالهم، "وهي أشعار نظمها أدباء ماجنون، وفقهاء أتقياء، فالتغزل بالمذكر كان ظاهرة عامة آنذاك لم تقتصر على فئة من الشعراء دون غيرهم، ويستشفُّ من كلام المؤرخين والأدباء أن هناك مدرسة خاصة في ذلك الموضوع ينتمي إليها عدد من الأدباء، وهم في ثلاثة فرق: فريق قصد الأطراف والخلاعة والمجون، وفريق عبَّر عن حبه الحقيقي للغلمان، والفريق الثالث رغب في المنافسة والابتكار والتجديد"[1].

والملاحظ في هذا الاتجاه أن من الشعراء من كان مسرفاً في مجونه، غارقاً في اللذات والمعاصي، فكانت أشعاره تحاكي واقعه وتجاربه، ومنهم من كانت أشعاره " لا تعبِّرُ تماما عن الواقع، إذ أن الغزل المذكور لم يكن في معظم الأحيان إلا تقليدا للمحدثين السابقين من الشعراء، فغزل الشرف الأنصاري شيخ الشيوخ، المعروف بجلالة قدره ورفعة منزلته، هو من باب العبث البريء، وهو ضرب من التصنع البديعي لإظهار الحذق، ذلك أن طبيعة الشعر العربي، ونظرية التقليد في الأخذ استدعت وجود مثل هذه الظاهرة واستمرارها في هذا العصر"[2]. وهذا ما يراه الباحث ويرجحه. ومن الشعراء من جمع كتباً في هذا المضمار، وكان أبرزهم نور الدين الإسعردي الذي ألف كتابا أسماه "سُلافة الزَّرجون في الخلاعة والمجون"، ضم إليه الكثير من شعره وشعر غيره في هذا الغرض[3].

وتنوّعت المعاني في هذا الغرض الشعري وتعدّدت، فقد أضفى الشعراء على الغلمان الصفات والمحاسن الحسية المادية التي تداولوها في الغزل بالمرأة، فالمحبوب كالغزال في الخفة والحركة، ووجهه كالبدر المنير، والقدّ غصن يانع، والقوام معتدل جميل، ويستشفُّ ذلك في سياق الحوار بين سيف الدين المشد ومحبوبه إذ قال:

وغزالٍ قلتُ ما الاسـ ... ـمُ حبيبي قال مالكْ

قلتُ صفْ لي وجْهكَ الزا ... هي وصفْ حُسنَ اعتدالكْ

---

(1) عبد الرحيم: **فن الرثاء** ص274.

(2) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص582–583.

(3) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص271.

قـــــــال كالبـــــــــدر والغصـــــــــــــ   نِ ومــــــــا أشـــــــــبهَ ذلـــــــــكْ[1]

وكان للعنصر غير العربي أثر في شيوع هذه الظاهرة، وتنامي الغزل بالغلمان الأعاجم من الأتراك، لجمالهم وخفتهم، وقد أعجب سليمان بن بليمان بهم، وأخذ يستعطفهم للرفــق بـــه، بعدما أصيب بغرامهم وتعلَّق بهم، كما في قوله:

يـــا رشـــأ الأتـــراك عَطْفـــاً علـــى   خلْـــــفِ غـــــرامٍ داؤه مُعضـــــلُ[2]

ويصور شرف الدين الأنصاري محبوبه غصناً مائلاً، أمــا عينـــاه، فســاحرتان تفعــل بالعاشق فعل الخمرة، فقلبه غريق في بحر هواه، لا ينقذه أحد، لما يعانيه من الصد والهجر، كما في قوله:

غُصـــــــنُ نقــــــاً أوراقـــــهُ لاذُ[3]   بظلِّـــــــــــهِ عُشّـــــــــــاقهُ لاذوا

لـــي أدْمـــعٌ مـــذْ صـــدَّ مُرفضَّـــةٌ   ومُهْجـــــةٌ مـــــذْ بـــــانَ أفـــــلاذُ

ويْـــلاهُ مـــن هـــذا الغُـــلامِ الـــذي   نـــــاظرهُ فـــــي السِّـــحْرِ أُســـــتاذُ

أدار مـــــن ألحاظـــــهِ خمْـــــرةً   خُمارُهـــــا للعهْـــــدِ نبّـــــاذُ

غَرِقْـــتُ فـــي بحـــرِ غرامـــي بـــهِ   فمـــا لقلبـــي منـــهُ إنفـــاذُ[4]

والتغزل بالسقاة من الغلمان ظاهرة تطرق إليها معظم شعراء الناصر، فوصفوا جمالــه، ورقته، فهو مصدر السعادة والسرور، كما في قول سيف الدين المشد:

وتوسَّـمتُ حامـلَ الـرّاحِ فـي الليـــ   ـــلِ هـــلالاً يجلـــو ســـراجاً منيـــرا

قمـــرٌ مـــا يـــزالُ يُهـــدي لقلبـــي   ولعيْنـــــي نظـــــرةً وسُـــــرورا

تجتنـــي الـــنفسُ دائمـــاً مـــن عِذاريْـــ   ـــهِ وصُـــدْغيْهِ جنَّـــةً وحريـــرا[5]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص113.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص324.

(3) اللاذ: ثياب حرير تنسج بالصين، واحدتها لاذة. **المعجم الوسيط**: مادة لوذ.

(4) الأنصاري: **الديوان**، ص187.

(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص357–358.

ووصف الشعراء العِذار[1] عند الغلام، وهي ظاهرة عامة في غرض الغزل، وخصصت فيها دواوين شعرية، إذ صوره بدر الدين بن الفويرة بالصائد لقلوب العشاق، كما يبدو في قوله:

عاينْـــــــتُ حبَّـــــــةَ خالـــــــهِ   فـــــي روضـــــةٍ مـــــن جُلّنـــــار

فغـــــــدا فـــــــؤادي طـــــــائراً   فاصـــــطاده شـــــركُ العِـــــذار[2]

3) الرثاء

ارتبط شعر الرثاء عبر العصور بفاجعة نزلت بالإنسان، قهرته وتغلبت عليه، فلم يــنج أحد من الموت، بل الجميع طارق بابَه محتسٍ شرابَه، وانبرى الشعراء منذ القدم يقولون الأشعار في هذه الحادثة، تلبية لتدفق مشاعرهم أمام الموت بما ينسجم مع عظيم المصاب، وحجم المأساة، " ونظموا فيه قصائد ومقطوعات كثيرة، أودعوها زبدة تجاربهم في الموت والحياة، فبكوا موتاهم ورثوا وعزّوا، فكان لنا إرث وافر في هذا الباب، مبثــوث فــي ثنايــا كتــب الأدب والتــاريخ والدواوين الشعرية، وتراجم الرجال المطبوعة منها والمخطوطة"[3].

والرثاء مدح الميت، وذكر مناقبه، فلا فرق بين الغرضين إلا بوجود قرينة " تدل علــى أن المقصود به ميت، مثل "كان" أو "عدمنا به كيت كيت"، وما يشاكل هذا ليعلم أنــه ميــت"[4]. ويجدر بالشاعر الراثي أن يبكي الميت ويظهر الحزن واللوعة، ويبدي الأسى لفقدانه، وذلك مــا يميز شعر الرثاء عن المديح[5]، لأن كلا الغرضين فيه مدح وثناء، فإن كان المقصود في المــدح حيّا عدَّ الشعر مديحا، هدف صاحبه النيل والعطاء، وإن كان ميْتاً عدَّ الشعر رثاءً، دفع صــاحبَه الوفاء والإخلاص للميت دون أن ينتظر المقابل، أو الشعور بالواجب، أو الرغبة في التكســب، وبخاصة في رثاء أرباب الدولة بعد موتهم، وتعزية أبنائهم.

---

(1) عذار الغلام: جانب لحيته. **المعجم الوسيط:** مادة عذر.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص367. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج3، ص236.

(3) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص أ.

(4) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص147.

(5) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص225.

وكان الشاعر في مرثيّته " يتناول المعاني التي تصور هول الفاجعة وشمولية الحزن والأسى، وانعدام المسرّة والأمل، والسخط على الأقدار، وغدر الأيام، والتسليم بالقضاء والقدر، واستخلاص الحكم والأمثال، والدعاء لفقيده بحسن الختام، واستسقاء قبره وثَراهُ ممشِّياً مع تقليد عربي في ديوان الشعر العربي"[(1)].

واقتصرت الدراسة في هذا المقام على ذكر المراثي التي قالها الشعراء في رثاء الملك الناصر وبعض أفراد أسرته رغم قلتها، فبعد مقتل الناصر رثاه عدد من الشعراء وفاء له، وحبّاً وإخلاصاً لعهده ولبلاطه، الذي كان صرحا للشعر والشعراء.

لقد رثى سيف الدين المشد ابناً للملك الناصر مات صغيراً في حياته، ورثى كمال الدين بن العديم حلب والناصر، معبراً عما جرى للمدينة وأهلها بعده، وصورها حين كانت تحت حكم الناصر، وما حدث فيها على يد التتار بأبيات تقطر حزنا وألماً. كما رثى الناصرَ كلٌّ من: أمين الدين السليماني، والسيف الشطرنجي، ونجم الدين بن إسرائيل الشيباني[(2)].

توفي ولد للملك الناصر في شهر رجب سنة 654هـ، فرثاه سيف الدين المشد، وعزّى به الملك الناصر، داعيا الله له بحسن الثواب، وإسبال النعم عليه لصبره وإيمانه بالقضاء والقدر، لعله يحظى بالسعادة وبطول العمر، فقال:

يا مليكًا وهبَ اللهُ لهُ ... معْ ثوابِ الصبرِ أثوابَ النِّعَمْ
عِشْ سعيدًا لا تُعزّى بعْدها ... وارثاً أطولَ أعمارِ الأُمَمْ[(3)]

---

(1) يوسف: **الشعر العربي أيام المماليك**، ص377.

(2) محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل بن الحسن بن علي بن الحسين نجم الدين الشيباني الدمشقي (603-677هـ)، كان دينا خيرا فقيرا ظريفا نظيفا، وكان أديبا فاضلا قادرا على النظم الرائق مكثرا منه، مدح الأمراء والرؤساء والقضاة وغيرهم، وسلك في نظمه مسلك ابن الفارض وابن العربي. انظراليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص405. الذهبي: **تاريخ الإسلام(671-680هـ)**، ص280. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 358. **عيون التواريخ**، ج21، ص205. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج3، ص120. اليافعي: **مرآة الجنان**، ج4، ص188. ابن كثير: **البداية والنهاية**، ج13، ص283. المقريزي: **السلوك**، ج1، ق2، ص651. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص626.

(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص340.

ويستوحي الشاعر قصة النبي يحيى –عليه السلام– في القرآن الكريم، إذ وصف الطفل المتوفى وقد أوتي مجامع الكلم صبياً، فضلا عن الرئاسة، وذلك في قوله:

ليـــت يحيـــا مَـــنْ فَقَـــدْناهُ وقـــد   أُوتِـــي الحُكْـــم صـــبيّا والحِكَـــمْ

ويصوره الشاعر غصناً يانعاً، وبدراً منيراً، كما في قوله:

أيَّ غصـــنٍ قَصَـــفَتْ أيـــدي الـــرَّدى   وهـــلالاً خَسَـــفَتْ قبـــل اسْـــتَتَمْ

وارتفعت الأصوات بتناقل خبر الوفاة، وعظم المصيبة التي حلت في النفوس، وسمع بها القاصي والداني، حتى سمعها شهر الله الحرام، وفي ذلك يقول:

جـــلَّ فيـــهِ الخطْـــبُ حتـــى إنَّـــه   أســـمعَ النَّعْـــيُ بـــه الشَّـــهْرَ الأصَـــمْ

ثم أخذ الشاعر يعدد مناقبه وصفاته الطيبة وشمائله المحمودة، ولم تكن هذه الأوصـــاف دخيلة على المرثي، بل هي متأصلة فيه، لأنه عاش حياة العز والكرامة، ونشـــأ علـــى الجـــود والكرم في كنف والده الملك الناصر في عيشة هانئة، كما يبدو في قوله:

ماجِـــدٌ قـــد كـــانَ فـــي صـــدْرِ النَّـــدى   حســـنُ الأوصـــافِ محمـــودُ الشِّـــيمْ

ســـار مـــن عـــزٍّ لعـــزٍّ دائـــمٍ   ووجـــودٍ لـــمْ يكـــدِّرْهُ عـــدَمْ

فـــي حصـــونٍ مـــن قصـــورٍ زُخْرِفَـــتْ   حولَـــهُ الولْـــدانُ مـــن بعـــضِ الخـــدَمْ[(1)]

والجدير بالذكر أن سيف الدين المشد سلك مسلكاً جميلاً في رثائه ابن الناصر، وفي ذلك يقول ابن رشيق: " ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة؛ لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات... ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم، وما كانت الفراسة تعطيه فـــيهم، مع تحزن لمصابهم، وتفجع بهم"[(2)].

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص340.

(2) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص154، ص158.

ورثى نور الدين الإسعردي الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب رثاءً حاراً حرَّض فيه الملك الناصر على قتال المماليك، كما يبدو في قوله:

فوا أسفي من بعد خفْق بنودِهِ   تحُفُّ به عِقْبانُهُ ونسورُهُ
أحاطتْ به نارُ العِدى وأعانها   عليْهِ أخوهُ البحرُ وهو نظيرُهُ
وما ضرَّهُ أنْ قلَّ ثمَّ نصيرُهُ   وكان إلى جنَّاتِ عدْنٍ مصيرُهُ
وما طالَ دينُ الشِّرْكِ بعْدَ قُصورهِ   إلى أن خلتْ بالرَّغْمِ منّا قصورُه[1]

وكان لوقوع الملك الناصر أسيرا بيد التتار، ثم مقتله بيد هولاكو، بالغُ الأثر في نفوس الناس، وأخذ الشعراء يبكونه ويندبونه بين سطور أشعارهم، فقد " رثاه غير واحد من شعراء دولته"[2]. وحُقَّ للشعراء أن يستقبلوا هذا الخبر بالانفعال العاطفي وبالصدمة، وكأن صاعقة أصابتهم، لما عهدوه من إكرام الناصر وتعظيمه لهم، وتقريبهم منه، واختصاصه بهم من بين جلسائه، ومن شدة حبه له، أكثروا من ندبه وبكائه، وإظهار عظم المصيبة، وهذا ما جعله ابن رشيق مناسبا في هذا الموقف، فقال:" وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بيِّنَ الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيسا أو كبيرا"[3].

وهذه المعاني تتجلى في قصيدة السيف الشطرنجي التي رثاه فيها، إذ قال معبراً عن عظم المصاب، ودموعه التي امتزجت بالدماء:

ما رأى الناسُ مثْلهُ في زمانٍ   نحنُ فيه فكيف لي بالبقاءِ
لسْتُ أرجو من بعدِهِ اليومَ خلْقاً   خاب سعيي إذاً وقلَّ رجائي
كِدْتُ من حُرْقةِ الفؤاد عليهِ   أُجري دمْعاً من مقلتي كالدِّماءِ[4]

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص33، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة77.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص144. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670. **عيون التواريخ**، ج20، ص262. ص262.

(3) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص147.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص150.

وتكاد تُصمُّ مسامع نجم الدين بن إسرائيل من خبر مقتل الملك الناصر، ويتقطع قلبه بهذه الحادثة غير المتوقعة، وأفزعته هذه المصيبة، إذ بكى بكاءً شديداً، كما يبدو في قوله:

نبـــأٌ تُصـــمُّ لـــه المســـامعُ موجِـــعٌ   وتكـــادُ أحشـــاء الـــورى تتقطَّـــعُ

مـــا كنـــتُ أحســـبُ والحـــوادثُ جمَّـــةٌ   أنّـــي ليـــومِ مصـــابِهِ أتوقَّـــعُ

أبكيـــكَ للوفـــدِ الـــذين نـــأتْ بهـــمْ   أوطـــانُهمْ وأصـــابَهم مـــا يُفْـــزِعُ[1]

وقد عبّر الشعراء في مرثياتهم له عن شمولية الهم والحزن، الذي أصاب الناس جميعـا، فالكل يبكيه، كما يقول أمين الدين السليماني:

بكى الملأُ الأعْلـى علـى الملـكِ الأعْلـى   وأصـبحتِ الـدنيا لفقدانِـهِ ثكْلـى[2]

" وألقى الشاعر أمين الدين السليماني الضوءَ على النساء المخدَّرات ذوات العيال، وقـد خرجن من خدورهن نائحات حاسرات حزنا على الملك الناصر"[3]، كما في قوله:

تبكيـــكَ ولْولـــةُ الحـــريمِ حواســـراً   مـــن كـــلِّ مُعْولـــةٍ تضـــمُّ عيالهـــا

ومصـــونةٍ فـــي خِـــدْرها مـــا شـــاهدتْ   قبـــلَ الرَّزِيَّـــةِ مـــا يُـــروِّعُ بالَهـــا

بـــرزَتْ ولـــم تـــكُ بـــرْزةٌ مـــن قبلِهـــا   كيمـــا يُشـــاهدُ ذو الحميَّـــةِ حالَهـــا[4]

ويجنح الشعراء إلى ذكر مآثره ومفاخره، في تعداد مناقبه وصفاته العطرة التي اعتـادوا عليها أيامه، فهو المعين على الحاجات، والجواد الذي فاق السحب عطاءً حتى خجِلتْ منـه، ذو الهيبة الذي كانت الملوك تهابه، وتسعى لكسب ودِّهِ خيفةً وحياءً، فضلاً عن تواضـعه ودماثـة أخلاقه، وذلك في قول السيف الشطرنجي متسائلاً:

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص38. نقلا عن ديوان نجم الدين بن إسرائيل الشيباني، مصورة عـن مخطوطـة فريدة، مكتبة دير الإسكوريال بإسبانيا، رقم437، الورقة147.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص145. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670.

(3) عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: **صورة المغول في الشعر العربي – العصر المملوكي**، (رسـالة ماجسـتير غيـر منشورة)، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1997م، ص60.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص147. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670. **عيون التواريخ**، ج20، ص262. ص262.

أيـــنَ مـــن كـــان للأنـــامِ جمـــالاً ومُعينـــاً علـــى بلـــوغ الرَّجـــاءِ
أيـــن مـــن كـــان جـــودُه يُخْجِـــلُ السحـــــــبَ وأين المَرجُـوُّ بالشـهباءِ
أيـــن مـــن كانـــت الملـــوكُ لديـــهِ تتـــوارى مـــن خيفـــة وحيـــاءِ
ناصـــرُ الحـــقِّ مالـــكُ الأرضِ طُـــرّاً جـــامعُ الفضـــلِ أوحـــدٌ فـــي الـــذكاءِ
كـــــانَ والله للمقلّـــــين كنـــــزاً وجـــواداً يُغْنـــي عـــن الأغنيـــاءِ
ورؤوفـــــاً بكـــــلِّ قـــــاصٍ ودانٍ فـــي دنـــوٍّ خـــالٍ مـــن الكبريـــاءِ[1]

وينوّه الشعراء بالنسب الأصيل والشرف الرفيع الذي انحدر منه الملك الناصـر، فحـاز المجد والسؤدد حتى علت مكانته على الجوزاء، كما يبدو في قول السيف الشطرنجي:

كـــان واللهِ مالكـــاً طـــابَ أصْـــلاً وهـــوَ فـــرْعٌ متـــوَّجٌ بالبهـــاءِ
هـــو مـــولى ادعـــوهُ بالملـــك النـــا صـــرِ مَلْـــكٌ ســـما علـــى الجـــوْزاءِ[2]

ولابدَّ لقصيدة الرثاء من تعزية النفس في الحديث عما آل إليه مصير الأقـوام السـابقة، للتأسي والتصبر، والتخفيف من عظم المصاب في نفوسهم، " فمن عـادة القـدماء أن يضـربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة"[3]، لأن الموت حق على الجميع، وهو نهاية نهاية كل مخلوق، لم يسلم منه أحد، حتى الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا يتجلى في قصيدة كمال الدين بن العديم في رثاء حلب، التي " بدأها بالحكمة والموعظة والشكوى من الدهر الـذي لا يُبقي شيئاً على حاله، فقانونه التبديل والتغيير والهدم، وقد أفنى هذا الدهر قديماً ممالك كسرى وقيصر المنيعة، وبدَّد جيوشها، وقضى على ملك العباسيين، وطمس آثارهم، وبدل حالهم، فبعدما كانوا قبلة الملوك يزدحمون على أبوابهم، نزلت بهم وبقصورهم المذلة، والهوان، وأزال كـذلك دولة الأيوبيين على الرغم من عظمتها ومنعتها"[4]، يقول فيها:

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص149.
(2) المصدر السابق: ج2، ص150.
(3) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص150.
(4) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص 222–223.

هــوَ الــدهرُ مــا تبنيــهِ كفّــاكَ يهــدمُ وإنْ رمـــتَ إنصـــافاً لديـــهِ فـــتُظْلَمُ
ويرفـــعُ ذا نقـــصٍ ويخفِـــضُ زائـــدُ ويـــرزق مـــن غيـــر اكتســـابٍ ويحـــرمُ
أبـــاد ملـــوكَ الفـــرسِ جمعـــاً وقيصـــرا ً وأصـــمتَ لـــدى فرســـانِها منـــه أســـهُمُ
أدارتْ علـــــيهمْ بالمنيَّـــــةِ أكْـــــؤُسٌ فكـــمْ بُليـــتْ مـــنهم جســـومٌ وأعظُـــمُ
وأفنـــى بنـــي أيـــوبَ مـــعَ كثْـــرِ جمعِهـــمْ ومـــا مـــنهم إلاّ مليـــكٌ معظَّـــمُ
وملـــكُ بنـــي العبـــاسِ زال ولـــم يـــدعْ لهـــمْ أثـــراً مـــن بعـــدهِمْ وهـــمُ هـــمُ
وأعتـــابهُمْ أضـــحتْ تـــداسُ وعهـــدُها تبـــاسُ بـــأفواهِ الملـــوكِ وتُلـــثمُ
محـــــارمُ آلِ للنُّبـــــوةِ حُلِّـــــتْ لكُـــلِّ كفـــورٍ بـــالرّدى مُتغشِّـــمُ
لهـــمْ أســـوةٌ إن كـــان أخْنـــتْ علـــيهمُ صـُــروف اللَّيـــالي بالـــذين تقـــدَّموا(1)

وتبدو النزعة الدينية والوعظية واضحةً لدى الشعراء في رثائهم الملك الناصر، فقد سلّمَ السيف الشطرنجي بالقضاء والقدر، في سياق حديثه عن صفات الله عزّ وجـل، ودعوتـه إلـى الإيمان بالله تعالى، والتزام شرعه، وانتهاز الفرصة بالتوبة قبل أن يأتيه الموت، وهو مـنغمس في غروره، وفي متاع الدنيا الزائل، ثم لا ينفعُهُ ندمُهُ، كما يبدو في قوله:

كـــلُّ حـــيٍّ مصـــيرُهُ للفنـــاءِ ثـــمَّ لـــمْ يبْـــقَ غيـــرُ ربِّ السَّـــماءِ
مالـــكٌ قـــادرٌ رؤوف رحـــيمٌ باســـطُ الـــرِّزْقِ كافـــلٌ بالعطـــاء
حامـــلٌ للمُقِـــلِّ كهْـــفٌ لـــذي الفـــا قَـــةِ أرجـــوهُ عنـــدَ يـــومِ اللِّقـــاء
هـــو ربّـــي وراحِمـــي ومُجيـــري ومُعينـــي فـــي بُكْرتـــي وعِشـــائي
فالسَّـــعيدُ الـــذي يؤمـــلُ نعمـــا هُ بحُسْـــنِ اليقـــينِ فـــي الابتغـــاء
فـــانتهزْ فرصَـــةَ التُّقـــى غيـــرَ وانٍ لِـــتكنْ فـــي غـــدٍ مـــن الأتقيـــاءِ

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص343–344. أبو الفداء: **المختصـر**، ج3، ص215. العينـي: **عقـد الجمـان**، ج1، ص340.

إنَّمــــا هـــــذه الحيــــاةُ غــــرورٌ ومتـــاعُ الـــدنيا لنـــا كـــالهواءِ
بينمـــا المـــرءُ راتِـــعٌ فـــي ريـــاضٍ مـــن شـــبابٍ جـــارٍ علـــى الاســـتواءِ
غافِـــلٌ فـــي نهـــارهِ وليالـــيهِ مُجِـــدٌّ فـــي أخْـــذِهِ والعطـــاءِ
إذْ أتـــاهُ داعٍ مـــن المـــوتِ يـــدعوهُ إلـــى حفْـــرةٍ مـــن الغبْـــراءِ[1]

وعادة ما تتسرب الحكمة والموعظة إلى شعر الرثاء، حيث يستخرجها الشاعر من المصاب الذي حلّ به، ويستلهمها من مرارة الحياة وقسوتها[2]، فيسلم أمين الدين السليماني بالقضاء والقدر المكتوب على الإنسان، مصوراً أسباب الموت بخيوط العنكبوت، كما يبدو في قوله:

كيـفَ الخـلاصُ مـن المنيـةِ لامـرئٍ مـن بعـدِ مـا نصـبتْ عليْـهِ حِبالهـا
إنَّ الملـــوكَ إذا تخـــاذلَ بعضُـــها عـن بعضِـها ففِعالُهـا أفعـى لهـا[3]

ووقف الراثون على الوضع الذي آل إليه الناصر عقب أسره في يد المغول، فهذا السليماني يصور الحالة النفسية الكئيبة للناصر بعد وقوعه في قبضة التتار، ومغادرته الشامَ قسْراً إلى مصيره المجهول، فيقول:

وفـارقَ ملْـكَ الشـامِ والشَّـرْقِ عُنْـوةً فريداً كما جـرَّدْتَ مـن غِمْـدِهِ نَصْـلا
فأضـحى أسـيراً فـي التتـار مُروَّعـاً فبكُّوا عزيزاً لم يكـنْ يعـرفِ الـذُّلاّ[4]

ووقفوا على حالة الحيرة والاضطراب التي عاشها الناس، وهم يرقبون مصير ملكهم، فقد تعددت الروايات في خبره بسبب بعده عنهم، وشدة شوقهم إليه، وهذا يتجلى في قول السليماني:

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص149.

(2) انظر التونجي، محمد: **التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي**، ط1، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، والنشر، 1987م، ص254.

(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص148. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص145. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670.

تناقضـــــتِ الأخبـــــارُ عنـــــهُ لبُعْـــــدِهِ فيـــا لحـــديثٍ مـــا أمـــرُّ ومـــا أحلـــى
فيـــا ليـــتَ عيْنـــي عاينـــتْ كُنْـــهَ حالـــهِ لقدْ شــفَّني حزْنــي عليْــهِ وقــدْ أبْلــى
أُبَكّيـــهِ فـــي الأســـرى وأرْجـــو خلاصَـــه رجـــاءَ بعيـــدٍ أم أُرثِّيـــهِ فـــي القتلـــى
أَبِـــنْ خبـــراً يـــا يوسُـــفَ بـــنَ محمـــدٍ أحـــيٌّ تُرجَّـــى أنـــتَ أمْ ميِّـــتٌ تُسْـــلى
وواللهِ مـــا يسْـــلوكَ قلْـــبُ ابـــنِ حُـــرَّةٍ جعلتَ له من طَوْلكَ الفــرْضَ والــنَّفْلا[1]

وتحدث الشعراء عن مصير الناس عقب موت الناصر وقتله، وكان مما أدمى القلبَ وأعقب الغصة في النفوس، ما آل إليه حال النساء العفيفات الطاهرات، بعدما هتك المغول أعراضهنَّ واستباح دماءَهنَّ، فضلا عن أسرهنَّ وسبيهنَّ، وقد كنَّ على عهد الملك الناصر معززات مصونات في أخبيتهنَّ، كما يبدو في قول السيف الشطرنجي:

هُتكـــــتْ بعـــــدهُ وجـــــوهُ نســـــاءٍ كـــنَّ مـــن قبـــلُ فـــي حمـــىً وخبـــاءِ
واســـــتبيحت دمـــــاؤهمْ فـــــي ديـــــارٍ جمعـــــتهمْ فـــــي ســـــاعةِ السَّـــــرّاءِ[2]

ويصور كمال الدين بن العديم ما عانت منه النساء- بعد احتلال المغول حلب، ومقتل الملك الناصر- من الذُّلِّ والهوان والضرب واستباحة دمائهن وأعراضهن، وهن يستغثن ولكن دون جدوى، ودون مشفق يرحم حالهن أو يعطف عليهن، " فقد سباهن المغول، وأهانوهن، وجزّوا منهن الشعور، ولطخوا وجوههن بالدماء من شدة اللطم، وكانوا قساة في تعاملهم معهن"[3]، كما في قوله:

وســـيقَ بربّـــاتِ الحجـــالِ فلـــوْ تـــرى شـــتاتاً ملـــوكُ الأرضِ كيـــفَ تقسَّـــمُ
وقد جُـــزِّزَتْ تلـــكَ الشـــعورُ وضُـــمِّختْ وجـــوهٌ بـــأمْواهِ الـــدِّما وهـــم تلطَـــمُ
وجـــوهٌ لهـــا تعنـــي البـــدورُ وتخجـــلُ الشـــموسُ وعـــنهنَّ الأهِلَّـــةُ أنْجُـــمُ
لكـــلِّ مهـــاةٍ قـــد أُهينـــتْ ســـبِيَّةً وقـــد طـــال مـــا كانـــت تُعـــزُّ وتُكْـــرمُ
تنـــادي إلا مـــن لا يُجيـــبُ نـــداءَها وتشكو إلـــى مـــن لا يـــرِقُّ ويـــرحمُ[4]

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص145. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670
(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص150.
(3) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص224. انظر عبد الرحيم: **صورة المغول في الشعر العربي**، ص88.
(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص345. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص341.

ولم يكن حال زوجة الملك الناصر أفضل من حال بقية النساء، التي غالبها الحزن والخوف، لفقدانها زوجها، وابتعادها عن أهلها وديارها، تكفل طفلها وحدها، كما في قول السليماني:

وعلمكَ بالسِّتر العالي أنّها مروَّعةٌ من يومِ فارقْتَها ثكلى
تضمُّ علاء الدينِ ضمَّ غريبةٍ زوى الدهرُ عنها الملكَ والآلَ والبعْلا
فهلْ رقَّةٌ أو رحمةٌ لغريبةٍ غدتْ بعدَ ملكِ الشامِ كافلةً طفلا[1]

ومثل ذلك حال الناس بعامة بعد مقتل الناصر.

أما عن مصير الشعراء، فلم يتصل أمين الدين السليماني بأحد من الملوك بعده، ولم يستعن بهم في تحقيق مطالبه، بل قنع بما عنده، ورغب عن سؤال أحد منهم، إلا لما اقتضته ضرورات الحياة، كما في قوله:

فؤادي وطرفي مُنْزلاكَ على النَّوى فغيرُك لا يحلو لديَّ ولا يَحْلى
وها أنا قد أعرضْتُ عن كلِّ منعمٍ فلا أحدٌ أدعوه بعدَكَ للجُلّى
قَنِعْتُ فما لي حاجةٌ غير ما دعتْ إليه ضروراتي ومن قنعَ استعلى[2]

وحمَّل الشعراء العساكر مسؤولية ما حدث للناصر، إذ وصفوا حال جيش الملك الناصر، الذي جبن أمام جيش التتار، رغم توفر إمكانيات القتال والنصر بكثرة عدادهم وعتادهم، ولكن الكثير منهم انهزم أمام نفسه، وبعضهم مالأ العدو، وفرَّ آخرون من ساحة المعركة قبل بدئها، كسرب من الغزلان فرت من الأسد بعد رؤيته، وانفرد الملك الناصر وحده يواجه قدره ومصيره، وفي ذلك يقول السليماني:

ماذا تقول جحافلٌ مملوءةٌ ملأت سهولَ بلادها وجبالها
رهبتْ وما شهدتْ وغىً فاستسلمتْ من قبلِ أن تضع الحروبُ سجالها
تركوكَ منفرداً بقَطْيَةَ ذاهلاً تسفي عليكَ العاصِفاتُ رمالها

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص146.

(2) المصدر السابق: ج2، ص146.

والقـــومُ إرســـالاً يـــوالي بعضــــهمْ بعضـــاً كســـربِ مهـــا رأت رئبالَهـــا
حتــــى إذا دنـــتِ الجيـــادُ مُغيـــرةً ووَقَفْـــتَ فـــرداً لا تُطيـــقُ نِزالهـــا
جَـــنَحَ الشـــقيُّ[1] إلـــى مســـالمة العـــدى ليُريـــكَ عاجـــلَ صـــرعةٍ ووبالهـــا[2]

وخصّص الشعراء جزءاً من مراثيهم للدعاء للمرثي، إذ ختم السيف الشطرنجي مرثيته بالدعاء بالرحمة، وبحسن الخاتمة للملك الناصر، وبالفوز بالجنة ونعيمها وحورها، والاستسقاء لقبره ولعهده، حتى ينعم برياض الجنة الغناء، وبعبيرها الفواح، وفي ذلك يقول:

فعليْـــــهِ مـــــن الإلـــــهِ تعـــــالى رحمـــــةٌ أُنزلـــــتْ علـــــى الأوليـــــاءِ
ولـــه الحـــورُ فـــي الجِنـــانِ أُعـــدّت لأولـــي العـــزمِ شـــاكرٍ للعطـــاءِ
فســـقى اللهُ تربـــةً هـــو فيهـــا مزنـــةً فـــي صـــباحهِ والمســـاءِ
كـــي تـــرى تُربهـــا عبيـــراً ســـحيقاً طِـــبنَ نشْـــراً عـــن روضـــةٍ غنّـــاءِ
فســـقى عهـــدَه عهـــادٌ ســـحابٌ مـــن رضـــا الحـــقِّ لا مـــن الأنْـــداءِ[3]

ولم يكن رثاء كمال الدين بن العديم لمدينة حلب بدعا من المراثي التي تناولت رثاء المدن عبر التاريخ، فقد توالت الأحداث والمصائب والحروب على أرضها، فسقط بعضها في يد الأعداء، ولحقها من المآسي ما لحقها، ما دفع الشعراء لنظم القصائد التي تصور حجم المأساة وعظيم الفادحة التي حلّت بأوطانهم، كرثاء البصرة والأندلس وبغداد وغيرها. فالشاعر في قصيدته يستلهم شخصاً يحدثه عما لحق بحلب بعد اغتصابها على يد التتار، ويذكر العجائب، والجرائم التي ارتكبوها في حق أهلها، "ويسلط الضوء على الأفعال التي اقترفها المغول في حلب، ويصور دخولهم لها يوماً عصيباً، وهنا يتأثر بالقرآن الكريم، إذ جعل أحداثه تشبه أهوال يوم القيامة"[4]، كما في قوله:

وعن حلبٍ قُلْ مـــا شـــئْتَ مـــن عجائـــبٍ أحلَّ بهـــا إن كنـــت يـــا صـــاحِ تعلـــمُ

---

(1) إشارة إلى حسين الكردي أحد أعوان الملك الناصر، الذي عرَّف التتار بمكانه، فأرسلوا وأسروه. انظر بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص52.
(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص147–148.
(3) المصدر السابق: ج2، ص150.
(4) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص223.

غــــداةَ أتاهــــا للمنيـــــة بغتــــةً	من المغلِ جــيشٌ كالســحاب عرمْــرمُ
فلــوْ حلـــبُ البيضـــاء عاينـــتَ تربَهـــا	وقدْ عندمَ[1]الفضـــيَّمــن تربهــا الــدَّم
وقــد ســيِّرت تلــك الجنــاب وســحرت	بهـــنَّ بحــارُ المـــوتِ والجـــوُّ أقـــتمُ
وقــد عُطِّلـــت تلــك العشـــار وعُطِّلـــت	مواضعُ عمــا أرضــعت وهـــيَ هُــيَّمُ
لأيقنـــتَ أنَّ الأرضَ مـــادتْ وأقبلـــتْ	بـــه الصّـــاخّة الكبـــرى وآن التَّـــنعُّمُ
فمـــا غـــادروا إلا اليســـيرَ وقـــد أتـــى	الحسامُ على البــاقينَ بــالحرْف يُقْســمُ[2]

وما كان الذي لحق بحلب ليتوقعه الناس أبدا، أو يغالب ظن ابن العــديم، حتـــى غــدت مسرحاً للوحوش يقتلون وينهبون ويهدمون، ويصور تشتت شمل أهلها وحيرتهم في البرِّ والبحر، كما يبدو في قوله:

فما كــان منــا الظــنُّ عــن حلــبٍ بــأن	تغـــادر نهبـــاً للبلِـــى وتقسَّـــمُ
وتصـــبحُ مـــأوى للوحـــوشِ ومربَعـــا	وقلعتُهـــا قهْـــراً لـــذلك تُهـــدمُ
يمـــزِّقُ أهليهـــا الزمـــانُ ويرتمـــي	شـــتاتاً وشـــملاً مـــنهمُ يتصـــرَّمُ
حيـــارى بآفـــاقِ الـــبلادِ رواغمـــاً	فذا مُبْحــرٌ قصــداً وهــا ذاك مُــتهمُ[3]

ولم تسلم- لحرمتها- المساجد ولا المدارس بكل ما فيها، بل هدمت وانتقضت أحجارها، ونثرت مصاحفها وكتبها، على الرغم من مكانتها وعظيم قدرها، كما في قوله:

فيـــا لـــكَ مـــن يـــومٍ شـــديد لغامُـــهُ	وقـــد أصـــبحت فيـــه المســـاجدُ تهـــدَمُ
وقـــد دُرســـتْ تلـــك المـــدارسُ وارتمـــتْ	مصاحفُها فــوق الثَّــرى وهـــي تُهْضَــمُ[4]

ويكشف ابن العديم عمّا أصابه من الحزن والحيرة والبكاء الشديد، جراء ما شاهده بـــأمِّ عينيه من الدمار والخراب، فضاقت به الدنيا وأظلمت أمامه، كما في قوله:

([1]) العندم: دم الأخوين، أو الشجر الأحمر، وقال بعضهم: دم الغزال بلحاء الأرطى يطبخان جميعاً حتى ينعقد فتختضب به الجواري. **لسان العرب:** مادة عندم. وهنا إشارة إلى كثرة الدماء التي غطت الأرض.

(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص344-345. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص341.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص345.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص344. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص215. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص341.

يعـــزُّ علـــى قلبـــي المُعنّـــى بـــأنّني أرى ربْعَــكِ المــأنوسَ قفــراً ويعْظُــمُ
فمــاليَ مـــن طَـــرْفٍ أراكِ بـــه ولـــو يقرّحــــهُ دمـــــعٌ بخدَّيْـــــهِ عنـــــدمُ
فهـــا أنـــا ذو وجـــدٍ مُقـــيمٍ بأضْـــلعي عليْــكِ وعيشـــي فـــي الـــبلاد مُـــذمَّمُ
أنـــوحُ علـــى أهليـــكِ فـــي كـــلِّ منـــزلٍ وأبْكـــي الـــدُّجى شـــوقاً وأســـألُ عـــنهُمُ
إذا ذكرتُـــكِ الـــنّفسُ تزهـــقُ حُرقـــةً وكادتْ بـــي الـــدنيا تضـــيقُ وتظلـــمُ(1)

ويستعرض ابن العديم مآثر حلب ومفاخرها أيام الملــك الناصــر، عبــر سلســلة مــن التساؤلات، فقد كانت جنة الوافدين إليها، وملجأ الراجين والمعــدمين والقاصــدين واللاجئـين، ويهابها الأعداء، ويعدمُ على أبوابها الباغون، فاقت البلدان تشريفاً وتزييناً، هذا حالها من قبــل، فماذا اقترفت حتى أصابها ما أصابها بعده، وهذا يتجلى في قوله:

وكنـــتِ لمـــن وافـــاك بـــالأمسِ جَنَّـــةً فمـــا بـــالُ هـــذا اليـــومِ أنـــتِ جهـــنَّمُ
بـــأيِّ جنـــاءٍ منـــكِ اســـتحقَّيْتِ ذا الـــذي أصـــــابكِ والأعـــــداءُ فيـــكِ تحكَّمـــوا
أمـــا كنـــتِ للـــراجين ملجـــأً ومفزعـــاً وفيـــكِ عـــن البأســـاء والضُّـــرّ أنعُـــمُ
أمـــا كنـــتِ عَرْفـــاً للوفـــود ومقصـــدا ويخشاكِ ذو عـــدوى ويرجـــوكِ مُعـــدِمُ
أما كنـــت للـــداعي إذا مـــا دعـــا صـــدىً وفيكِ لمـــن يبغـــي مـــن البغـــي معـــدَمُ
أمـــا كنـــتِ للاّجـــي حِمـــىً ولمـــن أتـــى قِـــرًى ومـــن يحبـــو إليـــكِ التكـــرّمُ
أمـــا فُقْـــتِ آفـــاقَ الـــبلادِ تشـــرُّفا وقـــد كـــان حـــور العـــين فيـــكِ تَـــنَعَّمُ
وكيـــف أصـــابتْكِ الحـــوادثُ غـــرّةً بعيْنِ الرّدى والبـؤسُ عنـكِ يُتـرجمُ(2)

وتبدو العاطفة الدينية واضحة في القصيدة عند ابن العديم، الذي ذاب قلبه كمدا لما حـلَّ بالمساجد والمدارس، والأطفال والنساء والشيوخ في حلب، وراح يسلِّمُ بالقضاء والقدر، والدعاء، وكله أمل بأن يرد كيد الأعداء إلى نحورهم، كما يبدو في قوله:

عليْـــكِ ســـلامُ الله مـــا ســـار راكـــبٌ وما لاحَ فـــي أفـــقِ الســـماواتِ أنجـــمُ
عسى داعـــي الإســـلام مـــنهم بمثـــلِ مـــا أحلّـــوا بنـــا قِـــدْماً يعـــودُ ويعْظُـــمُ

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص346. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص342.
(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص345-346. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص341-342.

ولكنمـــــــا للهِ فـــــــــي ذا مشـــــــيئةٌ فيفعـــلُ فينـــا مـــا يشـــاءُ ويحكُـــمُ[1]

4) شعر المناسبات

يقتنص الشعراء الفرص في مدائحهم للملك الناصر، فيتتبعون كل المناسـبات الخاصـة والعامة في مملكته، التي يشارك فيها، فقالوا فيها وخلَّدوها، وأكثر شعر المناسبات يدخل في باب التهنئة، وكان ذلك في المناسبات السياسية، مثل تهنئته يوم استلامه الحكم، وتهنئته بالخلع والتقليد من الخليفة، وبعد انتصاره في إحدى المعارك، وبسط سيطرته على بعض المدن كدمشق، أو في المناسبات الدينية، مثل تهنئته بالعيدين، أو بشهر رمضان ورجب، أو في المناسبات الاجتماعيـة الخاصة به، مثل تهنئته يوم عرسه، أو عندما يبرأ من مرض ألمّ بـه، بالإضـافة إلـى بعـض المناسبات الأخرى، مثل السفر والوداع.

وهذا الضرب من الشعر يحبه الملوك، ويطربون إليه لما فيه من مدح وإطـراء لهـم- فالشعراء بمثابة المنبر الإعلامي والسياسي للدولة، فضلا عن أنهم يتقلّدون المناصب والمراتـب في السلطة، وكلمتهم مسموعة عند العامة والخاصة- لاسيما في المناسبات الدينية؛ حين يجتمـع الناس فيها ليهنئوا ويباركوا، فيصدح صوت الشعراء أمام الخلائق بالمدح والثناء للملك الناصر، وبالدعاء له بالنصر، وتثبيت أركان الدولة، وقد انقسم شعر المناسبات في بلاط الملـك الناصـر على النحو الآتي:

1) **التهنئة:**

*** المناسبات السياسية**

لقد هنَّأ الشعراء الملك الناصر يوم استلامه الملك، فكانت أول تهنئة في مناسبة سياسـية له، وذلك على لسان جمال الدين بن مطروح بعد وفاة والده الملك العزيزسنة634هـ، وكان قـد مضى من عمر الناصر سبعُ سنين، وعرَّج الشاعر فيها على صفات الناصر وأخلاقه، كما يبدو في قوله:

لا وعينَيْـــــكَ ويكْفـــــي ذا القَسَـــــمْ مـــا رأَتْ عينـــايَ نومـــاً مُنـــذُ كـــمْ
بـــــــدويٌّ الــــــزِّيِّ إلاّ أنـــــــهُ لا يخـــافُ العـــارَ فـــي خفْـــرِ الـــذِّمَمْ

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص346-347. أبو الفداء: **المختصر**، ج3، ص216. العينـي: **عقـد الجمـان**، ج1، ص342.

قمــــــرٌ نـــــــمَّ علــــــــى عُشّـــــــاقِهِ   كـــلُّ كيـــدٍ منـــهُ لمّـــا قيـــلَ تَـــمْ
لا تـــــــــراهُ ناسِـــــــياً لفظـــــــــةً لا   مثـــلَ مـــا يوسُـــفُ لا ينســـى نَعَـــمْ[1]

ويهنئه ابن سعيد المغربي بفتح دمشق، بعدما كانت عصيَّة على الأعداء، ولكنها لم تمتنع أمام عزيمته وقوته، وصوَّرها عروساً موشحةً بأحلى الحلل، وبكامل زينتها لاستقباله، كما يبـــدو في قوله:

أمّـــا دمشــــقُ فقـــد ألقـــتْ أزمَّتهــــا   علـــى يـــديْكَ علـــى حُسْـــنٍ وتحْصـــينِ
لـــم تمتنِـــع عنـــدما قاربْـــتَ ســـاحتَها   وجـــال جيشُـــكَ فـــي تلـــكَ الميـــادينِ
لمّـــا نهضْـــتَ إليهـــا وهـــي عاصِـــيةٌ   تلفَّعـــــتْ مـــــن حيـــــاءٍ بالبســـــاتينِ
مثـــلَ العـــروسِ تجلَّـــتْ فـــي ملابِسِـــها   بكلِّ مـــا جَـــلَّ مـــن حُسْـــنٍ وتـــزيينِ[2]

وتطيب السكنى في دمشق للبهاء زهير بعدما حلّ بها الملك الناصر فاتحا أبوابها، وفـــي ذلك يقول:

ووالله مــــا زالـــــتْ دمشــــقُ مليحــــةً   ولكنهـــا عنـــدي بـــكَ اليـــومَ أملَـــحُ[3]

وهنَّأه نور الدين الإسعردي عقب انتصاره على الصليبيين، واستيلائه على موقع "عيون الفرنج"، واستبشر بهذا النصر الذي حاز فيه صاحبه حسن الثواب، الذي ضاهى ثواب الحجِّ، كما في قوله:

يـــا مليـــكَ الإســـلامِ بُشْـــرى فهـــذي   غـــزوةٌ أحـــرزت ثـــواب الحـــجِّ[4]

وهنَّأه الشعراء بوصول التقليد والخُلع من الخليفة المستعصم بـــالله[5]، وفيهـــا مرســـوم الخلافة بالإقرار للملك الناصر على منصبه، وهو إقرار كاد العدا، وغاظهم، كما يبدو في قـــول شرف الدين الأنصاري:

بُشـــرى لنـــا بُشـــرى لنـــا بشـــرى   بهـــــذهِ الموهبـــــةِ الكُبـــــرى

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص28. انظر ابن مطروح: **الديوان**، ص174-175.
(2) ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص7.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص 150. البهاء زهير: **الديوان**، ص46.
(4) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص384، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة31.
(5) انظر عن وصول التقليد صحبة الشيخ نجم الدين البادرائي: ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص206.

قـــــد عصــــــمَ الأمَّـــــةَ مستعصِـــــمٌ   حــــاولَ مــــن ناصِـــرِها نصْـــــرَا
أهــــــدى إليـــــهِ حُلــــــلاً فخْمــــــةً   طــــابَ بهــــا منْشـــــورُها نشْــــرَا
وافــــــى إلــــــى مَغْنــــاكَ مَطْوِيُّهـــــا   يطــــوي إليــــكَ السْـــهلَ والــــوَعْرَا
يطعــــــنُ أعــــــداءَ إمـــــامِ الهُــــدى   شـــزْراً[1] إذا مـــا نظـــروا شَـــزْرَا
دعــــــاكَ للعهْـــــــدِ فلبَّيْتـــــــهُ   بـــالطَّوعِ ألْفـــاً منـــكَ لا عشْـــرَا[2]

وكان لبدر الدين يوسف الذهبي نصيب في التهنئة بهذه المناسبة، التي أنجز الدهر فيهـا موعوده، وانهالت عليه مواهب أمير المؤمنين، ولم يكن هذا التقليد لولا علم الخليفة بفراسة الملك الناصر وفروسيته، وقوة حنكته وشدة بأسه، لذا فرحت الدنيا جميعها لهذا الملك، ولهذه المواهب والعطايا، التي وإن خصته وحده، فإنّ نفعها سيشمل الجميع بسبب كرمه وعطائه، وهذا يتجلـى في قوله:

وفى لــك السَّـعيُ بالسَّـعدِ الـذي وفـدا   وأنجزَ الدّهرُ مـن عَليـاكَ مـا وعـدا
سُدتَ الملـوكَ فمـا كانـت مواهـبُ مـا   أسـدى إليـك أميـرُ المـؤمنينِ سُـدى
هــو الإمــامُ الــذي هــادَ الأنــامُ لـــه   وهــدَّ رُكْــنَ الأعــادي بأسُــهُ فهــدى
وقلَّــــــدوكَ حســــــاماً فـــــــرأوا   بـــدْراً بِـــذيلِ تمـــامٍ للعيـــونِ بـــدا
بُشــرى تهلَّلــتِ الأنْــوارُ مــن طــربٍ   وصفَّقَ الطيـرُ فـي أغصـانِهِ وشَـدا
مواهــــبُ عمّــــتِ الــــدنيا بأنْعُمهــــا   مـــن الإلـــهِ وإن خصَّــتْكَ مُنْفــردا
وهكذا الحُكْـمُ فـي العضـوِ الـرئيس إذا   خصَّتْهُ هِبَّـةُ[3] نفـعٍ عمَّـتِ الجَسَـدا[4]

*** المناسبات الدينية**

تنافس الشعراء في تهنئة الملك الناصر في المناسبات الدينية من كل سنة، وكان أهمهـا عيدا الفطر والأضحى، وممن هنأه بعيد النحر سليمان بن بليمان، وقد بدأ قصيدته بمقدمة غزلية، مطلعها:

---

(1) شزره بالسنان أي طعنه عن يمين وشمال. **المعجم الوسيط:** مادة شزر.

(2) الأنصاري: **الديوان**، ص237–238.

(3) الهِبَّة: حسن الحال. **المعجم الوسيط:** مادة هبَّ.

(4) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص142–143.

يـــا قَمـــراً قلبـــي لـــه منـــزلُ قــدْ رقَّ لـــي فـــي حبِّـــكَ العــذَلُ[1]

ثم عرج على مدح الناصر، وذكر مآثره ومفاخره، ووصفه بالشجاعة والإقدام، وبالكرم والجود، وأشاد بنسبه، يتخلل ذلك إظهار الحب والولاء والإخلاص للناصر، كما يبدو في قوله:

يُحلـــي بـــذي نخـــلِ العزيـــز الـــذي يَخجـــلُ منـــه العـــارضُ المُســـبِلُ
الملـــكُ الناصـــرُ مـــن جـــارُه دون ملـــوكِ الأرضِ الميّـــلُ
يجـــري نـــدى عـــذب لـــوارده لـــيس يُضـــامُ دونـــه منهـــلُ
طـــوى الحجـــى مـــا لملـــوك الأرضِ غيـــر حجـــاهُ أبـــداً معقـــلُ

وفي خاتمة القصيدة دعا له بالسعادة، والهناء، والسلامة، وفي ذلك يقول:

فاسْـــعدْ بعيـــدِ النّحـــرِ واســـلمْ لـــه لا زلـــتَ فـــي ثـــوْبِ الهَنـــا ترْفُـــلُ[2]

ويهنئه سيف الدين المشد بعيد النحر سنة 655هـ، – وهي آخر ما قاله المشد في الملك الناصر–، وقد بدأها بمقدمة غزلية، ثم مدح الناصر وهنأه في نهايتها، فقال:

فـــتهنَّ العيـــدَ يـــا ملكـــاً عزمُـــهُ قـــد جـــاوزَ الشُّـــهُبا
وانْحـــرِ الأنعـــامَ تقْرُبـــةً وتصـــدَّقْ وأعِـــنْ مـــن تَرِبـــا

ويختم قصيدته بأبيات من الولاء والإخلاص، ولزوم الطاعة للملك الناصر، باستيحاء بعض المعاني الفقهية، كما في قوله:

لـــم أزلْ فـــي شـــرعِ طـــاعتكُمْ قائمـــاً بـــالفرضِ منْتصِـــبا[3]

ويستبشر المشد في هذا العيد، بالنصر المؤزر للملك الناصر على أعدائه، وتحفُّه السعادة والطمأنينة، بنحر الأعداء وقتلهم، في هذا اليوم المبارك، وفي ذلك يقول:

تهـــنَّ عيـــدَ النحـــرِ مستبْشِـــراً كـــلُّ أعاديـــكَ بـــه تُنْحـــرُ[4]

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج 4، ص324.
(2) المصدر السابق: ج4، ص325–327.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص132.
(4) المصدر السابق: ص134

عِشْ سعيداً وانحرْ أعاديك واسلمْ كلَّ عيدٍ مؤيَّداً منصورا[1]

ويهنئه محمد بن ثروان بالعيد، ويدعوه للصلاة والنحر موظفاً القرآن الكريم، ومستحضراً مكارمَ الناصر ومفاخره، ويدعو له بالسلامة الأزلية، لأن سلامته بمثابة عيد تغمره الفرحة والسرور، كما يبدو في قوله:

تهنَّ بالعيدِ شاكراً أنعُمَ اللهِ إلهٍ لخلْقهِ فاطرْ
وصلِّ وانحرْ كما أُمِرتَ فلا زِلْتَ على الخَلْقِ ناهياً آمرْ
فأنتَ عيدُ الأنامِ والفرحةُ الكُبرى فدُمْ سالما إلى حاشرْ
لا زلتَ تلْقى مُناكَ في السِّلْمِ والحربِ سليماً مؤيَّداً ظافرْ[2]

ويبين شرف الدين الأنصاري ما أحلّ من الذبائح يوم عيد الأضحى، في سياق تهنئته للملك الناصر، وفي ذلك يقول:

هنيئاً لعيدِ النحْرِ ما أنتَ ناحرٌ بهِ من دماءِ البُدْنِ[3]والبازِلِ[4]الدَّفْق[5]

ويمزج سيف الدين المشد التهنئة بذكر الخمر ووصفها في يوم عيد النحر؛ إذ ذكر شربها في مجلس الشراب وسط الغناء والطرب، وأشاد بلذة طعمها وأصالة مذاقها، كما في قوله:

اشربْ هنيئاً صبيحة العيدِ بينَ غناءٍ وبينَ تغريدِ
سُلافَ راحٍ من قبلِ ما عصرتْ رَوَّقَها[6] الكرْمُ في العناقيدِ[7]

وكان لأشهُرِ العبادة نصيب من اهتمام الشعراء فيها، إذ ابتهج سيف الدين المشد بشهر رمضان، لما فيه من فضل ليلة القدر العظيم الذي يعمُّ الناس، فيقول:

أهْلاً بشهْرِ الصِّيامِ من شهرٍ ماحي الخطايا مُضاعِفِ الأجْرِ

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص359.
(2) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص121-122.
(3) البُدن مفردها بَدَنَه ناقة أو بقرة تنحر بمكة قرباناً وكانوا يسمِّنونها لذلك. **المعجم الوسيط:** مادة بدن.
(4) البازل من البعير ما طلع نابه إذا دخل في السنة الثامنة أو التاسعة، فهو وهي بازل. **المعجم الوسيط:** مادة بزل.
(5) الأنصاري: **الديوان**، ص371.
(6) روَّقها: صفّاها. **المعجم الوسيط:** مادة روق.
(7) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص369.

فضَّلهُ القادِرُ الجليلُ بِما أُنْزِلَ فيهِ منْ ليْلةِ القدْرِ [1]

ويعقد المشد مقارنة بين فضل شهر الصيام على سائر الأشهر لما فيه من خير كثير، وبين أفضلية الملك الناصر على الخلْق بكرمه ومنِّه الوافر، وقوته وهيبته، فهو كالبحر عظيم في العطاء والرهبة، وفي ذلك يقول:

شهْرٌ لـه الفضْل والفخارُ كما ليوسُفَ الفضْلُ بالنَّدى الغَمْرِ
الملك الناصر الذي اعْترفتْ لهُ عوالي الرِّماحِ بالفخْرِ
هيوبُ مرأىً كريمُ مُخْتبرٍ وصْفانِ لا يُنْكرانِ للبحْرِ [2]

ويهنئه أبو عبد الله الكندي بشهر رمضان مستخدماً أسلوب الفكاهة والدعابة، لأن التهنئة تكمن في العيد، وليس في هذا الشهر الذي أضعف الجسد، فقال:

لا أُهنيِّك بالصِّيامِ لأنِّي قدْ تركْتُ الهنا ليوْمِ العيدِ
إنَّما التَّهْنِئاتُ بالأكْلِ والشرْ بِ وصوْتِ المُثنّى وضرْبِ العودِ
لا بِصومٍ قد قرَّح الكبْدَ حتى تركَ العَوْدَ فيهِ مثْلَ العُودِ[3]

وهنَّأه نور الدين الإسعردي بشهر رجب في معرض حنينه وشوقه إلى حلب الشهباء وهنا إشارة إلى امتزاج شعر التهنئة بغيره من أغراض الشعر الأخرى، فالشاعر بداية يشتاق إلى أيام لهوه وصِباه في حلب، ويدعو لها بالسُّقْيا في مطلع القصيدة، ثم يهنئ بقدوم شهر رجب، في باب من التورية بالشهباء، إذ قال:

أمنزِلَ اللَّهْوِ والأترابِ من حلبٍ سقى رُبوعَكَ هطَّالٌ من السُّحُبِ
وقد أتى رجبٌ بالسعدِ يقْدُمُها قَصْداً إلى حمَمٍ من ربكمْ رجبُ
وافاكُمْ راكِباً نِضْوَ الهِلالِ لقدْ أتى على أشْهُبٍ يسمو على الشُّهُبِ
لا بدَّ في رجب منْ قبْلِ ثالثة ببَثِّ شعْبانَ من لهْوٍ ومن طَرَبِ[4]

([1])الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص336.

(2) المصدر السابق: ص336.

(3) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص271.

(4) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص84، نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة20.

ويهنئه سيف الدين المشد بقدوم شهر رجب، وكأن الملك الناصر خُصَّ فيه، لما فيه من تحقيق الرغبات والمطالب، كما في قوله:

أيـــا ملكـــاً قـــد عظَّـــمَ اللهُ قـــدْرَهُ   وخوَّلـــهُ مـــا يرْتجـــي مـــن مطالـــبِ
أتى رجـــبٌ فـــرْداً لمثْلـــكَ فـــي الـــورى   فلا غـــرْوَ أنْ وافـــى لنـــا بالرغائـــبِ[1]

***المناسبات الاجتماعية**

وهنأ الشعراء الملك الناصر بالمناسبات الاجتماعية، ولعلَّ من أبرز هذه المناسبات شفاؤه من مرض أصابه، وقد أوشك فيه على الهلاك، ما جعل الشعراء يعتصرون قرائحهم، ويجيـــدون أشعارهم، لفرحتهم بامتثاله للشفاء، وفي ذلك إدراك منهم باستمرارية عطائه وهباته لهم.

ومن ذلك ما قاله البهاء زهير يهنئه ويهنئ دمشق وسائر المدن التي فرحت معها، وحفَّ السرورُ الوجود كله بأزهاره وأشجاره وطيوره وأنهاره، كما في قوله:

لـــيهن دمشـــقَ اليـــومَ صـــحّتُك التـــي   بها فرحـــت والمـــدنُ كالنـــاسِ تفـــرحُ
فـــلا نهـــرُ إلا ضـــاحكٌ متعطِّـــفٌ   ولا دوحُ إلا مـــــائِسٌ متـــــرنِّحُ
ولا غصـــنُ إلا وهـــوَ نشـــوانُ راقـــصٌ   ولا طيـــرُ إلا وهـــوَ فرحـــانُ يصـــدحُ
وقـــد أشـــرقتْ أقطارهـــا فاغتـــدى لهـــا   شـــعاعٌ لـــه فـــوقَ المجـــرَّةِ مطـــرحُ
وشـــرّفتَ معناهـــا فلـــو أمكـــنَ الـــورَى   لطـــافوا بأركـــانٍ لهـــا وتمسَّـــحوا[2]

ويمزج شرف الدين الأنصاري في تهنئته الملك الناصر بين فرحي الشفاء والعافية، وبين فرحة شهر الصيام، ويدعو له بالسلامة والمنى والطمأنينة، ويمدحه بما هو أهله، كما في قوله:

حُوشيتَ مـــن مـــرضٍ يُؤذيـــكَ حُوشـــيتَ   وبـــالمُنى وبشـــهر الصـــومِ مُنِّيتـــا
ولا برحـــتَ قريـــرَ العـــيْنِ فـــي دَعَـــةٍ   تُشـــتِّتُ الجَـــوْرَ والإقتـــارَ تشْـــتيتا
يا أيُّهـــا الناصـــرُ الملـــكُ الـــذي قُهِـــرتْ   به الملوكُ فأضحى عَيْشُـــها قوتـــا[3] [4]

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص256. الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص338.

(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص46. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص150. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص50-51. 51.

(3) القوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. **المعجم الوسيط**: مادة قوت.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص147-148. الأنصاري: **الديوان**، ص101.

وشارك الشعراء بالتهنئة بعرس الملك الناصر سنة 652هـ، وممن أجاد في هذه المناسبة سيف الدين المشدّ، وقد هنأه بالعرس وبالعام الجديد؛ إذ نوَّع في أغراضه الشعرية، وجاء فيها قوله:

باكرْ كُؤوسَ المُدامِ واشربْ واستجْلِ وجْه الحبيب واشربْ
من يد ساقٍ له رُضابٌ كالشَّهْدِ لا بل جناه أطيب
تهنَّ عاماً أتى جديداً بكلِّ ما يُرتجى ويُطلبْ
وعشْ لأمثالهِ مطاعاً ما لاحَ عند الصَّباح كوكبْ[1]

*** مناسبات أخرى:**

للسفر والوداع نصيب من الشعر، لما يوقعه في النفس من لوعة الفراق والاشتياق، هذا ما أفصح عنه الصاحب عبد الرحمن بن العديم، في وداعه الملك الناصر، وقد صعب عليه هذا اليومُ، فيطلب من رفقائه التمهل، لعلّه يحظى بوافر النظر للملك الناصر، وبتقبيل أرض العزة ويرويها بدمعه الغزير، ويذكر أن الجسد فارق، ولكنّ الروح والفؤاد حلاّ في كنف الناصر، ثمَّ يقسم له بالعودة للأيام السعيدة الخوالي، وبنسيان الأيام الذميمة التي لم يحظ فيها برؤيته، وهذا يتجلى في قوله:

أقولُ لصحبي حين ساروا ترفَّقوا لعلّي أرى من الجنابِ الممنَّعِ
وألْثُمُ أرضاً يُنْبتُ العزَّ ترْبُها وأسفي ثراها من سحائِبِ أدمعي
وينظُرُ طرْفي أين أتْركُ مهْجتي قدْ أقسمتْ أن لا تسيرَ غداً معي
وما أنا إنْ خلَّفْتُها متأسِّفاً عليها وقدْ حلَّتْ بأكرمِ موضِعي
يميناً بمن ودَّعْتُهُ ومدامِعي تفيضُ وقلبي للفراق مودِّعي
لئن عاد لي يومٌ بِمُنْعَرجِ اللِّوى وأصبح سرّي فيه غيرَ مروِّعي
غفرْتُ ذنوبا أسلفتْها يدُ النّوى ولمْ أشكُ من جَوْرِ الزَّمانِ المُضيِّعِ
وسُرَّتْ آمالي بيومِ لقائِنا ومتَّعْتُ طرفي بالحبيبِ ومسْمعي

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص107-108.

وفارقْـــــتُ أيامـــــاً تولّــــتْ ذميمـــــةً وقلــتُ لأيـــامِ السُّـــرورِ ألا ارْجِعـــي[1]

وأخيرا فمن الجدير بالذكر أنَّ قصائد شعر المناسبات بُدئت بما بدأت به قصائد المــديح من حيث المقدمة التقليدية الغزلية، أو ذكر الخمرة ووصفها، أو وصف الطبيعة، فقد جاءت هــذه القصائد – على الأغلب- مستقلة بذاتها، ولم تأتِ ضمن قصائد المديح، أو الأغراض الأخــرى، وربما جاءت التهنئة في سياق شعر الحنين لحلب الشهباء، بل كان الشعراء يمزجون بين التهاني نفسها، كالتهنئة في شهر رمضان، من جهة، والشفاء، من جهة ثانية. أو بــين تهنئتــه بالشــفاء وفتحه لدمشق، وبين تهنئته بالعرس وبالعام الجديد، أما مناسبة السفر والوداع، فكانت على ذات الغرض، خالية من المقدمة التقليدية.

5) الوصف

عرَّفه قدامة بن جعفر بقوله:" الوصف إنما هو ذكر الشيء كمــا فيــه مــن الأحــوال والهيئات"[2]. والشاعر العربي طيلة حياته في الصحراء يواكب الطبيعةَ بكل مظاهرها، بســمائها وأرضها، ويحاكيها محاكاة فنية، فهو " يستمدُّ مواضيعه من طبيعة بيئته، يتأثَّر بها ويؤثر فيهــا، محاولاً أبداً أن يعبِّر عن تأثيره وتأثُّره"[3].

والشاعر في وصفه الجيد للأشياء إنما هو يحاكي الموصوف، ويقربــه للــذهن حتــى يتراءى للسامع[4]، فهو" فنان عبقري رسم، وصور، ووصف بالكلمات ما رآه وما أحسه في بيئته ونفسه... لذلك كان الوصف من أقدم فنون الشعر"[5].

لقد وصف شعراء الملك الناصر كل شيءٍ استهوته نفوسهم وشاهدته أعينهم، ابتداء مــن الطبيعة الساحرة التي خُصَّتْ بها بلاد الشام، بما فيها من مناخ جميل ورياض وبساتين وأنهــار

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص311-312. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج21، ص178.
(2) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص130.
(3) حاوي، إيليا: **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980، ص20.
(4) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي عند العرب**، ص277.
(5) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص137.

وطيور، ومظاهر الحضارة والتمدن، بما فيها من العمران، ومجالس الأنس والطرب، ووسائل اللهو.

والملاحظ أن شعراء الملك الناصر لم يخصصوا للوصف قصائد أو مقطوعات بمعزل عن أي غرض آخر، بل جاء ضمن قصائدهم متعددة الأغراض، وغالباً ما يأتي مع شعر المديح، الذي زاحم معظم موضوعات أشعارهم، فشرف الدين الأنصاري يصف مدينة دمشق في سياق مدحه الملك الناصر، فهي موطن الأفراح، يستهويها الوافدون، لطبيعتها الخلابة، ذات الأنهار الجارية، وهوائها العاطر وأزهارها، وطيورها المغردة بأعذب الأصوات، فضلا على أنها سكن الملك الناصر، كما يبدو في قوله:

ومَوْطنُ أفراحنا جِلَّقٌ ... وسلطاننا الملك الناصرُ
مقرٌّ يلذُّ به النازلونَ ... وملكٌ يعزُّ به الزائرُ
فأنهارها جارياتُ الرَّحيق ... وبحرٌ مواهبُهُ زاخرُ
ويفضحُ ريّا رُباها العبيرُ ... ويفضحُها نشْرُه العاطرُ
لنا من أزهارِها أنْجُمٌ ... ومن وجْهه قمرٌ زاهرُ
وتصدح أطيارُها باللُّحونِ ... ويُعربُ عن مدحه الشاعرُ
وأنسُ المقيمِ بها كاملٌ ... وحظُّ المُرجِّي له وافرُ(1)

وربط نور الدين الإسعردي جمال دمشق وبهجتها بوجود الناصر فيها، إذ قال:

لمْ تُسْلِني عن مغانيكُم وساكنها دمشقُ ... هيهاتَ أنتمْ منتهى أرَبي
لا تتكِروا لمقامي بعد بينِكمُ بها ... فلولا صلاحُ الدين لم تطِبِ(2)

ووصف سيف الدين المشد مظاهر الطبيعة الجميلة، فصوّر الرياض المنيرة بأشعة الشمس، وعرَّج على صورة الصباح يتنفس بتلاشي الليل، ووصف حركة البدر في السماء وسط النجوم، كما يبدو في قوله:

---

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص221-222.

(2) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص389، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة7.

أمـــا تـــرى الـــرَّوْضَ فـــي مُـــلاةٍ   طرازُهـــــا بالنَّهـــــارِ مُـــــذْهبْ
واللَّيْـــــلُ دبَّ الصَّـــــباحُ فيـــــهِ   كأنَّـــــــهُ عنبـــــــرٌ تعشَّـــــــبْ
والبـــــدْرُ بـــــينَ النُّجـــــومِ يســـــري   مـــن جانبيـــهِ البـــروقُ خُلَّـــبْ [1] [2]

ويصوّر المشدّ الأمطار الغزيرة المنهمرة في الغور سنة653هـ، في صورة فنية استحضر خلالها أنهار دمشق العذبة المتدفقة، التي جادت بمياهها على الغور، كما يبدو في قوله:

كـــأنَّ جِلَّـــقَ حيّـــا اللهُ ســـاكنَها   أهدت إلى الغـورِ مـن أنهارهـا مـددَا
فاسترسـلَ الجـوّ [3] مُـنْهلاً يزيـدُ علـى   ثُوْرا ويعقِدُ محلـولَ النَّـدى بَـرَدَى [4] [5]

ووصف كمال الدين بن العجمي البرق والسحاب، وصور البرق غرةً بيضاء في لمعانه للسحاب الأسود " الذي يخفي وجه السماء حاملاً معه الماء إلى الرياض ليكسوها خضرة يانعة وأزهاراً فتّانةً"[6]، في صورة فنية جعلت سهام البرق تصيب الأرض القاحلة فتحيلها رياضاً منيرة، وكست الأزهار منها وجه الأرض، وألبستها أبهى الحلل، يخضّب خدَّها نهر دفّاق، كما يبدو في قوله:

وأدْهـمَ صـهّالٍ لـه البـرقُ غـرّةٌ   تضـيءُ ومنـهُ للجنـوبِ خبيـبُ
وأوطف[7]مـن نـورِ السـماكين[8]مغـدِقٌ   سـميرُ الصّـبا يهمـي بهـا ويصـوبُ
إذا فُوِّقَـتْ منـهُ سـهامُ بروقـهِ   رمى الجدبَ عن قوسِ الحيـا فيصـيبُ

---

(1) الخُلَّبُ: السحابُ يومضُ برقه حتى يُرجى مطره، ثمَّ يُخلفُ ويتقشَّعُ. **المعجم الوسيط:** مادة خلب.

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص108.

(3) الجوّ: في اللغة ما اتسع من الأودية، والمنخفض من الأرض. انظر ياقوت الحمزي: **معجم البلـدان**، ج2، ص220. ص220. ابن منظور: **لسان العرب:** مادة جوا.

(4) بردى نهر في دمشق، ويزيد وثَوْرا من روافده. انظر ياقوت الحموي: **معجـم البلـدان**، ج1، ص450. الحميـري: **الروض المعطار**، ص238.

(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص355.

(6) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص138.

(7) وطف المطر : انهمر، ووطفت السحابة: تدلّت ذيولها، فهو أوطف، وهي وطفاء. وعام أوطف: كثير الخير مخصب، مخصب، وظلام أوطف: مُلبس دانٍ محيط. **المعجم الوسيط:** مادة وطف.

(8) السِّماكان: نجمان نيّران، أحدهما في الشمال وهو السِّماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السِّماك الأعزل. **المعجم الوسيط:** مادة سمك.

إلـــى أن تبـــدَّى فـــي ســـماءِ رياضِـــها   كواكـــبُ نـــورٍ مـــا لهُـــنَّ غـــروبُ
ويعْـــــتمُّ بـــــالنَّوارِ هـــــامُ هِضـــــابها   ويلـــبِسُ بُـــرْدَ النَّبـــتِ وهـــو قشـــيبُ
ويصْـــقلُ خـــدَّ الأرضِ بـــينَ خلالهـــا   مـــن النَّهْـــر كـــفٌ للرَّبيـــعِ خضـــيبُ[1]

ويصف النور الإسعردي بستانا خصيباً بالأمطار كثيف الأشجار والأزهـار، إذ اعتمـد تشخيص مظاهر الطبيعة في صورته الفنية، فالرياح لها أيدٍ، وشقائق النعمان تميل طرباً، وزهر الأقاح يقبل خد الأرض فاحمر من الخجل، والغيم يبكي، والأزهار تضحك، وتكشف عن جمالها الفتان، وهذا يتجلى في قوله:

شـــقَّتْ جُيُـــوبَ شـــقيقِها أيـــدي الصَّـــبا   طربـــــاً فمـــــاسَ بحُلَّـــــةٍ خضـــــراءِ
وغـــــدا الأقـــــاحُ مُقـــــبِّلاً وجَناتِـــــهِ   فـــاحْمرَّ مـــن خجـــلٍ وفَـــرْطِ حيـــاءِ
وتبسَّـــــمَ النُّـــــوّارُ لمّـــــا أن بكـــــتْ   فيهـــا عُيـــونُ السُّـــحْبِ بـــالأنواءِ
والنَّـــرْجِسُ الغـــضُّ البهـــيجُ مشـــمِّرٌ   عنْ ســـاقهِ يـــدعو إلـــى الصَّـــهْباءِ[2] [3]

ووصف الشعراء الحيوان في قصائدهم، فحظيت الحيوانات الأليفة بنصيب الأسـد فـي أشعارهم، وأما المفترسة، فكان حظها قليلاً، فالنور الإسعردي ذكر أسماء بعضها في رحلة صيدٍ مع الملك الناصر، ووصف ضبعا قتله ممدوحه، وقد تجلبب بدمائه، ما جعل الحيوانات الأخرى تنفر منه، وتخشاه، واحتمى النسر بقمم الجبال، وجاء ذلك في معرض مديحه الناصر، ووصـف سطوته، كما يبدو في قوله:

ولمّـــا رميـــتَ الضَّـــبعَ فارْتَـــدَّ واقفـــاً   وجلْبابُـــــهُ المِسْـــــودُّ خُلِّـــــقَ بالـــــدَّمِ
رأى النَّسْـــرُ مـــا لاقـــى قـــدومكَ طـــائراً   إلى الفَلَكِ الأعلى مـــن المـــوتِ يحتمـــي
فخِلْنـــاكَ بـــدْراً تحتـــهُ البـــرقُ ســـائراً   رمى اللَّيل عمْداً مـــن هـــلالٍ بـــأنجُمِ[4]

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص366-367.
(2) الصهباء: الخمْر سميت بذلك للونها. **لسان العرب**: مادة صهب.
(3) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص58، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة82.
(4) المرجع السابق: ص59، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة309.

وجاء وصف الحيوان في معرض الحديث عن ملاهي الناصر في الصيد، فأبو عبد الله الكندي يصف صيد الملك الناصر لطائر الكُيِّ، فسهمه الماضي لم يخطئ أبداً، بل أصاب قلوب أعدائه أيضاً، كما يبدو في قوله:

كويْتَ قلوبَ من عاداكَ كيّاً بصرْعِ الكُيِّ لمّا إن تهيَّا
وسهمٍ لم يُفوَّقْ يومَ حربٍ فأخطأ لا ومولانا عليَّا
كأنَّ مجرَّةَ الأفلاكِ قوسٌ بكَفِّكَ أوْ بنادقُهُ الثُّريَّا[1]

وكانت معالم الحضارة العمرانية " تحت مرمى بصر شاعر العصر"[2]، فوصف الشعراء الشعراء قصر الملك الناصر المسمى "دارَ رضوان"[3] الذي أنشأه في قلعة دمشق، فتحدثوا عن عظمته، وإتقان صنعه، كما يبدو في قول نور الدين الإسعردي:

بناءٌ عن العلياءِ يُعربُ والمجدِ أُقيمَ مقامَ الشَّمسِ في طالع السَّعْدِ
معاني مغانيها تُرينا بدائعاً تجلّ عن الوصفِ البديعِ بما تُجْدي
تُصوِّر لي منها التَّصاويرُ أنَّها لها حركاتٌ معرباتٌ عن القَصْدِ
تجمَّعَ فيها كلُّ حُسْنٍ مفرَّقٍ وألَّف فيها عدْلُهُ الضِّدُّ بالضِّدِّ[4]

ومما يكشف جمال دار رضوان ما رواه الكتبي: أن الملك الناصر دخل على المظفر الذهبي[5] "وهو بقلعة دمشق يذهِّب في دار رضوان، فقال له: ما تصنع يا تاج؟ فقال يا خوند، أنا بالنهار أذهِّبُ البنا، وفي الليل أذهّب الثنا، وقال شعراً:

يا حاتمَ الجودِ بل يا يوسفَ الثاني اشفع فديْتُكَ إحساناً بإحسانِ
ماذا أقولُ وعكسُ الحالِ صيَّرني يا مالكي أحرقتْني دارُ رِضوانِ[6]

---

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص271.
(2) يوسف: **الشعر العربي أيام المماليك**، ص504.
(3) ورد باسم قاعة رضوان في الحديث عن كمال الدين بن العديم. انظر الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص279.
(4) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص80، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة40.
(5) "مظفر بن محاسن بن علي تاج الدين الموصلي الأصل الدمشقي المولد الذهبي (607-686هـ)، قال أثير الدين أبو أبو حيان: استعرت ديوانه منه وكتبت من كثيرا مما اخترته، خدم بالقلعة في دمشق للمك الناصر". الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص519-520.
(6) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص520.

ولعبة الشطرنج من المظاهر الحضارية التي وصفها الشعراء، إذ جمع النور الإسعردي بين وصفه لها، ومديح الملك الناصر في قصيدة له، يقول فيها:

أعجِبْـــتُ إذ لاعبـــتُ بالشَّـــطْرَنْجِ مَـــنْ أهـــوى فأبـــدى خـــدُّهُ توْريـــدا
وغـــدا لفَـــرطِ الفكْـــرِ يضْـــربُ أرْضَـــهُ بقِطاعهـــا لمّـــا انثنـــى مجهـــودا
فطفِقْـــتُ أنشِـــدهُ هنـــاكَ مُعرِّضـــاً وجـــوانِحي فيـــهِ تـــذوبُ صُـــدودا
رفْقـــاً بهـــنَّ فمـــا خُلِقْـــنَ حديـــدا أومـــا تراهـــا أعظمـــاً وجلـــودا[1]

6) الخمريات

ظهر شعر الخمر منذ القدم، ابتداءً بالشعراء الجاهليين، وزخر ديوان العرب بـــالكثير مـــن القصائد والمقطّعات التي قيلت في الخمر، من حيث ذكر أوصافها، وتأثيرها في الإنسان، فكان شعر الخمر عندهم حجر الأساس الذي بنى عليه شعراء العصور اللاحقة خمرياتهم[2].

"وقد ضعف شعر الخمر في بدء الإسلام الحنيف الذي حرمه، ثم دبت فيه روح الحيـــاة من جديد في العصر الأموي على يد الأخطل، والوليد بن يزيد، وفي العصر العباسي بوســـاطة أبي نواس وجماعته، حتى غدا باباً مهماً من أبواب الشعر العربي"[3].

وكان شعراء الملك الناصر –شأنهم شأن كثير من شعراء العصر– ممـــن طـــرق هـــذا الباب، وصنف الكثير من الأشعار فيه. وصدَّروا به قصائدهم ومقطعاتهم بمختلـــف الأغـــراض الشعرية لاسيما المدح، إما من باب محاكاة واقعهم، أو من باب التقليد وإظهار القدرة الفنية على ذلك.

وكان للحياة الاجتماعية السائدة دور في شيوع الخمر وتعاطيها، وتداولها بـــين النـــاس، فضلا عن الطبيعة الساحرة لبلاد الشام، وانتشار الكنائس والحانات والحدائق العامة، التي انزوى بها ولاذ إليها متعاطو الخمر وشاربوها، وكانت الخمر وما يتبعها من المجون والانغمـــاس فـــي

---

(1) انظر الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص60. نقلا عن مخطوطة الديوان، ورقة 62.
(2) انظر يوسف: **الشعر العربي أيام المماليك**، ص449.
(3) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص123.

اللذات حديثاً مستظرفاً، يجنح إليه معظم الناس على اختلاف طبقاتهم[1]. بل إن أرباب الدولة من من الملوك والحكام شربوها في مجالس أنسهم وطربهم، وكان الملك الناصر أحد هؤلاء؛ إذ اتسم عهده بانتشار الخمر، وارتكاب الفواحش في مملكته رغم ما اتصف به من مكارم الأخلاق وحسن السيرة[2].

وكان للنصارى تأثير سلبي في المجتمع ودور فاعل في إغراء الناس بشربها ومعاقرتها، ويبدو أنهم كانوا يقدمونها في كنائسهم وأديرتهم، ويُستشفُّ ذلك من شعر عون الدين بن العجمي، الذي كان واحداً من بين الشعراء الزائرين لهذه الأماكن للاستمتاع بما فيها من نساء وغلمان وخمور، فقد وردت في قصائده ألفاظ خاصة بالنصارى كالدير، والقسيس والمطران، والراهب، وفي حديثه عن الخمر من حيث وصفها، ووصف تأثيرها في النفوس أنها تُحيي النفوس، وتقذف الهموم بعيدا عن صاحبها، بعد شرب لها استمر حتى الصباح، كما يبدو في قوله:

واعبُرْ بديرِ حنينا وانتهزْ فُرصَ اللْـ ... لَذاتِ ما بينَ قِسّيسٍ ومُطرانِ
واستجْلِ راحاً بها تحيا النُّفوسُ إذا ... دارتْ براحِ شماميسٍ ورهبانِ
حمراءَ صفراءَ بعد المزْجِ كمْ قذفتْ ... بشُهْبِها من همومي كلَّ شيطانِ
كم رُحْتُ في الليلِ أسقيها وأشربها ... حتى انقضى ونديمي غيرُ نَدْمانِ[3]

ويتحدث ابن حواري التنوخي عن ارتياده وأصحابه هذه الأديرة، وشربه الخمور فيها، مستخدما أسلوب الحوار الذي دار بينهم وبين راهب قدّمها لهم، معْتدّاً بقِدمها وجودة طعمها، ولونها المشع كالشمسِ، وهو إذ صمَّ أذُنيْهِ عن سماع اللائمين الذين يصدونه عن شربها وتعاطيها، خلص بنتيجة مفادها أن العمر قصير، فلا بدَّ من اغتنام الساعات وقضائها بالملذّات والمسرّات، كما يبدو في قوله:

ورُبَّ ديْرٍ طرقْنا بابهُ سَحَراً ... وللنَّواقيسِ في أعلاهُ أصواتُ

---

(1) انظر باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص518.

(2) انظر اليافعي: **مرآة الجنان**، ج4، ص152. الصالحي: **القلائد الجوهرية**، ج1، ص147. ابن العماد: **شذرات الذهب**، ج7، ص519.

(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص242. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص453. **عيون التواريخ**، ج20، ص177. ص177.

فقـــال راهِبُـــهُ مـــن ذا فقلـــتُ لـــه   قومٌ إليْـكَ لهـم فـي الـدّيْرِ حاجـاتُ
فقـــام يســـعى إلـــى إكرامِنـــا عجِـــلا   وقال بُشـرى لكـم عنـدي المسـرّاتُ
هـــذي المُـــدامُ التـــي كانـــت مُعتّقـــةً   من قبلِ مـا سـمتِ الأرضَ السـماواتُ
فيـا عـذولي إلـى كـم ذا تلـوم علـى   شُربِ المُـدامِ ومـا تُجـدي الملامـاتُ
بـاكرْ إلـى اللّهـوِ واللّـذّات واغتـنم الأ   وقـاتَ إنَّ سِـنِيَّ العمْـرِ سـاعاتُ
واشربْ على وجهِ مـن تهـوى مُشعْشَـعةً   بنورهـا تهتـدي الزُّهْـرُ المُنيـراتُ[1]

ويلاحظ من خلال القصيدتين السابقتين تأثر قائليهـا بمدرسـة أبـي نـواس بـالخمر، ومغامراته الخمرية، والجدير بالذكر أن " الخمرة اقترن ذكرها بالأديرة والصوامع كثيـراً فـي الشعر العربي، وفي شعر عصور الدول المتتابعة بشكل خاص"[2].

والخمر تربة خصبة لشعر الوصف؛ إذ كان الشعراء يصفونها بألوانها المشـعة، ومـا يحويها من الكؤوس والأقداح، ويصفون ساقيها ذا الخصر الأهيـف، والقـدِّ الرقيـق، والوجـه الحسن، كما يبدو في قول ابن حوارى الحنفي التنوخي:

راحـاً تريـك مـن الأفـراحِ سـلْطنةً   لهـا علـى الهـمِّ والأحـزانِ غـاراتُ
كأنَّهـا الشـمسُ نـوراً والمـديرُ لهـا   بـدْرُ الدَّجنَّـةِ والأقـداحُ هـالاتُ[3]

وجمع الشعراء بين الخمر والغزل من ناحية، وبين الخمرة والوصف من ناحية أخـرى وبرز هذا المزج في قصيدة المديح، فلا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة مدح بها سيف الدين المشد الملك الناصر إلا وذكرت فيها الخمر. فهذا كمال الدين بن الأعمى يخاطب صـاحبيه، ويطلـب منهما أن يسقياه الخمر ممزوجة باسم الناصر، وأن لا يحزنا بعد موته، فعطاء الناصر سـيبعث فيه الحياة من جديد، كما يبدو في قوله:

يـا خليلـيَّ خلِّيـاني ووجْـدي   وامزِجـا لـي بـذكْرِهِ واسـقِياني

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص411-412.
(2) الأنصاري: **الديوان**، ص192.
(3) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص412.

وإذا مــا قضــيْتُ ســكْراً مــن الوجْــــ دِ فــــلا تحْزنــــا ولا تــــدْفِناني
فأيـــادي ذا الناصـــرِ الملْـــكِ تُحييــــ نـــي كإحْيـــاءِ النَّـــدى وهـــوَ فـــاني[1]

ويهنئ سيف الدين المشد الملك الناصر بعيد النحر، طالبا منه شرب الخمرة، وواصـــفا له أصالة مذاقها وصفاءها، وعرّج على ساقيها، فوصفه حسن الوجه، أهيف الخصـــر، متمـــايلاً برقة وتؤدةٍ، يقول:

اشــــربْ هنيئــــاً صــــبيحة العيــــد بــــين غنــــاءٍ وبــــينَ تغْريــــدِ
سُــلافَ راحٍ مــن قبْــلِ مــا عُصِــرتْ روَّقهــــا الكــــرمُ فــــي العناقيــــدِ
فاكتســــت رقّــــةَ الصَّــــبا وروتْ لطافــــةَ المُــــزنِ بالأســــانيدِ
يســــعى بهــــا أهيــــفٌ تمائلــــهُ أحســــنُ مــــن هــــزَّة الأماليــــدِ
مقلَّــــدٌ بالعــــذار عارضُــــه ألْقــــى لــــه الحســــنُ بالمقاليــــدِ[2]

ويمزج المشد مرة أخرى بين الخمرة والمديح، فيصف كأسها مشعاً كـــاللؤلؤ، ويتحـــدث عن طيب مذاقها، وجمال ساقيها، وأثره في النفوس، كما في قوله:

شِــمتُ فــي الكــأسِ لؤلــؤاً منْثــورا حــينَ أضــحى مزاجُهــا كــافورا
وتوسَّــمْتُ حامــلَ الــرّاحِ فــي اللّيْــ ـلِ هــلالاً يجلــو ســراجاً منيــرا
قمــرٌ مــا يــزالُ يُهْــدي لقلْبــي ولعيْنــيَّ نظْــرةً وسُــرورا[3]

ويصف النور الإسعردي الكأس التي تشرب فيها، ويجعلها إنساناً يتكلم، ويصورها وردة في الأيدي، واصفاً تناولها وتداولها بين الجلساء في مجلس الأنس واللّهو، كما يبدو في قوله:

أنــا فــي يمينــي هالــةٌ أجْلــو بهــا بــينَ النُّجــومِ لكــمْ شــموسَ الأكْــؤُسِ
لــي راحــةٌ مقبوضــةٌ مــع أنَّهــا كــمْ راحــةٍ فيهــا لبسْــطِ الأنْفُــسِ
كــأنَّني غُصْــنٌ تبــدَّتْ وردةٌ من فَرْعــه حيــثُ نــدامى المجْلــسِ[4]

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص141. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص193.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص369.
(3) المصدر السابق: ص357.
(4) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص81، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة82.

ويقدم سيف الدين المشد النصيحة بشربها، في مجلس الطرب والغناء، لأنها الدواء لكل داء، ويطلب من الساقي مباكرته بها، واصفاً إياه بطيب الرُّضاب، متأثراً بمدرسة أبي نواس، فيقول:

بـاكِرْ كـؤوسَ المُـدامِ واشـربْ | واسْـتجلِ وجْـهَ الحبيـبِ واطْـربْ
ولا تخـفْ للهُمـومِ داءً | فهْـيَ دواءٌ لـهُ مُجـرَّبْ
مـن يـدِ سـاقٍ لـه رُضـابٌ | كالشَّـهْدِ لا بـلْ جنـاهُ أطيـبْ[1]

ويفضل السيف المشد ارتشاف الخمرة وقت الصباح في غير موضع في قصائده، حيث تصفو الحياة بصفائها، وتخلو النفس من همومها، طالباً التروّي من لائميه على شربها والمنادمة بها، كما يبدو في قوله:

أدِرْ كُـؤوسَ الـراّحِ عنـد الصَّـباحْ | فإنَّمـا اللّـذَّةُ فـي الاصـطباحْ
فـانهضْ إلـى صـافيةٍ لـمْ تـزلْ | يصْـفو بهـا العـيْشُ ويحْلـو المِـزاحْ
وقـلْ لمـن لام عليهـا اتَّئـدْ | ليسَ علـى طـاردِ هـمٍّ مـن جُنـاحْ[2]

7) الشوق والحنين والغربة

فطر الله الإنسان على الشوق والحنين، سواء أكان هذا الشوق والحنين للوطن أم للأشخاص من الأهل والأحباب، " فإذا ما اغترب عن وطنه الذي تشدّه به أواصر قوية، شعر بالحنين إليه، وكأن دافعاً يدفعه إلى العودة إليه، وقد تتنازعه مشاعر متباينة بين العودة إلى الوطن، والإقامة في البلد الذي رحل إليه، من أجل غاية في نفسه"[3]، كالرحلة في طلب العلم والتأليف، أو في طلب المال والجاه، وغير ذلك من مآرب النفس.

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص107.
(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص257.
(3) عبد المهدي، عبد الجليل حسن: **الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري**، ط1، عمان، مكتبة الأقصى، 1397هـ/1977م، ص151.

وربما يكون الإنسان مكرها على الرحيل عن بلده، كما حدث مع الملك الناصر إذ غادر دار ملكه أسيراً مع التتار عنوةً وقصراً، فكانت " غربته ممزوجة بألم ممض، وكأنه سلاح ذو حدين، وكلاهما مؤلم، يتمثل أحدهما في البعد عن الوطن، وثانيهما في المحنة النازلة به"[1]. وكما حدث مع سيف الدين السامري الذي رحل عن بغداد عنوة، بعد استيلاء التتار عليها، ومقتل الخليفة المستعصم؛ إذ كان السامري أحد جلساء الخليفة المستعصم بالله وندمائه، ووزيره مؤيد الدين بن العلقمي[2].

"والعربي منذ الجاهلية أحب أرضه، وحنّ إليها مشتاقاً كلما اضطر للابتعاد عنها، وسال هذا الشعور الأصيل شعراً رائقاً صادقاً غزيراً على لسانه"[3].

كان لشعراء الملك الناصر – المقيمين أو الوافدين– نصيبٌ في هذا الغرض من الشعر، سواء ما جاء ضمن غرض المديح، أم ما جاء مستقلاًبذاته، فقد تشوقوا، وحنوا، وشكوْا الغربة والبعد. فهذا كمال الدين بن العجمي يقدم تعليلا واضحا لهذا الشوق والحنين، إذ قال:

فلتِلكَ أوطاني ومعهدُ أُسرتي   ومقرُّ أحبابي ومجمعُ ناسي
ليسَ الفؤادُ وإن تناءَتْ سالياً   عنها ولا لعهودِها بالناسي[4]

ويشتاق كمال الدين بن العجمي إلى أيام صباه، ويدعو بالسقيا لحلب الشهباء بالمطر المنهلّ، كما في قوله:

منازِلُنا حيثُ المزارُ قريبُ   وداعي الصِّبا يدعو الهوى فيجيبُ
سقى حلباً جفْني رُبوعِكِ باكراً   من المُزْنِ مجرورُ الذُّيولِ سَكوبُ[5]

ويشتاق ابن العجمي للأهل والأحباب في حلب، ولم يزده البعد عنهم إلا حباً واشتياقاً، فلم يزل على العهد والوفاء، صافيَ الحب لهم مهما قربت الدار شط المزار، كما في قوله:

(1) عبد المهدي: **الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري**: ص151.
(2) انظر العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص370.
(3) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص129.
(4) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص669.
(5) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص366–367.

فيا جيرةَ الشهباءِ إن طال نأيُنا وحالتْ حُزونٌ[1] بينَنا وسُهوبُ[2]
وشطَّتْ بقُربِ الدّار والأهل نيةٌ قذوفٌ بنا لا تستقِرُّ شَعوبُ
فحُسنُ الوفا منّي ما عهدتمُ ومن شِيمي هذا فليْسَ عجيبُ
صفوْتُ لكم حبّا على القُربِ والنَّوى فسيّان منكم مشْهدٌ ومغيبُ
وأخلصتُمْ منّي وداداً تصادقتْ لحُسْنِ الصّفا منّي عليهِ قلوبُ[3]

ويشخص ابن العجمي حلبَ، ويجعلها فتاة يتغزل بها، ويستذكر أيامه الخوالي معها؛ إذ حبل الحب موصول بينهما، يجني من داني اللّذات معها دون رقيب أو حسيب، كما في قوله:

وأيامُنا حيثُ الديارُ قريبةٌ ووجْهُ التداني ما علاهُ قطوبُ
ألا هل يعيدُ اللهُ عضْواً قطعتُهُ بظلْمكِ إذْ غصنُ الشبابِ رطيبُ
ونحنُ كما شاءَ الهوى نجتني المُنى وليسَ علينا في الوِصالِ رقيبُ[4]

ولم يتفاءل كمال الدين بن العجمي من زمانه الذي أبعده عن حلب وأهلها، فلا يرى فيه شيئاً من الحسنات، بل كله ذنوب وآثام، كما في قوله:

فليس نعيم بعدكم يا أحبَّتي يَلَذُّ ولا عيشٌ أراهُ يطيبُ
وكلُّ الذي يأتيهِ من حسناته زماني معَ هذا البعادِ ذنوبُ[5]

ويحنُّ نور الدين الإسعردي إلى حلب في أسفاره، ويستسقي لها الغمام، يتخللها نسيم الصَّبا الذي تميل معه الأزهار والغصون، "ولا غرو في ذلك، فإنها مرتعه وملعبه وملهاه ومسرح ذكرياته"[6] مع أحبابه وأقرانه، فلا يزيد البعد عن الأوطان النفسَ إلا تعباً ونصباً، هذا ما ما لاقاه نور الدين الإسعردي في غربته، فقال:

أمنْزلَ اللَّهْوِ والأترابِ من حلبٍ سقى ربوعَكَ هطّالٌ من السُّحُبِ

---

(1) الحزون جمع حزْن وهو ما غلظ من الأرض. **المعجم الوسيط:** مادة حزن.
(2) السهوب جمع سهب، وهي الفلاة، وما بعد من الأرض واستوى في سهولة. **المعجم الوسيط:** مادة سهب.
(3) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص367.
(4) المصدر السابق: ج20، ص367.
(5) المصدر السابق: ج20، ص367.
(6) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص129.

وباكرتْكَ الصَّبا سَكْرى تجُرُّ على || تلكَ الريافي ذُيولاً مِلْنَ بالقُضُبِ
للهِ يا جيرةَ الشَّهباء ما لقيتْ || لِبُعدكمْ مُهْجي من زائدِ الوصَبِ[1]

وأهدى سيف الدين السامرّي أشواقه إلى أهله في العراق عبر وميض البرق وهبات النسيم، وراح يشرح لهم حاله في ديار الغربة، بعدما فارقهم، فالعيون باكية ساهرة، والقلب يحترق من لوعته، ثم يعاود ويحمّل ريح الشمال تحياته إلى وطنه، باثّاً همومه معها، وهذا ما عبّر عنه في قوله:

أترى وميضَ البارقِ الخَفّاقِ || يُهدي إلى أهلِ الحمى أشواقي
ولعلَّ أنفاسَ النسيمِ إذا سرى || يحكي تحيَّةَ مُغرمٍ مُشْتاقِ
أحبابنا ما آنَ بعدَ فراقكمْ || أن تسمَحوا لمُحبِّكمْ بتلاقي
بنْتمْ فضنَّتْ بالرّقاد نواظري || أسفاً وجادتْ بالدُّموعِ مآقي
أجْريْتُ من جفْني على أطلالكمْ || دمعاً غدا وقْفاً على الإطلاقِ
بين الدُّموعِ وحرِّ نارِ جوانِحي || عُذِّبْتُ بالإغراقِ والإحْراقِ
باللّه يا ريحَ الشمالِ تحمَّلي || واقْري سلامَ الوالهِ المُشْتاقِ
وإذا مررتِ على الدِّيارِ فبلِّغي || أهلَ الكثيبِ بكُلِّ ما أنا لاقي[2]

ويتشوق ابن حوارى التنوخي لدمشق، ويحنّ لأيامه السعيدة فيها، وقضائه أجمل الأوقات في حدائقها ومتنزهاتها، كما في قوله:

فللَّه ليلاتٌ تقضَّتْ حميدةً || بجِلِّقِ الفيحاءِ والعيشُ مونِقُ
وأيامنا بالنَّيْربينِ[3] ونورها || مُنيرٌ وأحداقُ الزُّهورِ تُحدِّقُ
يَنُمُّ بها النَّمامُ من حسدٍ لها || ومن طربٍ حيثُ الشَّقيقُ يُشقَّقُ[4]

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص84، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة20.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص175. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص371.
(3) النيرب: قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين من أنزه المواضع، وغالبا ما يوردها الشعراء بلفظ التثنية. **معجم البلدان**، ج5، ص380.
(4) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص222.

وكان لجبل الجوشن، ونهر قويق في حلب منزلةٌ عظيمة عند الشعراء، وقسط وافر من هذا الحنين والاشتياق، يذكرهما كمال الدين بن العجمي، فهو يحن إلى نسمات الجبل، ويطلب إلى الأهل والأحباب أن يخلوا سبيلها ليحمّلها تحيته وأشواقه إليهم، ويتمنى لو يأتيه ويطلق العنان لعينيه في ربوعه الخضراء، وليشرب شربة هنيئة من نهرها، فماؤه أحب المياه إلى قلبه، وهذا يتجلى في قوله:

فخلّوا نسيمَ الريحِ من سفحِ جوشنٍ ... يوافيه منهُ نسمةٌ وهبوبُ
كفى البعدُ أن لا وصلَ غيرُ تحيّةٍ ... تروحُ بها الأرواحُ ثمَّ تؤوبُ
تؤدّي وتأتي بالتّحية بيننا ... شمالٌ إذا عزَّ اللّقا وجنوبُ
أحمِّلها شوقاً سلامي إليكمُ ... فيعْبَقُ منه للجنوبِ جيوبُ
فيا ليت شعري والأماني تعِلَّة ... أيضحى بعيدُ الدار وهو قريبُ
فيسرحُ طرفي في ثنايا جوشنٍ ... بروضٍ رعاهُ العزُّ وهو خصيبُ
وأكرعُ من صافي قويقٍ بموردٍ ... هو الدَّهرُ لي دون المياه حبيبُ[1]

ويتشوق شرف الدين الأنصاري إلى الملك الناصر بعد أن انشغل عن الناس في أمر مهمّ يخصّه، ويقول:

يا ملكاً تخْضعُ الملوكُ له ... إن غابَ عن دارها وإن حضَرا
قد حسدَتْ عينيَ الفؤادَ على ... قُرْبِكَ حتى أطالتِ السَّهرا
ولسْتُ أرضى لعدْلِ مجدِكَ أن ... تُعطي نُضاراً وتمنَعُ النَّظرا[2]

ويحن كمال الدين بن العديم إلى ابنه مجد الدين، الذي سافر إلى مصر، في صورة تشفّ عن لوعة الأب الحاني المتشوق لرؤية فلذة كبده، فالابن غائب عن البصر ولكنّ خياله لا يفارق الفؤاد، ويتمنّى لو هبت ريح الشمال فيبعث معها تحياته إليه، وغاية مناه أن يراه حاضراً عنده، كما يبدو في قوله:

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص367.

(2) الأنصاري: **الديوان**، ص25. ابن المغيزل: **ذيل مفرج الكروب**، ص49–50.

هذا كتابي إلى مـن غـاب عـن نظـري وشخصهُ فـي سـوادِ القلـبِ والبصـرِ
ولا يمـنُّ بـطيـفٍ منــه يطرقنـي عنـدَ المنـامِ ويأتينـي علـى قـدرِ
ولا كتـابٌ لـه يـأتي فأسـمـعُ مـن أنـبائهِ عنْهُ فـيهِ أطـيبَ الخبـرِ
حتى الشمالُ التـي تسـري علـى حلـبٍ ضنَّتْ علـيَّ فلـمْ تخْطـرْ ولـم تسِـرِ
أخصُّـهُ بتحيـاتي وأخْبـرهُ أنـي سـئمتُ مـن التَّرحـالِ والسـفرِ
أبيـتُ أرعـى نجـومَ الليـلِ مكْتئبـاً مُفكِّراً فـي الـذي ألقـى مـن السَّـحرِ
ولـيس لـي أربٌ فـي غيـر رؤيتـهِ وذاك عندي أقصى السـؤلِ والـوَطَرِ(1)

8) **العتاب والاستعطاف والشكوى**

هذه كلمات ثلاثٌ تختلف ألفاظها، ولكن معانيها متداخلة، أما العتاب، فله "طرائق كثيرة، وللناس فيه ضروب مختلفة؛ فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المن والإجحاف"(2)، وأما الشكوى، فهي "كلمة عامة تندرج تحتها معان كثيرة من التوجع والتَّألم بسبب مرض، أو ديْن، أو بعد عن الأوطان طلباً للـرزق، مما يدعو إلى بثِّ الأشجان والبوْح بالأحزان تألُّماً وحسرةً "(3).

" وللشعراء طرقٌ في العتاب كثيرة، منها طرق صحيحة مقبولة في هذا الباب، ومنها ما هو غير سليم في العتاب، وإن كان في غاية الجودة من ناحية المعنى، أما الطرق المقبولة في العتاب، فهي أن يمازج العتابُ الاستعطاف، والإصرار على التمسك ببقـاء الـودِّ، أو يمازجه الاعتذار والاعتراف"(4)، لذا طرق شعراء الملك الناصر هذا الغرض من باب العتاب على تأخير العطاء، ورافق ذلك شكوى ظروف الحياة القاسية، وتردّي الوضع الاقتصادي، واستعطافٌ لحثِّه على السرعة في تحقيق مآربهم وأمانيهم.

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص173-174.
(2) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص80.
(3) الحليبي، محمود بن سعود بن عبد العزيز: **الحركة الأدبية في مجالس هارون الرشيد**، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1428هـ-2008، ج2، ص182.
(4) بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص261.

وكان شعر الاستعطاف في بلاط الملك الناصر ذا طابع شخصيٍّ، " دارت معانيه حول الاسترحام، وطلب العفو، والاستشفاع بكل ما يمكن الاستشفاع به، واللُّجوء إليه في سبيل الوصول إلى أسباب الرِّضا والعفو"[(1)] عن الشاعر صاحب الهفوة أو الزلة.

فقد عاتب هاشم بن محمد الأسدي الملك الناصر على التباطؤ في قضاء حاجته، ووصف خيبة أمله، وعدم محالفته الحظ في الظفر بكل ما يؤمله، على الرغم من نيل الناس حاجاتهم دون سؤال، فكيف بحال من تناقل الظاعنون أشعار مدحه الملك الناصر، ووصلت شهرته الآفاق، فهو لم يبث همومه لأحد غير الملك الناصر، ويستعطفه بتحقيق ما يصبو إليه، ويجبر كسره خوفاً من شماتة الحساد، كما يبدو في قوله:

ومـا لآمـالِ هـذا الصَّـبِّ خائبـةٌ وقلبُـه دون كـلِّ النـاسِ مُنكسـرُ
وجـودُ جـودِكَ قـد عـمَّ الأنـامَ بـلا سُـؤالِ سـؤْلٍ وبالآمـالِ قـد ظفِـروا
فمـا لحظِّـي كخطِّـي نـاقصٌ أكـذا كلُّ المحبـينَ مـا يُقضـى لهـم وطـرُ
حاشـاكَ تُرجـعُ آمـالي مخيَّبـةً وسعر شعري قـد سـارت بـه السِّـيرُ
أو أن يـروحَ حسـودي وهـو مبتسـمٌ جذْلانُ من كونِ كَسْري لـيس ينجبـرُ[(2)]

وتصدر الشكوى من نور الدين الإسعردي؛ إذ عاتب الملك الناصر على عدم تجديده راتبه على الرغم من تجديده عطاء الشعراء الآخرين، كما في قوله:

كـلٌّ لـهُ فـي الصَّـيْفِ رسْـمٌ والشِّـتا مـن كِسـوةٍ فعـلامَ نـوري يخْمُـدُ
جـدَّدْتَ للقـوْمِ الرسـومَ فلِـمْ عفـا رسْمي القـديمُ وحـال منـهُ المعْهـدُ[(3)]

ويشكو نور الدين الإسعردي الفقر، وتردي وضعه المادي في بيتين من الشعر أشبه ما يكونان برسالة نثرية قصيرة تعرض بإيجاز حال صاحبها، كما يبدو في قوله:

العبـدُ فـي حـالٍ كُفيـتَ الأذى ودُمْتَ يـا ملـكَ الـورى ألْـفَ عـامِ

---

(1) الحليبي: **الحركة الأدبية**، ج2، ص203.

(2) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج9، ص114.

(3) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص111، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة32.

فـــــرِّجْ عـــــن العبـــــدِ بإفْراجـــــةٍ		واسلمْ علــى رَغْــمِ العــدى والسَّــلامِ[1]

وعاتب ابن سعيد المغربي الملك الناصر على عدم إعطائه من الزاد ما يبلِّغــه الــديار المقدسة في سفره للحج، إذ قال وأحسن في التعبير عن عتابه:

يـــــا أيُّهــــا الملــــــكُ الــــــذي		نفــــع الزمــــــانُ بـــــه وضَــــــرّْ
أهْـــــديتَ لــــــي التَّشْــــريفَ لـــــــ		ـــــــكنْ دونــــــهُ زادُ السَّـــــفرْ
فكأنّمـــــــا أهْـــــــــديتَ لـــــــــي		فصــــلَ الربيـــعِ بــــلا مطـــــرْ[2]

ويشكو الأمير أبو المظفر[3] حاله للملك الناصر، بعد أن تقــدمت بــه الســن وهــرم، ويستعطفه لقضاء حاجته في سياق مدحه له، فيقول:

يـــا أيهـــا الملـــكُ الميمـــونُ طـــائرُهُ		ومـــن لـــه نِعـــمٌ تنهـــلُّ كـــالمطرِ
جبـــرتَ كسْـــرَ قلـــوبٍ واكتســـبْتَ بهـــا		أجْراً فهـلْ لـكَ فـي جبـرٍ لمُنْكسـرِ
كـــلُّ الأرامـــلِ قـــد قضَّـــيْتُ حـــاجتهمْ		فمـــن لحاجـــةِ هـــذا الأرمـــلِ الـــذَّكَرِ[4]

وجار الدهر على أبي عبد الله الكَندي، ولحق به الضر، فأخذ يستعطف الملــك الناصــر ويشكو إليه حاله، مستلهما المعنى من سورة يوسف عليه السلام، فيقول:

أيا ابــنَ العزيــزِ الناصــرِ الملــكِ الــذي		إذا جار دهــرٌ فهْــوَ بــالجودِ يُنْصــفُ
علـــى بابـــك الميْمـــونِ حلَّـــتْ رحابُنـــا		وقدْ مسَّنا ضُــرٌّ وهــا أنــتَ يوســفُ[5]

ويستعطف البهاء زهير الملك الناصر، ويرجو السماح له بالعودة إلى مصر لرؤية أهله وأولاده، وقد ظفر بعطائه وكرمه، كما يبدو في قوله:

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**: ص214، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة32.

(2) ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص7.

(3) "يوسف بن موسى بن يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب (599–665هـ) من أبناء الملــوك والأســرة الناصرية الصلاحية، كان عالي الهمة، كريم النفس، كثير الحياء، بشوش الوجه، يميل إلى أهل الفضل والأدب ويجالسهم، ويحفظ أنموذجا صالحا من بدائع الأشعار ومحاسنها، وربما سمحت قريحته بالبيتين والثلاثة من الشعر فتأتي كأجود شيء وأملحه". ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص303.

(4) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص303.

(5) المصدر السابق: ج7، ص271.

ولكــــنَّ أطفـــالاً صِـــغاراً ونســـوةً ولا أحـــدٌ غيـــري بهـــم يتلطَّـــفُ

أغـــارُ إذا هـــبَّ النَّســـيمُ علـــيهمُ وقلبـــي لهـــمْ مـــن رحمـــةٍ يترجَّـــفُ

ســـروري أن يبـــدو علـــيهمْ تـــنعُّمٌ وحزنـــي أن يبـــدو علـــيهمْ تقشُّـــفُ

ذخـــرتُ لهـــم لُطـــفَ الإلـــهِ ويوسُـــفاً وواللهِ لا ضـــاعوا ويوســـفُ يوســـفُ[1]

ونظم ابن سعيد المغربي أبياتاً يستعطف بها الملك الناصر، ويستميحه السفر والعودة إلى بلده؛ إذ الأهل والأحباب هناك ينتظرونه، وهذا يتجلى في قوله:

بـــالله يـــا أكـــرمَ مـــن قـــد رأتْ عينـــاي بـــالمغربِ والمشْـــرقِ

انظُـــرْ لقـــولي منصـــفاً مفْكـــرا حينـــاً وعـــوِّقْ بعـــدُ أو أطْلـــقِ

قضَّـــيتُ خيـــرَ العمْـــرِ فـــي أرضِـــكمْ فمتِّعـــوا أهْلـــي بمـــا قـــد بقـــي[2]

ويشكو ابن حوارى الحنفي التنوخي ما لقيه من الحساد الذين تآمروا عليه، وأخرجوه من الضيعة التي أهداها إليه الملك الناصر، متَّكئاً في استعطافه على السنة المطهرة في الرحمة والشفقة على الطيور؛ إذ كان الشاعر يلقب بالهدهد والشحرور عند الملك الناصر، كما يبدو في قوله:

يـــا ناصـــراً أبـــداً عبيـــدَ ولائـــه فالنَّصـــرُ والتأييـــدُ مـــن أنصـــارها

مـــا قـــدْرُ داري فـــي البنـــاءِ فسـعيُهمْ فـــي هـــدمها قـــد زاد فـــي مقـــدارِها

هـــبْ أنَّهـــا إيـــوانُ كســـرى رفعـــةً أو مـــا بجـــودكَ كـــان أصـــلُ قرارهـــا

فاكتـــب بـــأني لا أعـــارضُ كاتبـــاً عَصْـــبٌ يضِـــنُّ علـــيّ فـــي إنكارهـــا

فالنصُّ جـــاء عـــن النبـــيِّ محمـــدِ الـــــ هادي "أقرّوا الطَّيْرَ فـــي أوكارهـــا"[3] [4]

ويشكو سيف الدين المشد إلى الملك الناصر، ويستعطفه لاسترجاع الأرض التي أقطعها له وتسمى نوَىً[5]، مورّياً بمعنى اسم البليدة عن معنى عجم التمر، كما في قوله:

---

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص132.

(2) ابن سعيد: **اختصار القدح المعلى**، ص8.

(3) البيت الأخير مقتبس من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:" أقروا الطير في مكناتها". انظر البيهقي، أبو بكر أحمد أحمد ابن الحسين بن علي: **السنن الكبرى**، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1356هـ، ج9، ص311. كتاب الضحايا.

(4) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص380. **عيون التواريخ**، ج20، ص415.

(5) نوى: بليدة من أعمال حوران، وقيل: هي قصبتها، بينها وبين دمشق منزلان. ياقوت الحموي: **معجم البلـدان**، ج5، ص353.

يـــا أيهـــا الملــــك الــــذي إيثـــارهُ يســـتغْرقُ الفلَـكَ الأثيــرَ بمــا حــوى
أنْعِـــمْ علــــيَّ وجُــــدْ بمـــا زاولْتـــهُ لا زلتَ يــا مــولايَ منصــورَ اللِّــوى
ولقـــدْ ضـــــربتُ لعـــــارفٍ متـــأدِّبٍ مثلاً على عــرشِ البيــانِ قــد اســتوى
مـــن كـــان بعـــضُ هِباتـــهِ لعُفاتـــهِ نخْلٌ وبُسْــرٌ[1] كيــف يمنعُنــي نــوَى[2]

وكذلك عاتب سيف الدين المشد الملك الناصر على عدم اجتماعه به في مجلس شــرابه الذي وعده به؛ إذ " شرب السلطان في غيبته، فعمل هذه الأبيات:

حاشـــــاكمُ أنْ تُخْلفــــوا وعــــودكمْ محافِظــــاً بــــاتَ يُراعــــي وُدَّكــــمْ
ولــمْ يــزلْ مــعَ الصُّــدودِ والنَّــوى يشْــكرُ نُعمــاكمْ ويتْلــو حمــدَكمْ
وعـــــدْتموهُ بالـــــدُّنوِّ مـــــنكمْ إذا خلـــوْتمُ وبلغْـــتمْ قصْـــدكمْ
وأن يكــــونَ فــــائزاً بقــــربكمْ مــا بــالكمْ عوَّضْــتموه بُعْــدكمْ[3]

وهكذا جاءت أشعار الشعراء في هذا الغرض رقيقة الألفاظ عذبة المعاني، منسجمة مــع العاطفة الدينية، مدعومةً بألفاظٍ ومعانٍ من القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لتُؤتي أكُلها عند الملــك الناصر فتثمر يداه بالكرم والعطاء.

9) الهجاء

الهجاء غرض قديم تعرض له الشعراء، لإظهار المناقب السيئة للمهجو، " إذ كان الهجاء ضد المديح، فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له، ثم تنزل الطبقات على مقــدار قلة الأهاجي فيها وكثرتها"[4].

وقوي شأن الهجاء في العصور المتقدمة لما له من أهمية في رفع القيمــة الاجتماعيــة للناس، أو انخفاضها؛ لأنه يأتي على انتقاص المهجو، وتجنبه الصفات التي افتخرت بها العرب، ونبه النقاد إلى أن تكون هذه المناقب والصفات معنوية خُلقية، وليست حسية مادية خَلقية، يقــول

---

(1) البُسْرُ: التمر قبل أن يُرْطب لغضاضته، واحدته بُسرةٌ. **لسان العرب**: مادة بَسَرَ.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص334.
(3) المصدر السابق، ص366.
(4) قدامة بن جعفر: **نقد الشعر**، ص113

أبو هلال العسكري: " والهجاء أيضا إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصّها النفس، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضا لم يكن مختاراً، والاختيار أن ينسب المهجوُّ إلى اللؤم والبخل والشَّرَه وما أشبه ذلك، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه، وصغر الحجم، وضؤولة الجسم"(1).

ويرى ابن رشيق أن "أجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض، فأما ما كان في الخِلْقة الجسمية من المعايب، فالهجاء به دون ما تقدم"(2). تقدم"(2). ودعا النقاد والشعراء القدماء إلى عدم الإطالة في الهجاء، ونبذ الكلام الفاحش فيه، لأن لأن ذلك أجود وأصوب(3).

وكان شعر الهجاء قليلا في بلاط الملك الناصر؛ ولم يتسع المقام لمثل هذا الغرض من الشعر على الرغم من كثرة الشعراء، وتنافسهم في حضرته، فلم يرقَ هجاؤهم إلى درجة عالية كما كان في عصوره المتقدمة، "واقتصر هنا على الاستخفاف والتقريع واستهجان الخلق السيء والفعل القبيح مع رسم الصورة القبيحة المستهجنة أحيانا"(4) بروح من الدعابة والهزلية. " ويلاحظ أن هذه المساجلات الهجائية لم تكن تأخذ صورة منظَّمة محترفة، كما هو الشأن –مثلا– في النقائض الأموية. وإنما –في أغلبها– مقطوعات قصيرة، جاءت وليدة حادثة فرضها واقع الحال"(5).

وجاء الهجاء ممتزجاً بمدائح الناصر، وكأن الشعراء كانوا يطلبون الإذن منه على هجاء بعضهم بعضا، متأثرين بطريقة جرير في الهجاء، إذ قال: "إذا هجوت فأضحك"(6)، على نحو ما

---

(1) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: **الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1371هـ/1952م، ص104.

(2) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص174.

(3) انظر المصدر السابق: ج2، ص172.

(4) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص105.

(5) الحويطات، مفلح ضبعان: **شعر الهجاء في مصر والشام زمن الحروب الصليبية**، (رسالة ماجستير غي منشورة)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 1999م، ص48.

(6) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص172.

ما فعل سليمان بن بليمان حين هجا الشهابَ التَّلَّعفري على مقامرته وتبذله على الرغم من تقــدم سنه، فقال:

يـــا مليكـــاً فـــاق الأنـــامَ جميعـــاً منـــهُ جـــودٌ كالعـــارضِ الوكّـــافِ
والـــــذي راشَ بالعطايـــــا جنـــــاحي وتلافـــــى بعـــــد الإلـــــه تلافـــــي
مـــــا رأينـــــا ولا ســـــمعنا بشـــــيخٍ قبـــــل هـــــذا مقـــــامرٍ بالخِفـــــافِ
وبهـــا كـــمْ يـــدقُّ فـــي كـــلِّ يـــومٍ فـــي قفـــاهُ والـــرَّأسِ والأكْتـــافِ[1]

" فلما سمع التلعفري هذه الأبيات قال: أنا ما أنا !! جندي أقامر بخفافي. قال: بخفاف امرأتــك. فقال: مالي امرأة. فقال: لك مقامرة من بين الحجرين: إما بالخفاف، وإما بالثِّقال"[2].

ويواصل سليمان بن بليمان في القصيدة ذاتها هجاء التلعفري، ويغمز في نسبه على عادة العرب في الهجاء، واستبعد أن يكون أصله من قبيلة شيبان ذات النسب الشريف، فمــا هــو إلا إنسان وضيع مبتذل بعيد عن طرق الخير والهدى، كما يبدو في قوله:

يـــــدَّعي نسَـــــباً إلـــــى آل شـــــيبا ن وتلـــــك القبائـــــلِ الأشـــــرافِ
وهـــــم ينكـــــرونِ مـــــا يدَّعيـــــه فهـــو والقـــوم دائمـــاً فـــي خـــلافِ
مثـــل نجـــدٍ لـــو اســـتطالت لقالـــت لـــيسَ هـــذا الـــدَّعيُّ مـــن أكنـــافِ
فابســـط العُـــذْرَ فـــي هجـــاءِ رقيـــعٍ عـــادلٍ عـــن طريقـــةِ الإنصـــافِ

ولم يقف الشهاب التَّلَّعفري مكتوف اليدين أمام هذا الهجاء، بل كــان يتحــيّن الفــرص والزلات ليكيل الصاع صاعين، فهجا سليمانَ بن بليمان حين وقع عن دابته، وكســرت إحــدى رجليه، بأسلوبٍ ساخر يستدعي الضحك والفكاهة " حين يربط بين حادثة وقوعــه عــن بغلتــه، وعقوقه والديه"[3]، كما يبدو في قوله:

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص323. الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (681–690هـــ)، ص264. الكتبـــي: **فـــوات الوفيات**، ج1، ص444. **عيون التواريخ**، ج21، ص405. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص356.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص444. **عيون التـــواريخ**، ج21، ص405. الصـــفدي: **الـــوافي بالوفيـــات**، ج15، ص357.

(3) الحويطات: **شعر الهجاء**، ص54.

سمعْتُ لابن بليمان وبغلته عجيبةً خِلتها إحدى قصائده
قالوا رمتْه وداست بالنِّعالِ على قفاهُ قلتُ ذا من عوائدِهِ
لأنها فعلتْ في حقِّ والدها ما كان يفعلُهُ في حقِّ والده[1]

وصفع ابنُ الشَّيرجي نورَ الدين الإسعردي بإشارة من الملك الناصر في مجلس أنسه، فأنشأ الإسعردي في الحال، وهو يمسك لحية ابن الشيرجي، بيتين من الشعر قال فيهما:

قدْ صُفعنا في ذا المحلِّ الشَّريفِ وهو إن كنتَ ترتضي تشْريفي
فارثِ للعبْدِ من مُصيفٍ صفاعٍ يا ربيعَ النَّدى وإلا خرى في[2]

وعاب الشعراء بعضهم بذكر صفاتهم الخَلْقية، وعددوا عيوبهم كقبح الوجه، وشدة سواده مع شدة بياض الشعر، كما يبدو في قول سليمان بن بليمان يهجو التلعفري:

أسودُ الوجه أبيض الشَّعرِ في لو ن سَحيمٍ[3] وقبحه وخُفافِ[4] [5]

وهجا نور الدين الإسعردي نفسه؛ إذ لبس خلعةً من "خلع الأجناد"[6]، أهداها له الملك الناصر، فوسم نفسه بالخسة والسذاجة، فقال:

ولقد بُليتُ بشادنٍ إن لمته في قُبح ما يأتيه ليسَ بنافعٍ
متبذِّلٌ في خِسَّة وجهالة ومجاعة كشهودِ باب الجامعِ[7]

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص444. **عيون التواريخ**، ج21، ص405. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص357. ابن تغري بردي: **المنهل الصافي**، ج6، ص25.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص272. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص189.

(3) السَّحيم السُّحام والسُّحمة بمعنى السواد، والسُّحمة سواد كلون الغراب الأسود، وكل أسود أسحم. **لسان العرب**: مادة مادة سحم.

(4) الخَفّة والخِفّة ضد الثِّقل والرُّجوح، يكون في الجسم والعقل والعمل، والخفيف في الجسم، والخُفاف في التَّوقُّد والذَّكاء، والذَّكاء، وجمعها خِفاف. **لسان العرب**: مادة خفف.

(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص324. الذهبي: **تاريخ الإسلام**، (681-690هـ)، ص264. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص444. **عيون التواريخ**، ج21، ص405. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج15، ص356.

(6) العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص189.

(7) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص271-272. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص189.

" وكان قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة قد أجلسه تحت الساعات بباب دمشق، يسترزق من الشهادة، وكتابة الشروط"(1).

وطال الهجاءُ الأمواتَ من الناس، فلما مات جمال الدين بن اللَّهيب – متولي التركات لدى الملك الناصر في دمشق– هجاه كمال الدين بن الأعمى على ظلمه الناس، وإلحاقه الضرر بهم، كما يبدو في قوله:

اليوم زار ابنُ اللَّهيبِ أباهُ	ورأى الذي قدَّمتهُ يداهُ
إذ كان ضرَّهُ	لمْ ينتفعْ بالظُّلْمِ لكن حسْبَ الظالمين اللهُ(2)

وهذا يدل على خوف الناس منه في حياته، فلم يجرؤ أحد أن يهجوه إلا بعد وفاته.

وهجا نور الدين الإسعردي النصارى على معتقداتهم الباطلة، إذ أخذ يسفه من أفكارهم في إشراكهم مع الله آلهة أُخرى، كما يبدو في قوله:

لا تقولوا تدري النّصارى حساباً	ليسَ تدري غيرَ علمِ الخباثهْ
كيفَ يدري الحسابَ من جعلَ الواحدَ سبحانهُ بجهْلٍ ثلاثهْ(3)	

وهكذا جاء شعر الهجاء في بلاط الناصر كما أراده النقاد، ودعوا إليه، فكان عبارة عن مقطعات لا تتجاوز عدة أبيات، ويلاحظ القارئ فيها الظرافة والخفة والسخرية بين الشعراء، وهذا ما يحبّه الناصر ويطرب له، وهذا يتفق مع قول جرير لبنيه: "إذا هجوت فأضحك"(4).

10) الاعتذار

كان لهفوات الشعراء دور في وجود غرض الاعتذار في بلاط الملك الناصر، وعلى الرغم من قلته؛ إلا أن الشعراء انقسموا فيه على قسمين: قسم اعتذر عن نفسه شخصيا على ما

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص189.

(2) أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع (الذيل على الروضتين)**، ط2، بيروت، دار الجيل، 1394هـ/1974م، ص199. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص252. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص178.

(3) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار**، ج16، ص187.

(4) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص172.

بدر منه من زلات وهفوات، وهو الدارج قديما في شعر الاعتذار، وقسم اعتذر عما صدر من الدولة، كونه أحد شعرائها وبوقا إعلامياً للملك. سواء ما جاء منه في قصيدة المديح، أم ما جاء مستقلاً على شكل مقطّعات.

وإذا كان هدف المعتذر من شعر الاعتذار هو الاستعطاف، وطلب العفو، وتلمُّس العذر له، فإن عليه " أن يذهب مذهباً لطيفاً، ويقصد مقصدا عجيباً، ويعرف كيف يأخذ بقلب المعتذَرِ إليه، وكيف يمسح أعطافه، ويستجلب رضاه، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ، لا سيما مع الملوك وذوي السلطان، وحقّه أن يُلطِّف برهانهُ مدْمجاً في التضرّع والدخول تحت عفو الملك"(1).

والجدير بالذكر أن الأمور التي أوجبت الاعتذار في بلاط الملك الناصر لم تصل إلى درجة الغضب أو التهديد والوعيد، بل كانت هفوات عابرة، وزلات يَحْسُن تجاوزها، إذ كانت سمته الصفح وعدم المؤاخذة، ومن ذلك ما قاله عبد الرحمن بن العديم يعتذر فيه على سفره وبعده عن المملكة، بعدما بعث إليه الملك الناصر خلعة ويسأل عن حاله، فكتب إليه مع الرسول:

يا كاتباً قبَّلْتُ ما خَطَّهُ	إذ بعُدتْ يدُ الكاتبِ
وغائباً في خاطري حاضرٌ	وغائباً أفديهِ من غائبِ
قد سِرتُ يا مولايَ في خَجْلةٍ	لأنَّني قصَّرْتُ في الواجبِ
والقومُ إرسالاً يوالي بعضهمْ	فضْلَكَ في العفوِ عن التائبِ(2)

واستغل نور الدين الإسعردي ما لحق به من العمى والضر ليستشفع به في اعتذاره عن هفوة ارتكبها، واستحضر مثلا سائراً في شعره، حرصاً منه على استجداء الصفح والعفو من الملك الناصر، كما يبدو في قوله:

أيا ملِكاً لهُ ظلٌّ ظليلٌ	يُقالُ بهِ ويولي كلَّ نُعمى
أقِلْني إنْ عثرتُ أُريكَ سهْواً	فأوْلى ما يُقالُ عثارُ أعْمى(3)

---

(1) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص176.
(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص312.
(3) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار**، ج16، ص185.

ويستميحه البهاءُ زهير عذراً إن قصرت كلمات مدحه عن الإيفاء بقدْرِهِ، وما يناسب مقامه من الألفاظ والمعاني في سياق اعتذاره، في قوله:

أمولايَ سامحْني فإنَّكَ لم تزلْ ... تُسامحُ بالذَّنْبِ العظيمِ وتسمحُ
لك العذْرُ ما للقولِ نحوكَ مرتقى ... مقامُكَ أعلى من مقامي وأرجحُ
فما كلُّ لفظٍ في خطابِكَ يُرتضى ... وما كلُّ معنى في مديحِكَ يصْلُحُ
أتتْكَ وإن كانت كثيراً تأخَّرتْ ... فإنَّكَ تعفو عن كثيرٍ وتصْفحُ[1]

وقد اعتذر نور الدين الإسعردي عن هزيمة الملك الناصر أمام مماليك مصرسنة648هـ، في أسلوب دعا فيه إلى التماس العذر له، فلكل جواد كبوة، بل إن الملك الناصر عاد من المعركة لأنه لم يجد كفْؤاً يحاربه في ساحة المعركة، حاله حالَ الأسد يعرض عن الكلب ترفعاً عنه واحتقاراً له، كما يبدو في قوله:

الدَّهرُ مما جناهُ اليومَ معتذرُ ... وسيفكَ الحاكمُ السَّفّاك منتصرُ
وما يضرُّ جوادَ الخيلِ كبوتُهُ ... والسَّيْفَ نبوتُهُ إذْ يُحمدُ الأثرُ
أعرضْتَ عن حرب قومٍ لا خلاقَ لهمْ ... والكلبُ يُعرضُ عنهُ الضَّيْغمُ الهصِرُ
فعُدْتَ إذ لم تجدْ كفْواً تُحاربهُ ... يا من لديهِ ملوكُ الأرضِ تُحْتَقرُ[2]

11) الشعر السياسي

نتج الشعر السياسي عن الحالة السياسية غير المستقرة في هذا العصر، ومردّ ذلك إلى الأطماع الصليبية المتواصلة ببلاد الشام ومصر، وإلى الانقسام الداخلي بين الملوك الأيوبيين من جهة، وبين الأيوبيين والمماليك من جهة أخرى، فقد شهدت فترة حكم الناصر تحولا في دفّة الحكم، بالقضاء على الحكم الأيوبي في مصر وظهور الحكم المملوكي.

وقد تتبع شعراء الملك الناصر هذه الأحداث بأشعارهم التي كانت بمثابة تأريخ لكل ما يجري في المنطقة، يدافعون وينافحون تارة، ويحرّضون على القتال تارة أخرى. وكان الشعراء

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص46. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص150.

(2) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص33، 386، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة4.

أقرب ملازمي الناصر يأتمرون بأمره، يبعثهم لتقصي أخبار العدو من ملوك الجوار، فكانوا يوافونه بأشعارهم عن الأحوال الراهنةِ، ومنهم على سبيل المثال النور الإسعردي، الذي حرض الناصر على قتال المماليك، وهو بالصالحية بعدما علم أنهم يتأهبون لقتاله لا للصلح معه، كما يبدو في قوله:

لعمرُكَ إنَّ اللينَ ليسَ بنافعٍ   لديْهمْ وقدْ ميَّزتُهمْ بتجاربِي
فقصدُهمُ تثبيطَ عزمكَ عنهُمُ   فدقِّقْ تجدْني ناصِحا غيرَ كاذِبِ
فقُلْ مستطيراً في مرادِكَ ناطقاً   بألْسُنِ أسْيافٍ قواصٍ قواضبِ[1]

وبعد مقتل المعظم توران شاه سنة 648هـ احتدم الصراع بين الفريقين، فبعث النور الإسعردي إلى الناصر – وهو على أطراف مصر – "ما كشفه من مؤامرات، وما تقصاه من أخبار، محرضا إياه على قتال المماليك، قائلاً:

ولا تستَمِعْ من غيرِ نُصحي ولا تُطعْ   وصُمَّ ولا تُهملْ لهم أبداً أمرا
وجرِّدْ إليهمْ جُرْدَ خيْلكَ ضُمَّرا   مُسوَّمةً نصراً مُحجَّلةً غُرّاً
ولا يقْدِمنَّ الخيلَ غيرُكَ في الوغى   وطعْنُ الورى لا خَلْقَ منكَ به أحرى
وأغرِقْهمْ في أبحُرٍ من دمائهم   إذا لبسوا للنَّقْعِ أرْديةً غَبْرا
لقد غرَّهم لما نجوْا منكَ أوَّلا   وظنّوا الذي قد كان من جيشِهمْ عُذْرا
وما ذاكَ إلا مثْلُ طُعْمٍ لقارضٍ   يُقرِّبُهُ والموتُ يَنْظُرُهُ شَزْرا[2]

وانبرى شرف الدين الأنصاري يحرض الناصر، ويمدحه يوم خروجه لقتال المماليك من دمشق، كما يبدو في قوله:

على طالع الإقبالِ والسَّعْدِ والنَّصْرِ   مسيرُكَ محروسُ الرِّكابِ إلى مصرِ
من أخَّرَ مجرى النّيلَ في الجرْيِ بعدَما   تكاثرَ عدُّ الرَّمْلِ بالجحْفلِ المُجْرِ
ونسترْجعُ الإرْثَ التي مطَلَتْ به   رجالٌ إلى أنْ جِئتَ يا وارثَ الأمْرِ

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**: ص22، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة29.

(2) المصدر السابق، ص174، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة29.

وألَّفْــــتَ مـــــن بعــــدِ المعظَّــــمِ شــــملَنا ولولاك كانت تلــك قاصــمةُ الظَّهْــرِ[1]

وما إن وصل الناصر إلى العريش، وأخذ يستعد للقتال، ولدخول مصر، حتـــى انبـــرى الشرف الأنصاري قائلاً:

أيــــا ملكــــاً لــــمْ يشْــــنِ مُلْكــــهُ بظُلــــمِ الرَّعايــــا ولا غِشِّــــها
ويــــا أســــداً لــــم يــــزلْ بأْسُــــهُ يُزيــــلُ الكتيبــــةَ عــــن كبْشــــها
لــــكَ الحمــــلاتُ حملْــــنَ العُــــداةَ علــــى طوْعِهــــا أو علــــى نعْشِهــــا
حللْــــتَ العــــريشَ وفــــي إثْــــرِهِ تحــــلُّ بمصــــرَ علــــى عرْشــــها[2]

وفي أثناء حرب الناصر ضد صاحب الكرك ومن لاذ به من المماليك، كـــان الشـــاعر الهزار الموصلي يتقصى الأخبار، ويكشف عن الأوضاع التي لحقـت بالملــك المغيــث إثــر محاصرة الملك الناصر للكرك، وحصنها الذي يعرف بالغراب، حتى ضاق المغيث ونائبه ذرعاً، ولحق بهما الضرر، كما يبدو في قوله:

إنَّ حصْـــنَ الغـــرابِ قـــد ضـــاقَ حتـــى لـــم يكـــنْ فيـــه مـــا يقـــوتُ الهـــزارا
قـــد وجـــدتُ المغيـــثَ فيـــه أُوامـــاً ورأيـــتُ النَّجيـــبَ فيـــهِ حمـــارا[3]

كان ذلك فيما يتعلق بحروب الناصر ضد الملوك المسلمين، ومثله فـــي حروبـــه ضـــد الفرنجة، إذ أرَّخ الشعراء الوقائع والأحداث الراهنة، " فقد مدحه نور الـــدين الإســـعردي عنـــد عودته من قتال الفرنج في المنصورة سنة 648هـ، فقال إنه حمى ساحة الإسلام، ومحا طغيان الشرك، كما يبدو في قوله:

حمى حِمى ســـاحةِ الإســـلامِ حـــينَ محـــا الطُّغيانَ فالشِّرْكُ لم يثْبــتْ لـــه هِضَـــبُ
عـــزَّتْ بـــه مِلَّـــةُ الـــدينِ الحنيـــفِ كمـــا ذلَّـــتْ بصـــولتِهِ الأوثـــانُ والصُّـــلَبُ"[4]

---

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص155.
(2) الأنصاري: **الديوان**، 273.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص259–260.
(4) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص190، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة3.

وأشاد سيف الدين المشد بقتال الناصر، وانتصاره على الفرنج حتى أذعنوا إلى الصلح سنة 653هـ، وعدَّ ذلك نصراً له، فقد جاءوه مستسلمين صاغرين، طالبين الصلح معه، ويستبشر المشد بهذا الصلح؛ فهو مقدمة للقضاء على اليهود والنصارى، وهذا ما يتجلى في قوله:

تراهُ يومَ الوغى والنَّقْعُ قد حميتْ — مجاهدا في سبيلِ اللهِ مُجتهدا
عفَّى حصونَ الفرنجِ اللائذين بها — ولمْ يدعْ داراً لهم ولا بلدَا
فعندَ ذلك جاؤوا صاغرين لهُ — مُسْتسلمينَ أسارى يسألون جدَا
وعادةُ الكُرماءِ الصّيدِ أنّهمُ — لا يمنعونَ الذي يمْتاحُهمْ[1] صَغَدَا[2]
أبقى عليهم رُسوماً كان يطْمِسُها — ما لا يُقيمُ لمسكينٍ لهمْ أوَدَا
وعن قليل فما يبقى بها أحدٌ — منْ معْشَرٍ يؤثِرونَ السبْتَ والأحَدَا[3]

(1) المَتْح: الاستسقاء من البئر، والماتح المستقي. **لسان العرب**: مادة متح.

(2) الصَّغَد: العطاء. **لسان العرب**: مادة صغد.

(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص 355–356.

الفصل الرابع

الشعر في بلاط الملك الناصر: دراسة فنية

الفصل الرابع

الشعر في بلاط الملك الناصر: دراسة فنية

أولاً: بناء القصيدة

كان الشعر في بلاط الملك الناصر محاكياً القديم، ومقلـداً لـه بشـكله الفنـي وهيكلـه الخارجي، حيث انقسم نتاجه الشعري من حيث الحجم إلى قصائد طويلة ومقطعات شعرية: أمـا القصائد, فقيلت في كثير من الأغراض وأهمها المدح والرثاء والمناسبات. وأما المقطعات، "فقـد ربا عددها على عدد القصائد التي لم تتجاوز ثلثي المقطعات حيث وجد فيها الشعراء ميداناً رحبا لكثير من أغراضهم"[(1)]، مثل الإخوانيات، والخمريات، والحنين والغربة, والهجـاء, والاعتـذار, والشكوى والاستعطاف، والمدح أحياناً, وكان للمقطعات الشعرية بالغ الأثر في النفوس, إذ هـي "بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع, وصاحبها أبلغ وأوجز"[(2)].

وترجع كثرة المقطعات الشعرية في مجالس الناصر إلى طبيعته وحبّـه لهـا، إذ كـان يطرب لسماعها, ويردّدها كثيراً, ويستنشد الشعراء البيتين والثلاثة, ويسـتنهض قـرائحهم فـي مساجلاته الشعرية, فضلاً عن مجالس أنسه، فقد كان الشعراء ينظمون مقطعاتهم ويلقونها علـى المغنين ليتغنوا بها. وربما كان السبب في وجود المقطعات عوامل سياسـية، وأهمهـا انشـغاله بحروبه المتكرّرة مع الممالك الأخرى، وما تبع ذلك من أسفار كثيرة, فكانت مجالسـه قصـيرة وغير مستقرة على حالٍ، ما جعل الشعراء يبتعدون عن كثرة القول، ويقتصـرون علـى بيـت القصيد من أشعارهم في مدح الناصر وهجاء أعدائه, أو الاعتذار عن هزيمة مُنِيَ بها.

ومن الأسباب ما يتعلق بطبيعة الغرض الشعري كالهجاء مثلا, فشخصية الناصر التـي تتسم بالفكاهة والدعابة، فتحت الباب أمام الشعراء للتهاجي بمقطعات ملؤها السخرية والاستهزاء, ليسهل حفظها وتداولها بين الناس، حتى تحقّق الهدف بوقعها النفسي على المهجو, وهذا عناه ابن رشيق بقوله:"وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود"[(3)]، ويـرى المحـدثون أن المقطوعـة

---

(1) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص167

(2) العسكري: **الصناعتين**، ص174.

(3) ابن رشيق: **العمدة**, ج2, ص172.

الشعرية " تبدو أكثر تماسكاً، وأكثر استقصاءً للحظة الشعور، أو الصورة الشعرية من القصـــائد الطوال، إذ تعبر عن خاطرة واحدة، أو حالة نفسية لها بعض التمييز"[1]. ومن الجدير بالذكر أنّ أنّ كثرة المقطعات عائد إلى طبيعة العصر الذي اشتهر بنظمها.

واهتم الشعراء والنقاد بالبناء الفني للقصيدة العربية، وأولوهُ عناية فائقة, لما يضفيه مـــن القيم الجمالية والفنية عليها, وحددوا العناصر الأساسية لهذا البناء، وكان من أبرزها: المقدمـــة, وحسن التخلص, والخاتمة.

*** المقدمة:**

اعتنى القدماءُ بمقدمة القصيدة وحثوا الشعراء على استحسان تقديمها, وأسموها بأســـماء كثيرة كالابتداء، والاستهلال، والافتتاح[2].

وحري بالشاعر أن يحسن ابتداء قصيدته, لأنه "أول ما يقع في السمع من الكلام... فـــإذا كان الابتداء حسنا بديعاً ومليحا رشيقاً كان داعية إلى الاستماع لما يجيء بعده مـــن الكـــلام"[3]، "ولأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ومَطيَّةُ النجاح... فإن الشعر قفل أوله مفتاحه"[4].

ويتوجب على الشاعر أن يحسن الربط بين المقدمة والغرض الرئيس في القصيدة، بحيث تكون المقدمة مشعرةً بغرض الشاعر، ودالةً على المعنى الذي أراده بعده[5]. تلميحاً لا تصريحاً,

(1) القط، عبد القادر: **في الشعر الإسلامي والأموي**، بيروت، دار النهضة العربية، 1979، ص136.

(2) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص431. ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص217. القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد محمد بن عبد الرحمن: **الإيضاح في علوم البلاغة**، بغداد، مكتبة النهضة، ص241. ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تحقيق حنفي محمـــد شـــرف, القاهرة, لجنة إحياء التراث الإسلامي, 1383هـ/1963م, ص168.

(3) العسكري: **الصناعتين**, ص437،435. انظر القزويني: **الإيضاح**، ص241. ابن رشيق: **العمدة**, ج1، ص217.

(4) ابن رشيق: **العمدة**, ج1, ص217.

(5) انظر: ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم: **المثل السائر في أدب الكاتـــب والشاعر**, تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميـــد, ط1, بيـــروت، المكتبـــة العصـــرية, 1411هـــ/1990م, ج2, ص223. العلوي, المؤيد بالله يحيى بن حمزة: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز**, تحقيق دكتور بـــن عيسى باطاهر, ط1، بيروت, دار المدار الإسلامي، 2007, ص430.

تصريحاً, لأنّ الشاعر إذا صرَّح في مستهل قصيدته " لم يبق لحسن التخلص محل ولا موضع، ونظم هذه القصيدة سافل بالنسبة إلى طريق الجماعة"[1].

إن الناظر في قصائد شعراء الملك الناصر, يلمس اعتناء أكثرهم بالمقدمة حسب ما ذهب إليه الأقدمون ودعوا إليه, فمنهم من بدأ بالمقدمة التقليدية الطللية، وذكر الديار والأحبة ودعا لها بالسقيا، كما يبدو في قول نور الدين الإسعردي:

أمنزلَ اللهوِ والأترابِ من حلب   سقا ربوعَك هطالٌ من السحبِ[2]

فقد استهل الشاعر قصيدته مستخدما أسلوب النداء، والتصريع الذي يحقق التنغيم الموسيقي، إذ اعتنى به الأقدمون؛ لأنه يضفي جمالاً على افتتاح القصائد، فيساهم في قبولها من المتلقين.

واستهل بدر الدين بن الفويرة مدحيته بالوقوف على الأطلال، والبكاء على رحيل المحبوبة, فقال:

أذاعَ لسانُ الدمعِ يومَ النّوى سرى   وحلَّتْ أكفُّ البيْنِ فيه عُرى صبري

وطلَّتْ على الأطلالِ أسيافُ نأيهم   دمى واغتدى قلبي أسيراً مع السَّفْرِ[3]

ويستهل ابن حواري التنوخي مدحيته بالمقدمة الغزلية، واستذكار الماضي الجميل, ويتمنى العودة للأيام الخوالي مع الأهل والأحباب، ولكن أنَّى يكون له ذلك بعد الفراق، فيقول:

مضَتْ لنا بالحمى والبانِ أوقاتُ   صفت لنا وصفتْ فيها المسّراتُ

أيامَ تختالُ في ثوبِ الصّبا مرحاً   وللصِّبا وزمان اللَّهْوِ لذّاتُ

أحبابَنا هلْ لأوقاتٍ لنا سلَفَتْ   بقُربِكم والتئامُ الشَّملِ عوداتُ

---

(1) ابن حجة الحموي, أبو بكر بن علي بن عبد الله, **خزانة الأدب وغاية الأرب**, تحقيق كوكب دياب, ط1, بيروت, دار صادر, 1421هـ/2001م, ج1, ص342.

(2) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص84, نقلا عن مخطوطة الديوان، ص20.

(3) الكتبي: **فوات الوفيات**, ج2, ص68.

بِنـــتُمْ فـــلا البـــانُ ميّـــاسٌ يرنِّحُـــهُ مرُّ النسيمِ ولا الرَّوضـــاتُ روضـــاتُ[1]

واستهل شرف الدين الأنصاري مدحيته بالمقدمة الغزلية التي ربت على سبعةَ عشرَ بيتا، يظهر فيها تعلقه بالمحبوبة المتفردة بالجمال والحسن، إذ هي متقلبة المزاج متمنعة لا تدوم على حال، كما يبدو في قوله:

لنـــا مـــن ربّـــةِ الخـــالين جـــارهْ تواصِـــلُ تـــارةً وتصـــدُّ تـــارهْ
تُؤانِســـني وتنْفِـــرُ عـــن قريـــبٍ وتعـــرضُ ثـــمَّ تُقبـــلُ فـــي الحـــرارهْ
ومـــالي فـــي الغـــرامِ بهـــا شـــبيهٌ ولـــيسَ لهـــا نظيـــرٌ فـــي النَّضـــارهْ
وفـــي الوصـــفينِ مـــن كَحَـــلَ[2]وكُحْـــلٍ حـــوتْ حُسْـــنَ البـــداوةِ والحضـــارهْ[3]

وبدأ محمد بن ثروان مدحيته بالشكوى من الأرق وقلة النوم، لما يلاقيـــه مـــن صـــدود المحبوبة، وبعدها عنه، مصوراً لحظات الوصال السريعة بظل الطائر، وهي صورة فنية جميلة تظهر نصيب الشاعر من لقائه المحبوبة، مستخدما أسلوب التناص الديني في تأثير سحر عينيها، ويتجلى ذلك في قوله:

مـــن لـــي بإينـــاس نـــوْمي النـــافِرْ وبالحبيـــبِ المفـــارقِ الهـــاجرْ
وبالوصـــال الـــذي نعِمْـــتُ بـــه نهْبـــاً كظِـــلٍّ أتـــى بـــه طـــائرْ
قـــدُّكَ قـــد حيَّـــر الرمـــاحَ وقـــدْ أعجـــزَ هـــاروتَ طرْفُـــكَ الســـاحِرْ[4]

والملاحظ عند شعراء الناصر إطالة المقدمات الغزلية قبل الدخول في موضوع المـــدح, فكثرت أبيات الغزل حتى فاقت عدد أبيات المدح في كثير من القصائد، وعلى الرغم من أن هذا ما يميل إليه الناصر ويطربُ إليه[5]، إلا أن هذا مخالفٌ لشروط النقاد في قصائد المديح، لأنهـــم

---

(1) الكتبي: **عيون التواريخ**, ج20, ص411.

(2) الكَحَل: سواد الأجفان خلقة. **المعجم الوسيط:** مادة كحل.

(3) الأنصاري: **الديوان**, ص200. انظر العباسي، عبد الرحيم بن أحمد: **معاهد التنصـــيص علـــى شـــواهد التلخـــيص**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1974م، ج4، ص259.

(4) ابن الشعار: **قلائد الجمان**, ج7, ص120.

(5) انظر المصدر السابق: ج7, ص270.

يرون أن الإطالة تُدخل الملل في نفوس الممدوحين، ما يؤثر في عطائهم لاحقاً، فقد كره القدماء الإطالة في المقدمة الغزلية والتقليل من أبيات المديح, وعدوه عيبا من عيوب القصــيدة حتـــى لا ينشغل السامع بكلمات الغزل عن المدح(1).

وبدأ بعضهم بالمقدمات الخمرية، فوصف الخمر ووصف ساقيها، ومجالس أنسها, كمــا في قول سيف الدين المشد:

رَّتْ لنـــــا عصْـــــرَ الصِّـــــبى الاوَّلِ   مشْـــمولةٌ رقَّـــتْ عـــنِ الشَّـــمْأَلِ(2)

وجمع المشد بين الغزل والخمرة في مستهل مدحية أخرى، فقال:

بـــــاكرْ كـــــؤوسَ المــــدامِ واشــــربْ   واســتَجْلِ وجــهَ الحبيــبِ واطــرَبْ(3)

وفي مقابل ذلك, ابتعد الكثير من الشعراء عن المقدمة واســتهلوا قصــائدهم بــالغرض الرئيس، مراعين حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال في مطالعهم، وهذا يعود إلى طبيعة الغرض، وأهمية الموقف الذي قيلت فيه, فجاءت هذه المطالع منسجمة مع شروط النقاد، ذلك أنها ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بموضوع النص، وهذا يستدعي من الشاعر الحاذق أن يحسن الاستهلال في مطلع قصيدته على صعيد اللغة والأسلوب. ومن ذلك ما بدأ به شرف الدين الأنصاري، مستخدما فــن الجناس، ما زاد جمال مطلعه في قوله:

إليــــــك مــــــدائحُنا الوافــــــدهْ   ومنــــــكَ منائحُنــــــا الزائــــــدهْ(4)

وبعث سيف الدين المشد قصيدة إلى الناصر يمدحه، مستخدما في مطلعها أسلوبي النداء والجناس، مما زاد في التناغم الموسيقي، كما يبدو في قوله:

أيــــــا ملكـــــــاً أعـــــــز اللهُ   فــــي يــــوم الــــوغى نصــــرَهْ
لــــــك الأعــــــلام كــــــالأعلامِ   تهــــــدي الجــــــيشَ للكَــــــرَّهْ(5)

---

(1) انظر ابن رشيق: **العمدة**, ج2, ص123.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص109.
(3) المصدر السابق: ص107.
(4) الأنصاري: **الديوان**, ص171.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص118.

وهنأ شرف الدين الأنصاري الملك الناصر على امتثاله للشفاء، وبقدوم شهر رمضان في مطلع قصيدته، مستهلاً بالدعاء، ومستخدماً أسلوب التكرار ليضفي جمالا عليه، فيقول:

حوشيتَ مــن مــرضٍ يؤذيــك حوشــيتا   وبــــالمُنى وبشــــهرِ الصـــومِ مُنِّيتــــا[1]

وبدأ بدر الدين الذهبي قصيدته بتهنئة الناصر لما جاءه التقليد من الخليفة فقال:

وفى لـــك الســـعيُّ بالســـعدِ الـــذي وفـــدا   وأنجزَ الدهرُ من عليـــاك مـــا وعـــدا[2]

وفيما يتعلق بحروب الملك الناصر مع أعدائه، فقد ابتعد الشعراء في الشعر السياسي عن المقدمات الغزلية، فعندما قصد الناصر مصرَ لقتال المماليك أنشد شرف الدين الأنصاري قصيدة قال في مطلعها:

علـــى طـــالعِ الإقبـــال والســـعدِ والنصـــرِ   مسيرُك محروسُ الركاب إلـــى مصـــرِ[3]

واستهل نور الدين الإسعردي قصيدة مدحه الناصر بالبشرى إثر هزيمة الفرنجـــة فـــي المنصورة, فقال:

بُشرى فنشْرُ الهدى يمشـــي علـــى عَجَـــلِ   والشركُ يعثُرُ في ذيْـــلٍ مـــن الوجَـــلِ[4]

ومن ذلك ما استهل النور الإسعري قصيدته إثر هزيمة الناصر أمام المماليك بالاعتـــذار عن الهزيمة، فقال:

الـــــدهرُ ممـــــا جنـــــاهُ اليـــــومَ معتـــــذِرُ   وســـيفُك الحـــاكمُ السَّـــفاكُ منتصِـــرُ[5]

أما الرثاء, وما يستدعيه من الحزن والتفجع, فقد اعتنى شعراء الناصر بمناسبة المطلـــع لهذا الغرض، فجاءت مطالعهم "متفقةً مع ما ذهب إليه النقاد واشـــترطوه وأشـــعرت بمضـــمون الرثاء, واتسمت بالسهولة والبعد عن التعقيد والتكلف, والحشو والغريب من الألفاظ كمـــا يبـــدو

---

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص101. ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص147.

(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**, ج29, ص142.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**, ص155. الرواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص17.

(4) الصانع: **اتجاهات الشعر العربي**, ص385, نقلا عن مخطوطة الديوان, الورقة75.

(5) المرجع السابق: ص386, نقلا عن مخطوطة الديوان, الورقة4.

التلاؤم واضحاً بين شطري المطلع الواحد"[1]. فقد أظهر أمين الدين السليماني عِظم الفاجعة التي التي ألمت بالمسلمين في رثائه الناصر، مستهلاً مرثيته بالتناص القرآني الذي زاد جمال المطلع، موضحا تأثير هذا الحدث في النفوس، فقال:

رمـــت الخطـــوبُ فأقصـــدتْك نبالَهـــا   والأرضُ بعـــدك زُلزلـــت زلزالَهـــا[2]

وبدأ الشعراء مراثيهم مستخدمين أسلوب النداء لشد انتباه السامعين, كما يبدو في مطلـــع قصيدة سيف الدين المشد يرثي فيها ولداً للناصر, حاثّاً إياه على الصبر، فيقول:

يـــــا مليكـــــاً وهـــــب اللهُ لـــــه   مـــعْ ثـــوابِ الصـــبر أثـــوابَ الـــنِّعَمْ[3]

في مقابل ذلك لم يوفَّق بعض الشعراء في مطالع قصائدهم، ولم تـــرق إلـــى مســـتوى الجمال، لخلل في تركيب البيت ومخرج أصواته، مثلما استهل السيف الشطرنجي مرثيته، إذ لـــم يستسغْ حرف العطف "ثم" في المطلع، كما يبدو في قوله:

كـــــلُّ حـــــيٍّ مصـــــيرُه للفنـــــاءِ   ثـــم لـــم يبـــقَ غيـــرُ ربِّ الســـماءِ[4]

واستحضر شرف الدين الأنصاري مصطلحات العلوم في مطلع قصيدته، ما جعله متكلفاً متصنعاً، كما في قوله:

حـــروفُ مَلامـــي كلُّهـــا حـــرْفُ إغـــراءِ   على أنَّ سُقْمي بعـــضُ أفعـــالِ أســـماءِ[5]

*** حسن التخلص:**

اهتم النقاد بحسن التخلص أو الخروج في القصيدة, وفصّلوا القول فيه, ومعناه" أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطفٍ تحيّلٍ, ثم تتمادى فيما خرجت إليه"[6]، وهو انتقال جميل مـــن

---

(1) عبد الرحيم: **فن الرثاء**, ص304.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص147.

(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص340.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**, ج1, ص149.

(5) الأنصاري: **الديوان**, ص50.

(6) ابن رشيق: **العمدة**,ج1, ص234.

من مطلع القصيدة " إلى المقصود مع رعاية الملاءمة بينهما، لأن السامع يكون مترقبا للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون, فإذا كان حسنا متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع، وأعان على إصغائه إلى ما بعده، وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس"(1)

وعرَّفه ابن الأثير" بأن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني, فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، فجعل الأول سببا إليه، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض, من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً"(2)، والتخلص هو" حسن الخروج من التغزل إلى المديح مع حسن ملاءمة وجودة سَبْكِ, بحيث يكون ذلك الخروج كالنوع الواحد"(3). وتكون براعة التخلص في المزج بين آخر المقدمة وأول موضوع القصيدة من المدح المدح وغيره، "وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين, وقد يقع في بيت واحد، وهذه وإن لم تكن طريقة المتقدمين في غالب أشعارهم، فإن المتأخرين قد لهجوا بها وأكثروا منها"(4).

واعتناء النقاد بالتخلص نابع من اهتمامهم بوحدة القصيدة " والدقة في الخروج من جزء إلى جزء خروجا يشعر بالتحام الأجزاء وتماسكها, لا يوجد حواجز واضحة بينها" (5). " وعلى قدر براعة الشاعر يكون حسن التخلص إلى المقصود" (6).

اعتنى شعراء الملك الناصر بحسن التخلص وبراعته، لاسيما الانتقال من المقدمة الغزلية أو الخمرية إلى المديح, والأمثلة على ذلك كثيرة, فمن ذلك ما تخلص به سيف الدين المشد بعد المقدمة الغزلية في قصيدته التي مطلعها:

رق النسيمُ لما ألقاهُ من سهَري   فبات أشوقَ من جفني إلى السحرِ

---

(1) القزويني: **الإيضاح**, ص243.

(2) ابن الأثير: **المثل السائر**, ج2, ص244.

(3) العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**, ص430-431.

(4) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص433.

(5) بكار, يوسف: **بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث**، ط2، بيروت، دار الأندلس، 1403هـ/1983م، ص221.

(6) العلوي: **الطراز**، ج3، ص102.

جلَّتْ عــن الوصــفِ حتــى لا يشــابهُها في حسنِها قَمــرٌ فضْــلاً عــن البشــرِ
أبيــتُ ســهرانَ فــي ذكــرى محاســنِها وشكرِ إحســانِ ملــكِ البــدْوِ والحَضَــرِ
الناصــرِ السّــيدِ النــدْبِ الهُمــام ومــنْ أضحتَ مــواردُه صــفواً بــلا كــدَرِ[1]

فقد ربط الشاعر بين غزله ومدحه، معلِّلاً سهره بالتفكر في أوصاف المحبوبة، وشكر فضائل الملك الناصر، فضلا عن ذكر صفاته التي فاقت محاسن المحبوبة.

ومثال ذلك قول شرف الدين الأنصاري، يمدح الملك الناصر بقصيدته التي مطلعها:

لنــا مــن رَبَّــةِ الخــالَيْنِ جــارَهْ تواصِــلُ تــارةً وتَصــدُّ تــارهْ

إلى أن خلص من الغزل إلى المديح بقوله:

إذا استسْــقى بريقتِهــا نــديمٌ أزالــت خمرُهــا عنــه خُمــارَهْ
ويفتــكُ طرفُهــا فيقــول قلبــي أَشَــنَّ تُــرى صــلاحُ الــدين غــارهْ
مليــكٌ شــدَّ أزْرَ المُلْــكِ منــهُ شــبا عــزمٍ تلــينُ لــه الحجــارهْ[2]

ومن التخلصات الحسنة, ما أنشده محمد بن ثروان بعد مقدمة غزلية في قصيدته التي مطلعها:

مــن لــي بإينــاس نــوْميَ النــافِرْ وبالحبيــبِ المُفــارقِ الهــاجرْ

حتى وصل إلى مدح الناصر بقوله:

لا تحزنــي إن عَــدَتْك غاديــةٌ فســوف يكفيــكِ جَفْنِــيَ المَــاطِرْ
أو نائــلُ المالــكِ الــذي نصــرَ الإ ســلامَ حقَــاً فسُــمِّيَ الناصــرْ
صــلاحُ ديــنِ الإلــهِ والمــوردُ العــذبُ لبــادي العفــاةِ والحاضِــر°[3]

في هذه الأبيات يخاطب الشاعر روضة الحِمَى التي فاتها قطر السماء، بأن الشاعر سيعوضها بدموعه الغزيرة عن فراق المحبوبة، أو عطاء الناصر وينبوعه الذي يقصده الجميع.

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص101-102.

(2) الأنصاري: **الديوان**, ص201-202. انظراليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، 244-245. ابن حجة الحموي: **خزانة خزانة الأدب**, ج2، ص413. العباسي: **معاهد التنصيص**، ج4، ص259.

(3) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**, ج7, ص120-121.

ومهد البهاء زهير بالغزل الرقيق في قصيدته التي مطلعها:

عـــــرَفَ الحبيــــبُ مكانَـــــهُ فتـــدلَّلا   وقنِعْـــتُ منـــــهُ بموعـــدٍ فـــتعلَّلا

حتى أحسن التخلص إلى مدح الناصر بقوله:

وهـــــوىً حفظـــتُ حديثـــه وكتمتُـــه   فوجـــدتُ دمعـــي قـــد رواه مسلســـلا

أهـــوى التـــذلُّلَ فـــي الغـــرامِ وإنمـــا   يـــأبى صـــلاحُ الـــدين أن أتـــذلَّلا

مَهَّـــدْتُ بـــالغزلِ الرقيـــقِ لمدحـــه   وأردتُ قبـــلَ الفـــرْضِ أن أتـــنفَّلا[1]

فالشاعر قدَّم بين يدي مدحه بالغزل، إذ جعل هذا التقديم صورة للمتعبد الذي يقدّم النوافل علـى الفرائض[2].

ومن التخلصات الجميلة ما نظمه بهاء الدين القرشي[3]، إذ جمع بين سـروره بوصـال المحبوبة، وسرور الدنيا ومن عليها بالملك الناصر ذي الأخلاق الحميدة، فقال:

إن كـــانَ قـــدْ أحزَنَنـــي هجْـــرُهُ   فطالَمـــا أفرحَنـــي وصْـــلُهُ

كفرْحـــةِ الـــدُّنيا بســـلطانِها الـــ   نّاصـــرِ مـــنْ عـــمَّ الـــورى عدْلُـــهُ[4]

*** حسن الانتهاء**

اعتنى النقاد بخاتمة القصيدة وأسموها بأسماء عديدة، مثل المقطع[5], والانتهاء[6],

---

(1) البهاء، زهير: **الديوان**, ص176، 177. انظر ابن حجه الحموي: **خزانة الأدب**, ج2, ص418-419.

(2) انظر عن حسن التخلص: الأنصاري: **الديوان**, ص221، 422. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368. الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص130.

(3) محمد بن مكي بن محمد بن الحسن بن عبد الله القرشي الدمشقي العدل المعروف بان الدجاجية (591-657هـ)، ولد ولد بدمشق وتوفي فيها، ودفن بمقابر باب الصغير. كان فاضلاً شاعراً أديباً حسناً، مطبوع الشعر، جيد النظم. انظر اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص344. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص437.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص346.

(5) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص442.

(6) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص239. القزويني: **الإيضاح**، ص244.

والخاتمة[1]، ونظروا إلى ما تتركه من أثر في نفس السامع, ودعا العسكري إلى جعل الخاتمة أجود ما في القصيدة، وأكثرها ارتباطاً بالموضوع الذي نظمت من أجله[2], فهي آخر ما يطرق يطرق الأسماع ويعلق بالأذهان[3] "من دون سائر الكلام في غالب الأحيان، فيجب أن يُجتهد في في رشاقتها ونُضجها وحلاوتها وجزالتها"[4]، فإذا أجاد الشاعر الانتهاء جبَّ بفضله ما قبله من الزلاّت والهفوات في القصيدة، وإن كان غير ذلك فقد يُنسي محاسن ما جاء فيها[5].

وقد اشترط النقاد لحسن الانتهاء أن يكون محكمَ الصّياغة، بديعَ المعنى، رشيق اللفظ، مؤْذِناً بخواتم الكلام[6]، "متضمناً حكمةً أو مثلاً سائراً"[7] فلا يزاد عليه ولا يُنتظر بعده أجمل منه[8]، بحيث " لا يبقى في النفوس بعده تطلّع ولا تشوّق إلى ما يقال"[9].

واهتم المتأخرون بخواتيم القصائد مثل اهتمامهم بمطالعها، والناظر إلى قصائد الشعراء في بلاط الملك الناصر، يجد عناية منهم في خواتيمها، وبخاصة القصائد الطويلة؛ إذ كان الانتهاء موافقاً لموضوع القصيدة، لاسيما في غرض المديح والمناسبات والرثاء.

وما دام الهدف الرئيس من قصيدة المدح هو التكسُّب؛ فإن الشعراء أجادوا القول في خواتيمها حتى تنال إعجاب الناصر، ويحظوا بوافر العطاء، وبرزت العناية من الناحية الفنية والمضمون، إذ أكثروا من الحديث عن جود الممدوح، ورسموا لهذا الجود صورة مثالية، فقد أنهى عون الدين بن العجمي مدحيته مؤكداً على أفضلية الملك الناصر، فلا أحد يشابهه في الكرم، ولا يستطيع أحد ثنيه عن طرق الخير، في أسلوب بديعي جميل، يقول:

---

(1) انظر ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**, ص616. ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب.** ج4, ص446.

(2) انظر العسكري: **الصناعتين**, ص443. بكار: **بناء القصيدة**، ص229.

(3) انظر ابن رشيق: **العمدة** ج1, ص239. بكار: **بناء القصيدة**، ص229. بدوي: **أسس النقد الأدبي عند العرب**، ص312.

(4) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**, ص616.

(5) انظر القزويني: **الإيضاح**, ص244.

(6) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص239. العسكري: **الصناعتين**، ص443. القزويني: **الإيضاح**، ص244.

(7) بكار: **بناء القصيدة** ص230.

(8) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص239.

(9) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص620.

خيرُ الملــوك صـــلاحُ الــدينِ لــيس لـــه   في الجود ثانٍ ولا عــن جــودِهِ ثــاني[1]

وذكَّر محيي الدين بن زبلاق في خاتمة قصيدته بقوة الملك الناصـــر وعظــيم كرمـــه، مستخدما الصورة الفنية، يقول:

كالليـــــث ممنــــوعُ العـــرينِ مصـــونهُ   والغيـــثِ مبـــذولُ الحَيـــاءِ مُباحُــــهُ[2]

وأعرب هاشم بن محمد الأسدى في الخاتمة عن مقصده من المدح، وهو الظفر والحظوة عند الملك الناصر، مستخدما أسلوب القسم، يقول:

فلأظفـــــــرنَّ بكــــــلِ مـــــا أمَّلتُـــــه   بمـــــدائحي للناصـــــر الســـــلطان [3]

واختتم بعض الشعراء قصائدهم بالدعاء للملك الناصر بالنصر والتمكين وبطول العمـــر، ولا يكون ذلك إلا للملوك لرغبتهم بالدعاء لهم، يقول ابن رشيق:" وقد كره الحذّاق من الشـــعراء ختم القصيدة بالدعاء, لأنه من عمل أهل الضعف، إلا للملوك، فإنهم يشتهون ذلك"[4].

ومن ذلك ما اختتم به سليمان بن بليمان قصيدة تهنئة بالدعاء له بالسعادة والهناء، فقال:

فاســـعدْ بعيـــدِ النحـــرِ واســـلمْ لـــه   لا زلـــتَ فـــي ثـــوب الهنـــا ترفُـــلُ[5]

ويختتم أبو علي محمد بن ثروان قصيدته بالدعاء للناصر بالسلام والظفر والتأييد, فهـــو العيد للناس ومصدر سعادتهم وفرحهم، يقول:

فأنـــــت عيـــــدُ الأنـــــامِ والفرحـــــةِ ال   كُبـــرى فـــدُمْ ســـالماً إلـــى حاشـــرْ
لا زلـــتَ تلْقـــى مُنـــاكَ فـــي السِّـــلْمِ وال   حـــــرْبِ ســـــليما مؤيَّـــــداً ظـــــافرْ[6]

وختم سيف الدين المشد مدحيته بالتهنئة بالعام الجديد، والدعاء بالطاعة أبد الدهر، يقول:

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**,ج1, ص243. الكتبي: **فوات الوفيات**, ج1, ص452.
(2) ابن الشعار: **قلائد الجمان**, ج10, ص317.
(3) المصدر السابق: ج9، ص114.
(4) ابن رشيق: **العمدة**, ج1, ص241. انظر: بكار: **بناء القصيدة**، ص231.
(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**, ج4, ص327.
(6) ابن الشعار: **قلائد الجمان**, ج7, ص122.

تهـــــنَّ عامـــــاً أتـــــى جديـــــداً بكـــل مـــا يُرتَجـــى ويطلـــبْ
وعـــــشْ لأمثالـــــه مطاعـــــاً مـــا لاح عنـــدَ الصـــباحِ كوكـــبْ[1]

ويختتم البهاء زهير مدحيته بأفضلية شعره، ما جعل الدهر بعض رواته، يقول:

كـــلامٌ يســـرُّ الســـامعين كأنَّمـــا لســـامعهِ فيـــهِ الشَّـــرابُ المُفـــرحُ
نســـيبٌ كمـــا رقَّ النســـيمُ مـــن الصَّـــبا وغازلـــه زهْـــرُ الريـــاضِ المُفـــتحُ
ومـــدحٌ يكـــونُ الـــدَّهرُ بعـــضَ رواتِـــه فيُمسي ويُضْحي وهو يسري ويســـرحُ [2]

فالشاعر في قصيدته التي بدأها بالغزل وأحسن التخلص للمدح، يؤكّد في نهايتها جمالها، وحسن تذوق السامع لها، فهي كالخمر طابت لشاربها، وكالنسيم رقةً ولطفاً، مـا جعـل النـاس يتناقلونها كالحديث الشريف، وهذا من شأنه تزكيتها عند الناصر، واستلطاف ذوقه الأدبـي، مـا يجعل الشاعر يصل إلى مراده وقصده.

ومن الجدير ذكره أن جلَّ قصائد المديح انتهت بالحديث عن جود الناصر، وكرمه، إمـا تصريحاً أو تلميحاً، إذ ارتبط ذلك بموضوع القصيدة نفسها، لأن الخاتمة فـي جوهرهـا تخـدم غايات ذاتية لدى الشعراء، أساسها التكسب من الشعر، والناظر " إلى قصائد الرثاء, يجد عنايـة من الشعراء في خواتيمها، فجاءت ملائمة لهذا الغرض، فقـد ختموهـا بالحكمـة والموعظـة والحديث عن الموت وحتميته وقوة بأسه"[3]، يتجلى ذلك فيما ختم به الملك الناصر قصيدته التي التي رثى بها نفسه، ودار ملكه حلب, باستدعاء الحكمة، والتأسي بمن أصيب بمصابه من قبلـه، يقول:

وقد حكمـوا فـي مُهجتـي حكـمَ ظـالمٍ ومـا ظـالمٌ إلا سـيبلى كمـا أبلـى
ولـي أسـوةٌ مـع آل بيـتِ محمـدٍ فبعضُـهم أسـرى وبعضَـهم قتْلـى [4]

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**, ص108.
(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص47.
(3) عبد الرحيم: **فن الرثاء**, ص313.
(4) الدواداري: **كنز الدرر**, ج8، ص59. الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص372. انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص221.

وختم السيف الشطرنجي مرثيته –التي بدأها بالحكمة– بالدعاء والسقيا لمجد الملك الناصر ومآثره الطيبة، يقول:

فسقى عهدَه عِهادُ سحاب من رضا الحق لا من الأنداءِ[(1)]

واختتم كمال الدين بن العديم قصيدته التي رثى بها حلب سنة 658هـ بالسلام عليها "وبحمد الله والتسليم لقضائه ومشيئته" [(2)]، كما يبدو في قوله:

ولكنّما لله في ذا مشيئةٌ فيفعلُ فينا ما يشاء ويحكم[(3)]

ويختتم أمين الدين السليماني مرثيته باجتناب المراثي أملا منه في بقاءِ روح الملك الناصر في القلوب، يقول:

إني لأجتنبُ المراثي طامعاً ببقاءِ نفسِك بالغاً آمالها[(4)]

ومن الأمثلة على تكامل النص بتسلسله المنطقي وترابطه الموضوعي، قصيدة شرف الدين الأنصاري في مدح الناصر، إذ بدأها بالمقدمة الغزلية، مصوراً المحبوبة بالغزال في رشاقتها وجمالها، مترقباً لها في أماكن وجودها، منوها بما نعم به في وصلها، يقول:

ومليحةٍ صيَّرتْ مِثلي بها مُثْلَه ما لي إلى وصْلِها من دونِها وُصْلهْ
غزالةٌ لمْ يزلْ دأبي تصيُّدَها بينَ الكنائسِ من قصْرٍ ومن كِلَّهْ
مرَّتْ فقلتُ لها أهْلاً فما عطفت حتى عطفْتُ على أعطافها حَمْلَهْ

وأحسن التخلص من غزله إلى المدح مستخدما أسلوب الحوار مع المحبوبة، إذ خرج منه واستغرق في تعداد مناقب الناصر ومآثره، يقول:

قالت: أرى الناسَ من ذكري بِعشْقِكَ لي في شدَّةٍ قلتُ هذي شدَّةٌ سَهْلَهْ
قالت: فماذا الذي يا شيخُ تهْتَ به فقلت جاهُ صلاحِ الدين يا طِفْلهْ

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2, ص150.

(2) عبد الرحيم: **فن الرثاء**, ص 314.

(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**, ص346–347.

(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**, ج2, ص148. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670. **عيون التواريخ**، ج20, ص263. ص263.

فـــلا يحلّـــونَ أمـــراً كـــان عاقـــدَهُ		فـــيهِمْ ولا يعقـــدونَ الأمـــرَ إنْ حلَّـــهْ

ثم مدحه بالكرم، وبقوة البأس في المعارك، وبعلو المكانة بين الملوك، إلـــى أن أحســـن الانتهاء مستخدما الفنون البديعية، والدعاء للناصر، يقول:

رأيـــتُ صـــلاحَ الـــدين أصـــلحَ مـــا		يُنْمـــى عليـــهِ صـــلاحُ المُلـــكِ والمِلَّـــهْ

وقـــامَ فينـــا مقـــامَ الشَّـــمسِ نائلُـــهُ		فأســـبَغَ اللهُ مـــا جـــنَّ الـــدُّجا ظلَّـــهْ(1)

فقد بدأ الشاعر قصيدته بالغزل الذي تطرب إليه نفس الناصر؛ إذ هو مهيئ لنفسية المتلقـــي لما بعده من المدح، الذي أحسن التخلص إليه بأسلوب الحوار الجميل، ثم ختم بالتذكير بكرمه وعظيم عطائه، وبالدعاء الذي يستهوي الملوك دون غيرهم (2).

ثانياً: اللغة الشعرية

اهتم النقاد بلغة الشعر، وربطوا بين المعنى واللفظ، لأن كلاً منهما متمم للآخر في العمل الأدبي، ويرى ابن رشيق أنَّ " اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر، كـــذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، ولا نجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجرْيه فيه على غير الواجب"(3).

فاللفظ والمعنى أهم ركيزتين يرتكز عليهما الشعر، وبهما يكون التأثير فـــي النفـــوس(4)، وعلى الشاعر الحاذق أن ينتقي أرقى الألفاظ وأفضلها حتى تساعده في أداء المعنى وإتمامه، فلا يصح أن يكون المعنى صائباً، واللفظ فاتراً ركيكاً، وفي ذلـــك مـــدعاة إلـــى اســـتهجانه وذمـــه ورفضه(5)، وهذا يتطلب من الشاعر أن يتقن الربط بين أسلوبه وموضوعات شعره، فالأسلوب " هو الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره، ويبين بها ما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات"(6)، "والحديث عن الأسلوب بألفاظه وتراكيبه حديث عن لغة الشعراء. وتأتي أهميـــة

---

(1) الأنصاري: **الديوان**, ص420-423.

(2) انظر ابن رشيق, **العمدة**, ج1, ص241. انظر: بكار: **بناء القصيدة**، ص231.

(3) ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص124.

(4) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص363.

(5) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص59، 133.

(6) بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص451.

الحديث عن اللغة الشعرية؛ لكونها القالب الذي تسكب فيه التجربة الشعرية، وهي الوسيلة الوحيدة التي تتبلور بها عناصر الشعر جميعا بانفعالاته وأفكاره"[1]، واشترط النقاد حسن الربط بين الأسلوب وغرض القصيدة، فلكل مضمون ألفاظه الخاصة به، فألفاظ المديح مثلا، لا يستعملها الشاعر في الهجاء[2]، وألفاظ المديح الجزلة لا تستعمل في غرض الغزل الذين يحتاج إلى ألفاظ رقيقة سهلة[3]. يقول ابن أبي الإصبع:" ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلا إذا كان المعنى فخماً، ورقيقاً إذا كان المعنى رشيقاً"[4].

ودعا النقاد إلى حسن عرض المعنى بألفاظ مناسبة، " لأن الكلام إذا كان لفظه غثّاً ومعرضه رثّاً، كان مردودا، ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله"[5]، والسهولة في الألفاظ والتركيب مدعاة إلى موافقة المعنى، وأدائه للمتلقي على أتم وجه، ويرى العسكري أن " الكلام يحسن بحسن سلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه"[6]. ومبدأ السهولة من خصائص الشعر في العصور المتأخرة، وكانوا يقيسون به جودة الشاعر.

ولم يغفل النقاد الحديث عن فصاحة الألفاظ في الشعر، واشترطوا في الكلام " خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد"[7]، لأن ذلك من شأنه إبعاد المعنى عن السامع وإبهامه، لضعف التركيب، أو ثقل الكلام على الأسماع وصعوبة النطق به[8].

والناظر إلى الشعر في بلاط الملك الناصر يجده موافقا –في معظمه– لما ذهب إليه النقاد واشترطوه، فكان يتصف بالسلاسة، والسهولة، والتلاؤم بين اللفظ والمعنى، ولا غرابة في

---

(1) الحليبي: **الحركة الأدبية**، ج2، ص299.

(2) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص477.

(3) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص116.

(4) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص195.

(5) العسكري: **الصناعتين**، ص67.

(6) المصدر السابق: ص55.

(7) الصعيدي، عبد المتعال: **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، القاهرة، مكتبة الآداب، 1417هـ/1997م، ج1، ص14.

(8) انظر المصدر السابق: ج1، ص14–16.

ذلك، فإن بلاطه ضم كبار شعراء عصره، أمثال البهاء زهير، والشرف الأنصاري، وابن سعيد المغربي، وسيف الدين المشد، وغيرهم الكثير، ولعلّ جودة أشعارهم تكمن في انشغالهم بوظائف الدولة المختلفة؛ فكان منهم الفقيه والمحدث واللغوي والكاتب وغيرهم، فثقافاتهم المتنوعة تفرض عليهم الانشغال باللغة وتحسينها وإجادتها[1]. ومما يؤكد مبدأ السهولة والتلاؤم في أشعارهم ما نظمه سيف الدين المشد في وصف شعره:

إنَّ نظمي إذا نظرْتَ إليهِ ... أيُّها الفاضِلُ البديع البيانِ
مِلَحٌ كالرِّياضِ تسري إلى الفهْـ ... ـمِ بلا كُلْفةٍ ولا ترجمانِ[2]

وابتعد الشعراء عن الألفاظ التي حذر النقاد من استعمالها، فقد دعا العسكري إلى تجنب الألفاظ الوحشية الغربية، والسوقية المبتذلة[3]، التي تحط من قيمة العمل الأدبي، ودعا إلى الاختيار من الكلام " ما كان سهلاً جزلا، لا يشوبه شيء من كلام العامة، وألفاظ الحشوية، وما لم يخالف فيه وجه الاستعمال"[4]، وتكثر الألفاظ الجزلة والتراكيب الفخمة في قصائد المديح وشعر المناسبات التي قيلت في الملك الناصر، إذ ربط النقاد بين المديح والجزالة، فسبيل الشاعر في مدحه " أن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية غير مبتذلة سوقية[5]، من ذلك ما قاله أمين الدين السليماني يمدح الناصر:

ملكٌ لـه من بني العباسِ منزلةٌ ... علياءُ يقْصرُ عن إدْراكِها زُحَلُ
سمتْ جلالاً فلوْ مُدَّتْ لتلْمسها ... كفُّ الخضيبِ عراها الضَّعْفُ والشَّللُ[6]

وقول شرف الدين الأنصاري:

مليكٌ براهُ[7] اللهُ أشرفَ قومِهِ ... وهمْ خيرُ أبناءٍ لأشرفِ آباءِ

---

(1) انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص321.

(2) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ج42، ص43.

(3) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص148.

(4) المصدر السابق: ص149.

(5) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص128.

(6) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار**، ج16، ص237.

(7) براه: أي برأه بتخفيف الهمز، بمعنى خلقه. **المعجم الوسيط**: مادة برأ.

وأنْشـــأَهُ ممـــا صـــفا مـــن جـــواهرٍ　　　من الفضلِ لمّا أنشـــأَ الخلــقَ مــن مــاءِ
هو الملْكُ يســتولي علـــى الغـــيِّ رُشْـدُهُ　　　فيَمْلكُـــهُ والنـــاسُ عبّـــادُ أهـــواءِ
أوصـّــالَ هيجـــاءٍ وجـــودٍ وسُـــؤددٍ　　　وقطّـــاعَ أقـــرانٍ وهـــامٍ وبيـــداءِ[1]

فقد برز التلاؤم بين الألفاظ والمعاني بجلاءٍ في هذا المدح، فالكلمات " أشرف، والفضل، والرشد، والجود، والسؤدد، وقطاع، وبيداء "، وغيرها ملائمة لغرض المديح، والإشادة بفضـائل الناصر.

ويحتاج غرض الغزل إلى السهولة والعذوبة، والرقة والسلاسة في الألفاظ التي تنسـاب على لسان الشاعر، فقد اشترط النقاد في الغزل " أن يكون حلو الألفاظ رسْلَها، قريـب المعـاني سهلها، غير كزٍّ ولا غامض، وأن يُختارَ له من الكلام ما كان ظاهرَ المعنى، لين الإيثار، رطب المكسر، شفاف الجوهر "[2]، يتجلى ذلك في قول سيف الدين المشد:

رقَّ النســيمُ لمـــا ألقـــاهُ مـــن سَـــهَري　　　فباتَ أشوقَ مـــن جفنـــي إلـــى السَّــحَرِ
ســـرى علـــيلاً بأنفـــاسٍ يُصـــعِّدها　　　شوْقاً إلـــى نفَحـــاتِ الـــرَّوضِ والزَّهَـــرِ
لا تسَلُوا عن حديثِ الـدَّمعِ كيـفَ جـرى　　　فقدْ كفى ما جرى مـــنكم علـــى بَصَـــري
رحلْـــتُمُ وفـــؤادي فـــي رِحـــالِكمُ　　　معـــذَّبٌ بلهيـــبِ الشَّـــوْقِ والفِكَـــرِ[3]

إن ألفاظ وعبارات: النسيم ورقته، الأشـواق، وتـنفس الصـعداء، وحـديث الـدموع، والرحيل، وانشغال الفكر، وغيرها من الكلمات ملائمة لموقف التعبير عن العشق والغرام، فهـي تعكس حال الشاعر النفسية وانكساره أمام المحبوبة.

وقول بدر الدين بن الفويرة:

رعـــى اللهُ لـــيلاتٍ تقضَّـــتْ بوصـــلهمْ　　　فقد كنَّ كـــالخيلانِ فـــي وجنـــةِ الـــدهْرِ
وحيّـــا رياضـــاً بـــالحِمى كنـــتُ مـــنهمُ　　　أنالُ المُنى في ظلِّ أغصانه الخضـــرِ[4]

---

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص51.
(2) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص116
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص101-102.
(4) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.

وجمع كمال الدين ابن الأعمى بين اللفظ والمعنى في معرض غزله، واشتياقه، بـتلاؤم حسن بينها في القول والفعل، إذ قال:

وســـواءٌ إذا المـــودَّةُ دامـــتْ نظـــري بالعَيـــانِ أو بالجنـــانِ
فـــاقتراب الـــدِّيار لفـــظٌ وقـــربُ الـ ـوُدِّ معنـــىً فاســـلك ســـبيل المعـــاني [1]

ولم يمنع حرص الشعراء، واحترازهم من وقوع بعضهم في شرك المآخذ والعيوب التي حذَّر منها النقاد، كالوقوع في اللحن والضرورات الشعرية، التي ينساق إليها الشاعر، ولقد دعـا العسكري إلى الابتعاد كلّ البعد عن الضرورات الشعرية، "حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر"[2]، [2]، وتخرج القصيدة على أتمّ وجه، ويرفض ابن فارس أن يأتي الشعراء في أشعارهم بما يخالف يخالف أعراف اللغة وقواعدها عند الضرورة الشعرية، " فما جعـل الله الشـعراء معصـومين يوقَوْن الخطأ والغلط، فما صحّ من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصولها فمردود"[3]، ومن ومن أمثلة اللحن صرفُ ما لا يصرف للضرورة، نحو كلمة حلب في قول الناصر:

ناشـــدتُكِ اللهَ يـــا هطالـــةَ السّـــحبِ إلا حملْـــتِ تحيـــاتي إلـــى حلـــبِ [4]

وقوله أيضاً:

إذا حلبـــاً وافيتَهـــا حـــيِّ أهلهـــا وقـــل لهـــمْ مشـــتاقُكُمْ لـــم يهَـــوَّمِ[5]

وقد صرف الأنصاري ثلاث كلمات دالة على العلمية والمكان، في قوله:

وتوافـــدوا حلبـــاً فمـــا تركـــوا عَـــدًّا تجتـــاحُ لا مصـــراً ولا بغـــداذا [1]

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص141.
(2) العسكري: **الصناعتين**، ص55.
(3) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تحقيق مصطفى الشُّويمي، بيـروت، بيروت، مؤسسة أ. بدران، 1382هـ/1963م، ص276.
(4) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص58.
(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص144.

وللضرورة الشعرية قصر الممدود في كلمة الشراء، كما في قول الأنصاري:

فـــــــاتركِ البيـــــــعَ والشِّـــــــرا ودع الشَّـــــــــــرَّ والشَّـــــــــــرَهْ[2]

وأدى اختلاط العرب بالأعاجم في حاضرة الدولة إلى تسرّب بعض الكلمات الأعجمية إلى الأشعار، فقد ظهرت كلمة " سنجق " تركية الأصل في قول شرف الدين الأنصاري:

وفاقتْ بروجَ الشمسِ منها بروجُها غَـداةَ أقلَّـتْ مـن شـعارِكَ سَـنْجقا[3]

ووردت لفظة "مغل " في قول الملك الناصر:

عبرتُ على الشهباءِ وفي القلبِ حسرةٌ ومنْ حولَها تـركٌ تُشـايعُها مُغْـلا[4][5]

ووردت كلمة "جلنار " الفارسية في قول سيف الدين المشد:

يُعجِبُنـــــي خـــــالُ وجنتيْـــــهِ والمســكُ فــي الجُلّنــارِ أعجــبْ[6]

وكثرت الأسماء الأعجمية النصرانية في قصيدة عون الدين بن العجمي التي مدح بها الملك الناصر، وهذا عائد إلى العلاقات الوثيقة بين الديانات السماوية، والتسامح الديني في المملكة، ومنها يقول:

سألتُ توماسَ عمَّنْ كان عاصِرَها أجـابَ رمـزاً ولـمْ يسـمحْ بتِبيـانِ
وقـال: أخْبَرَنـي شـمْعونُ ينْقُلـهُ عن ابن مريمَ عن موسى بـنِ عمـرانِ
بأنهـا سـفرتْ بـالطّور مشـرقةً أنوارُهـا فكَنَـوا عنهـا بنيـرانِ[7]

ثالثا: الأساليب

---

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص187.

(2) المصدر السابق: ص192.

(3) الأنصاري: **الديوان**، ص368.

(4) خطأ نحوي، والصواب: مغل، وهذا إقواء.

(5) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص50. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص468. الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص58–59.الحنبلي: **شفاء القلوب**، ص 372.

(6) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص107.

(7) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص453.

اختلفت أساليب الشعراء في بلاط الملك الناصر وتنوعت، بحسب درجات ثقافتهم، وموروثهم المعرفي، وحصيلة تجاربهم العلمية، والأغراض الشعرية تدفع الشعراء –في بعض الأحيان– إلى استخدام الأسلوب الأنسب لها. وهذه الأساليب على النحو الآتي:

1) التناص:

" تعد ظاهرة تفاعل النصوص وانفتاحها على بعضها البعض، قديمة قدم الممارسة النصية ذاتها، ولقد انشغل الخطاب النقدي العربي القديم بهذه الظاهرة في مجال تأملات النقاد في بناء النص، وعلاقة القديم بالمحدث، واللفظ بالمعنى..."(1). ولا بد للكاتب أن يعتمد في كتاباته على ما تأثر به من نصوص أخرى بحسب طبيعة تفكيره، وميوله الأدبية، "وما من كتابة مبتكرة خالصة مائة بالمائة، دون أن تكون متأثرة بغيرها، بل هو امتزاج بين الأنا والآخر السابق عليه ليكون في الأخير نصا جديدا إلى جانب النصوص الإبداعية الأخرى، فكل كاتب يتجه نحو الكتابة الإبداعية بالضرورة في سياق قراءته لنصوص أدبية لها حضورها المميز، ونموذج إبداعي فيما يفتح من آفاق ومناخ جديد في فضاء المشهد الأدبي من حيث الرؤية والصورة والبناء والجمالية والموسيقى..."(2).

ووظّف شعراء الملك الناصر التناص في أشعارهم من خلال ما تعارفوا عليه سابقا من المصطلحات النقدية السائدة آنذاك، كالاقتباس، والتضمين، والسرقات الشعرية، وغيره من الكلمات التي يتضمنها المصطلح النقدي الحديث "التناص".

*** التناص الديني:**

استخدم شعراء الناصر التناص الديني، إذ بدا التأثر بالعلوم الدينية واضحا عندهم، وكان لثقافتهم الإسلامية بالغ الأثر في استيحاء بعض قصص القرآن الكريم، واستخدام المصطلحات الفقهية في أشعارهم، وهذا يدل على تمكنهم من هذه العلوم التي كانوا يشتغلون بها في الدولة، فكان " من البدهي أن تتسرب إلى أشعارهم ألفاظ ومصطلحات، ومعان وصور من تلك العلوم"(3). وكان للأحداث السياسية والاجتماعية المعاصرة –كالفتن والحروب والكوارث– دور

---

(1) وعد الله، ليديا: **التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة**، عمان، دار جدلاوي، 2005م، ص15. انظر مفتاح، مفتاح، محمد: **تحليل الخطاب الشعري** (استراتيجية التناص)، ط1، بيروت، دار التنوير، 1985م، ص121.

(2) حسين، محمد طه: ***التناص في رأي ابن خلدون***، **مجلة فكر ونقد**، عدد32، ج4، 2000م/ ص127. انظر بودويك، بودويك، محمد: **شعر عز الدين المناصرة**، ط1، عمان، دار مجدلاوي، 1427هـ/2006م، ص331.

(3) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص329.

في هذا الاستحضار الديني، إذ استدعت الرجوع إلى الدين وأخذ العبرة[1]، ومما يدلل على ثقافة ثقافة الشعراء الدينية، وعلى استقائهم بعض معاني القرآن الكريم والحديث الشريف، ما وصف به سيف الدين المشدّ شعرَه في قوله:

ثـــمَّ إنـــي طرَّزْتُـــهُ بالأحاديـــ ـــثِ ورصَّـعْتُهُ مـن القرآنـي [2]

ومن أمثلة التناص الديني قول سيف الدين المشد:

ملـــكٌ تتلـــو كتائبُـــهُ جـــاء نصـــرُ الله واقْترَبـــا[3]

فالشاعر يستوحي قوله تعالى: (إِذا جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ)[4]، فالنصر مقترن بعساكر ممدوحه، وهذا يظهر ما كان يتمتع به الجيش من الالتزام الديني، الذي هو انعكاس طبيعي لصفات الناصر.

وقول شرف الدين الأنصاري:

المالـكُ الناصـرُ المُمْضـي أوامـرَهُ على الملـوكِ بحكْـمِ الجـودِ والبـاسِ
إذا بنَـوا سُـؤْدداً يومـاً علـى شـرفٍ هـارٍ بنـاهُ علـى توثيـقِ آسـاسِ[5]

مستوحيا قوله تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الظالِمينَ) [6]، وذلك من شأنه التأكيد على ثبوت دعائم دولة الناصر، القائمة على التقوى والعدل، وضعف الممالك الأخرى من حوله.

ويوظف سيف الدين المشد التناص القرآني في رثائه ابناً للناصر، فيقول:

ليـت يحيـا مـن فقـدْناهُ وقـدْ أوتـيَ الحُكْـمَ صـبِيّا والحِكَـمْ[7]

(1) انظر باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص626.
(2) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص44.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص131.
(4) سورة النصر، آية 1.
(5) الأنصاري: **الديوان**، ص254-255.
(6) سورة التوبة، آية 109.
(7) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص340.

فهو يستوحي قوله تعالى: (يا يَحْيى خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْناهُ الحُكْمَ صَبِيّاً)[1]، لتأكيد العلاقة العلاقة بين البيتين الطاهرين اللذين نشأ بهما سيدنا يحيى عليه السلام، وابن الملك الناصر، فالنبي يحيى كان مؤهلاً للرسالة منذ صغر، والمرثي كان مؤهلاً للملك والرئاسة.

وكان لاسم الناصر " يوسف " أثره في استيحاء الشعراء قصة سيدنا يوسف –عليه السلام– ففي غرض المدح قرنوا بينهما في الجمال والكرم، فمن حيث الجمال، يقول شرف الدين الأنصاري:

فيا يوسفَ الحُسنِ الذي مذْ علقْتهُ بسَيارةٍ من فكرتي قلتُ:" يا بُشْرى"[2]

مستوحيا قوله تعالى: (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذا غُلامٌ)[3].

ومن حيث الكرم والجود، يقول شرف الدين الأنصاري:

أحلْتُ عليْكَ ابنَ العزيزِ بني سُرى بضائعهمْ تُزْجى إليكَ وتصرفُ
فَمَنْ مَسَّهُ ضُرٌّ منَ الناسِ كلِّهمْ فها حلبٌ مصرٌ وها أنتَ يوسُفُ[4]

وظّف الشاعر قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَاكَ بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا)[5].

وأصيب سيف الدين المشد بألمٍ في عينيه، فاستذكر قميص سيدنا يوسف –عليه السلام– ودوره في شفاء سيدنا يعقوب من العمى، فقال:

لا يَخْتَشي رَمَداً يُلِمُّ بعيْنِهِ من كانَ ريحُ قميصِهِ يُبْري العمى[6]

فهو يستوحي في البيت قوله تعالى: (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً)[7].

---

(1) سورة مريم، آية 12.
(2) الأنصاري: **الديوان**، ص421.
(3) سورة يوسف، آية 19.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص338.
(5) سورة يوسف، آية 88.
(6) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص133.
(7) سورة يوسف، آية 93.

وأما في الرثاء، فقد وظّف الشعراء اسم الناصر يوسف في استدعاء الحزن الطويل عليه، فقد شبه السيف الشطرنجي الناس في حزنهم على الناصر بسيدنا يعقوبَ –عليه السلام– في حزنه على ابنه[1]، يقول:

قدْ سقى يوسفُ الناسَ كأسَ صبْرٍ مُرَّةً لا تقرُّ في الأحشاءِ

فهم في محلِّ يعقوبَ في الحزْ نِ وإجراءِ دمعِهمْ بالبُكاءِ[2]

مستوحيا قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهْوَ كَظِيمٌ﴾[3]. وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة على استحضار القرآن الكريم عند شعراء الناصر[4].

وتأثر الشعراء بالحديث النبوي الشريف، كونه مصدر التشريع الثاني بعد القرآن الكريم، واستدعوه ليعينهم في التعبير عن المعاني المختلفة، والمواقف التي يتعرضون لها في حياتهم، من ذلك ما قاله تاج الدين بن التنوخي:

فالنصُّ جاء عن الحديث محمدِ ال هادي "أقرّوا الطيْرَ في أوْكارها"[5]

فهو يستوحي قوله عليه الصلاة والسلام:" أقرُّوا الطَّيْرَ في مَكَناتِها"[6]، وعلاقة ذلك أن الشاعر الملقب بالهدهد والشحرور، قد أهداه الناصر ضيعة يسكن فيها، فسعى حساده في إخراجه منها.

وقول سيف الدين المشد:

أنتَ الكريمُ ابنُ الكريمِ ثلاثةً كلٌّ غدا عندَ الإلهِ مُكرَّما

هذا مقالُ محمَّدٍ خيرِ الورى في حقِّ يوسفَ والسلامُ عليهما[7]

---

(1) انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص331.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص150.

(3) سورة يوسف، آية 84.

(4) انظر الأنصاري: **الديوان**، ص520. الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص355.

(5) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص380. **عيون التواريخ**، ج20، ص415.

(6) البيت الأخير مقتبس من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:" أقروا الطير في مكناتها". انظر البيهقي: **السنن الكبرى**، ج9، ص311. كتاب الضحايا.

(7) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص133.

وقد استوحى الشاعر قول الرسول عليه الصلاة والسلام:" الكريم ابن الكريم ابن الكـريم ابـن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم"[1]، وذلك للعلاقة بين نسب النبي يوسف عليـه السلام، والملك الناصر، إذ كل منهما ينتمي إلى أصل ديني تقي طيب.

*** التناص العلمي:**

كان لثقافة الشعراء دور فاعل في استحضار العلوم المختلفة بألفاظها ومعانيها، إذ عمدوا إلى توظيفها في قصائدهم وفقَ ما يقتضيه الغرض الشعري، كالمدح والرثاء والغزل، وغيرهـا، ومما يبرهن على ثقافة الشعراء ومعرفة طرق نظمهم في شتى العلوم ما قاله سيف الدين المشـد يصف شعره:

جمـــعَ الطِّـــبَّ والنجامـــةَ والنحـــــــوَ وعلـــمَ القـــريضِ والألحــــانِ
والأصــــوليْنِ والخـــلافَ مـــع الحكـــــــمةَ والمنطـــقَ المتـــينَ البيـــانِ[2]

وحازت المصطلحات العلمية بنصيب الأسد في أشعارهم، ومن ذلك مصطلحات الحديث الشريف، إذ أوردها البهاء زهير في معرض غزله ومدحه، فقال:

وهـــــوىً حفظْـــــتُ حديثَـــــهُ وكتمتُـــــه فوجـــدْتُ دمعـــيَ قـــدْ رواهُ مُسَلْســـلا[3]
يُـــروى حـــديثُ الجـــودِ عنـــهُ مُســـنَدا[4] فعَلامَ ترْويــهِ الســحائبُ مُرْســلا[5] [6]

---

(1) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي: **صحيح البخاري**، تحقيق عبـد العزيز بن عبد الله بن باز، ط1، ب.م، دار الفكر، 1411هـ/1991م، ج5، ص257. كتاب تفسير القرآن.

(2) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص44.

(3) المسلسل من الأحاديث: ما تتابع فيه الرواة إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- على حال واحدة، كأن يقـول كـل منهم: "حدثني فلان وهو يبتسم". **المعجم الوسيط**: مادة سلسل.

(4) الإسناد في الحديث: رفعه إلى قائله. والمسند من الحديث: ما اتصل إسنادهُ حتى يسند إلى الرسـول عليـه الصـلاة والسلام. **لسان العرب**: مادة سند.

(5) الحديث المرسل: ما سقط من إسناده الصحابي، كأن يقول التابعي: قال الرسول عليه الصـلاة والسـلام، ولا يـذكر الصحابي الذي أخذه منه. **المعجم الوسيط**: مادة رسل.

(6) البهاء زهير: **الديوان**، ص177.

واستعان سيف الدين المشد بكتب جمع الحديث الصحيحة، ووظفها في معــرض مدحــه الناصر، وذكر أفعاله الغريبة والعجيبة في ساحة المعركة، فقال:

وحـــــدَّثْتنا عنــــــهُ سُـــــمْرُ القنـــــا غرائبـــاً وهْـــيَ العَـــوالي الصِّـــحاحْ[1]

ووظَّفوا مصطلحات الفقه في أشعارهم، ومن ذلك مصطلح "الإجارة"، كما يبدو في قول شرف الدين الأنصاري متغزلا:

وقتْـــلُ العمْـــدِ قـــد قتلتْـــهُ علمـــاً وما وصـــلتْ إلـــى بـــابِ الإجـــارةْ[2][3]

" وباب الإجارة أحد الأبواب المعروفة في الفقه، وهو يسبق باب القتل، وأراد الشاعر الإشـــارة إلى تمادي محبوبته في قتل محبوبها بالصد والهجران، دون أن تحـــاول الوقـــوف عنـــد بـــاب الإجارة، تأكيداً لما في هذا الباب من منافع"[4].

ويستدعي البهاء زهير مسألة فقهية تبحث في النص القاطع، وعدم تأويله، في معــرض مدحه الناصر، وإثبات الولاء والإخلاص له، يقول:

يـــا مَـــنْ مَـــديحي فيـــه صـــدقٌ كلُّـــه فكأنَّمـــــا أتلـــــو كتابـــــاً مُنْـــــزَلا
يـــا مَـــنْ وَلائـــي فيـــه نـــصٌّ بـــيِّنٌ والـــنصُّ عنـــد القـــومِ لا يتـــأوَّلا[5][6]

فحبه الناصر لا يتجادل فيه اثنان، مثل النص القرآن الذي هو "نص قاطع لا يجوز بحال من الأحوال تأويله أو الاجتهاد فيه"[7].

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص112.
(2) الإجارة: الأجر على العمل، وهي عقد يرد على المنافع بعوض. **المعجم الوسيط**: مادة أجر.
(3) الأنصاري: **الديوان**، ص201.
(4) المصدر السابق: ص201.
(5) خطأ نحوي، والصواب: يتأوَّلُ، وهذا إقواء.
(6) البهاء زهير: **الديوان**، ص179.
(7) المصدر السابق: ص179.

ومن المصطلحات الدينية الفرض والنافلة، فقد صور البهاء زهير غزله بالنافلة، ومدحه بالفرض، يقول:

مهَّدْتُ بالغزلِ الرقيقِ لمدْحهِ وأردتُ قبْـــلَ الفـــرْضِ أن أتـــنفَّلا(1)

وقد أحسن الشاعر التوظيف في العلاقة بين المتعبد الذي يقدم النوافـــل قبـــل الفـــرائض والواجبات، استكثاراً في الطاعات، وبين المادح الذي يقدم بين يدي مدحه غزلاً رقيقاً، اســـتزادة من الهبات والعطايا.

ومن ذلك قول أمين الدين السليماني يرثي الملك الناصر:

والله ما يسلوكَ قلبُ ابنِ حرَّةٍ جعلْتَ له من طَوْلِكَ الفــرْضَ والـــنفْلا (2)

وقول سيف الدين المشد مؤكداً على ولائه للناصر:

لم أزلْ في شرعِ طاعتكم قائمــــــاً بــــــالفرْضِ منتصِــــــبا (3)

واستخدم الشعراء المصطلحات النحوية في مدح الناصر، فقد جاءت كلها في الحديث عـــن قوته وبسالته في المعارك والحروب أمام ضعف أعدائه وانكسارهم، يقول سيف الدين المشد:

شرْطُ سنانِ رمْحهِ جــــــزْمُ العــــــدى فــــــي قــــــرَنِ
وحــــــــــــدُّ فعْــــــــــــلِ ســــــــــــيفِهِ مــــــاضٍ علــــــى الفــــــتْحِ بُنــــــي(4)

فقد استخدم الشاعر مصطلحات " الشرط والجزم وبناء الفعل الماضي على الفتح " النحوية ليدلل بها على قوة الملك الناصر، وعظم فعله بالأعداء.

وقول شرف الدين الأنصاري:

ويرفعُ خفضَ العيشِ عن كلِّ غادرٍ إذا جرَّ نحوَ الحــرْبِ عســكرهُ المجــرا
مــــديحٌ تخيَّـــرْتُ القـــوافي مُحلِّيـــا بهِ رفعَها والنَّصْبَ والجــزْمَ والجــرَّا (5)

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص177.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص670.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص132.
(4) المصدر السابق: ص333.
(5) الأنصاري: **الديوان**، ص199.

وقول محيي الدين بن زبلاق:

يُعْطيــكَ خفــضَ العــيشِ رفْــعُ ســتورهِ ويُريكَ نصْبَ المجْـدِ جــرُّ رماحِــهِ[1]

فقد وظف الشاعران مصطلحات " الخفض والرفع والنصب والجــزم " النحويــة لعلاقتهــا بأفعال الناصر، ومصطلح " الجر " لعلاقته بهزائم أعدائه، وما تلحقه السيوف والرماح بهم، ولا شكَّ أنّ بعضها قد أضفى تعقيداً على لغة الشعر.

*** التناص الأدبي:**

استخدم شعراء الناصر التناص الأدبي، إذ استعانوا بثقافتهم الأدبية وإرثهم الشعري فــي قصائدهم، ومقطعاتهم، من خلال ترحال نصوص شعرية سابقة إليها، مراعين دورها في إتمــام المعنى، وحسن الأداء. وتكمنُ القيمة الفنية لهذا التناص في " تأكيد المعنى"[2]، وإضفاء لمســات الجمال عليه[3]، وتتجلى براعة الشاعر في تصريف ما استملحه من الشعر المضمَّن عن معنــاه الأصلي الذي قيل فيه سابقاً، ليتلاءم مع المعنى الجديد الذي رُحِّلَ من أجله[4].

وبرز هذا التناص بوضوح في غرضي المدح والغزل في بلاط الناصر، ومن ذلك مــا قاله سيف الدين المشد متغزلا:

فلمّــا نــأى عنّــي وطــالَ بِعــادُه ولمْ يجــرِ فــي ســمْعي لأوْبتِــهِ خبــرْ
بكيْــتُ عليْــه حجَّــةً بعــدَ حجــةٍ "ومن يبْكِ حولاً كــاملاً فقــد اعتــذرْ"[5]

ففي البيت الثاني تناص مع بيت لبيد بن ربيعة العامري:

إلــى الحــولِ ثــمَّ اســمُ الســلامِ عليكمــا ومن يبْكِ حولاً كــاملاً فقــد اعتــذرْ[6]

---

(1) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج10، ص317.

(2) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج2، ص326.

(3) انظر باطاهر، بن عيسى: **البلاغة العربية مقدمات وتطبيقات**، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديــد المتحــدة، 2008م، ص364.

(4) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص85. باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص631.

(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص124–125.

(6) العامري، لبيد بن ربيعة: **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، تحقيق وتقديم إحسان عباس، الكويت، مطبعة حكومــة حكومة الكويت، 1962م، ص214.

موظفا بيته في طول البكاء على المحبوبة، الذي يضاهي بكاء ابنة لبيد العامري عند وفاته.

ويستوحي الأنصاري شعر امرئ القيس في معرض غزله، يقول:

خليليَّ ها " سـقْطُ اللَّـوى " قـدْ بـدا لنـا   فلا تَعْدُواهُ بل " قفا نبْكِ مـن ذِكـرى"[1]

وفيه تناص مع بيت امرئ القيس:

قِفـا نبْـكِ مـن ذِكـرى حبيـبٍ ومنْـزلِ   بسقْطِ اللِّوى بـين الـدَّخولِ فحومَـلِ[2]

فقد وظف الشاعر التناص في اشتياقه إلى مضارب المحبوبة، التي لاحت للشاعر من بعيد فبكي اشتياقاً، مثلما بدت أطلال ديار المحبوبة لامرئ القيس، فاستدعت البكاء والذكرى.

ويستوحي أيضا شعر كعب بن زهير، في سياق مدحه، يقول:

تركْـتَ أخـا الحـدباءِ يهْـوي لـو أنـهُ   "على آلة"، من قبلِ سخْطكَ، "حـدباءِ"[3]

وفي البيت تناص مع بيت كعب بن زهير:

كـلُّ ابـنِ أُنْثـى وإنْ طالـتْ سـلامتُهُ   يومـاً علـى آلـةٍ حـدباءَ محمـولُ[4]

فقد وظف الشاعر معاني الموت في الحديث عن قوة الناصر وبأسه وأثره في الأعـداء، فإن مآلهم الهلاك والموت، إذا ما غضب عليهم.

ويستعطف الأمير يوسف بن موسى كرم الملك الناصر، ويشكو قلةَ ذات اليد، فيقول:

يـا أيهـا الملـك الميمـونُ طـائرُهُ   ومـن لـه نِعـمٌ تنهـلُّ كـالمطرِ

جبـرتَ كسْـرَ قلـوبٍ واكتسـبْتَ بهـا   أجْراً فهـلْ لـكَ فـي جبـرٍ لمُنْكسـرِ

كـلُّ الأرامـلِ قـد قضَّـيْتُ حـاجتهمْ   فمـن لحاجـةِ هـذا الأرمـلِ الـذَّكَرِ[5]

---

(1) الأنصاري: الديوان، ص198.

(2) القيس، امرؤ: **ديوان امرئ القيس**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة، دار المعارف، ص8.

(3) الأنصاري: **الديوان**، ص51.

(4) النبهاني، يوسف بن إسماعيل: **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**، ط1، بيروت، دار الكتب العلميـة، 1996م، ج3، ص8.

(5) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص303.

وفي البيت الأخير تناص، إذ قاله جرير بن عطية في الشكوى لعمر بن عبد العزيز لما رفض إعطاءه مالاً على شعره، وكلا الحالين فيه استعطاف وشكوى[1].

واستعان شعراء الملك الناصر بالأمثال لتأكيد ما ذهبوا إليه في مدحه، واتصافه بالجود والكرم، والعفو والتسامح، وفي ذلك تقريبُ المعنى المراد إلى الأذهان، يقول سيف الدين المشد في كرم الناصر الذي لا ينقطع ما أشرقت الشمس:

ومن ندى راحتيْه كـالبحْرِ والبحـرُ دافـقْ
يفـيضُ شـرقاً وغربـاً بالـدُّرِّ " مـا ذرَّ شـارقْ "[2]

وقوله: " ما ذر شارق" من الأمثال السائرة الشائعة[3]، إذ وظفه الشاعر في وصف عطاء الناصر الفائض على الناس كلّما أشرقت الشمس.

وقول شرف الدين الأنصاري:

ذو فِطْنةٍ أعجزتْ أدنى بديهتِها من باتَ يضـرِبُ أخماسـا لأسـداسِ[4]

وقوله " يضرِبُ أخماسا لأسداسِ " من الأمثال الشائعة عند العرب، ويضرب لمن " أظهر أَمـراً يُكنّي عنه بغيره... والعرب تقول لمن خاتَلَ[5]: ضَرَبَ أَخْماساً لأَسْداسٍ"[6]، إذ وظفه الشاعر في في الحديث عن دهاء الناصر وحنكته السياسية، أمام عجز أعدائه عن مجاراته، ومحاكاته.

*** التناص التاريخي:**

استخدم شعراء الناصر التناص التاريخي، إذ " استلهموا التاريخ بأحداثـه وشخصـياته، ووظفوه في خدمة المعاني التي عبّروا عنها" [7]، فاستحضر عون الدين بن العجمي الشخصـيات الشخصيات الدينية، كأسماء بعض الصحابة الكرام في قوله يمدح الناصر:

---

(1) انظر ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص271.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص116.
(3) انظر ابن منظور: **لسان العرب**، مادة شرق.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص255.
(5) خاتل: بمعنى خادع وراوغ.**المعجم الوسيط**: مادة ختل.
(6) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة خمس.
(7) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص336.

لإحْسانهِ أمْسيْتُ حسانَ مدحِهِ　　　وكنتُ سليماناً فأصْبحْتُ سلمانا[1]

موظفاً اسم حسان بن ثابت –رضي الله عنه– إذ صور مدحه الناصر بمدح حسان للرسول –عليه الصلاة والسلام–، بل بلغت منزلتُهُ عند الناصر منزلةَ سلمان الفارسي عند الرسول –عليه الصلاة والسلام_.

واستلهم الشعراء أسماء الأنبياء، للحديث عن عطاء الناصر وكرمه، يقول محمد بن ثروان:

أصبحَ يحْكي المسيحُ نائلَهُ　　　وأصبحَ الناسُ كلُّهم عازر[2] [3]

واستعان سيف الدين المشد ببعض رواة القرآن من القُرّاء السبع، في تناقل مآثر الناصر، وفضائله، في قوله:

لنا ملِكٌ حازَ المكارمَ كلَّها　　　وليسَ لهُ في العالمين نظيرُ

رواهُ حمامٌ عاصمٌ ثمَّ نافعٌ　　　ولكنْ رواةُ الجودِ عنهُ كثيرُ[4]

ووظف البهاء زهير بعض الشخصيات الأدبية في الحديث عن محاسن مدحه الناصر، يقول:

لو أنَّها ممن تقدَّمَ عصْرُهُ　　　منعتْ زياداً أن يقولَ وجرولا[5]

فالشاعر يؤكد جمالَ مدحيته، التي يعجز الخطباء البلغاء والشعراء الفصحاء أمثال زياد والحطيئة، عن مجاراتها في ألفاظها ومعانيها، إذ كان لزاماً على الناصر أن يطرب لها، ويكرمه.

وكان للشخصيات التاريخية–ممن اشتهر بصفات خلدت ذكراهم– حضورٌ عند الشعراء، فقد عجز عنترة بن شداد، وحاتم الطائي عن مضاهاة الناصر في شجاعته وكرمه، وفي ذلك يقول محمد بن ثروان:

---

(1) ابن فضل الله العمري: **مسالك الأبصار**، ج16، ص122. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج1، ص452.

(2) العُزَيْر: هو الرجل الصالح الحكيم الذي أماته الله مائة عام، كما أخبر في تعالى في سورة البقرة: آية 259. والمشهور أنه نبي من أنبياء بني إسرائيل. انظر ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل: **قصص الأنبياء**، تحقيق ومراجعة لجنة من العلماء، ط1، المنصورة، مكتبة الإيمان، ب.ت، ص266، 268.

(3) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج7، ص121.

(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص332.

(5) البهاء، زهير: **الديوان**، ص 178.

عنتـــرةُ فـــي اللقـــاء دونـــكَ وال   طـــائيُ عمـــا ترومُـــهُ قاصِـــرْ[1]

وغمر حِلمُ الناصر الناس حتى نسوا من اتصف بذلك من قبلُ، وفي ذلك يقول سيف الدين المشد:

أنســـى الأنـــامَ بجـــودهِ وبعفـــوهِ   كـــرمَ ابـــنِ زائـــدةٍ وحلـــمَ معاويـــة[2]

2) التكرار:

التكرار من الأساليب التي ظهرت عند شعراء الناصر، وهو " دلالة اللفظِ على المعنـــى مردّداً"[3]، " والإطناب بالتكرار من الطرق الشائعة للتعبير في اللغة العربية... وهو محمـــود إذا جاء في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه"[4]، وتكمن القيمة الفنية للتكرار فـــي تأكيـــد الكلام، والتعظيم من أمره، والمبالغة في المدح[5]، ومن تكرار العبارات قول البهاء زهيـــر فـــي معرض استعطافه:

زعمْـــتمْ بـــأنّي قـــدْ نقضْـــتُ عهـــودَكُمْ   لقد كذب الواشي الـــذي لـــيسَ ينْصـــحُ

وإلا فمـــا أدري عســـى كنـــتُ ناســـياً   عسى كنتُ سكراناً عسى كنتُ أمـــزحُ[6]

فقد كرر الشاعر عبارة "عسى كنت " مؤكداً على الولاء للناصر، ومبالغة في التبريـــر، ونفـــي الخبر.

ويكرّر الأنصاري عبارة "بشرى لنا" ثلاثاً في مطلع تهنئته الناصر بمناسبة مجيء التقليد من الخليفة، وفي ذلك إشارة إلى تأثيره النفسي في الأسماع، وتعظيم هذه المناسبة في النفـــوس، يقول:

بُشـــرى لنـــا بشـــرى لنـــا بشـــرى   بهـــــذه الموهِبـــــةِ الكُبـــــرى[7]

---

(1) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج7، ص121.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص106.
(3) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج2، ص146.
(4) عكاوي: **المعجم المفصل**، ص169.
(5) انظر ابن الأثير: **المثل السائر**، ج2، ص147.
(6) البهاء زهير: **الديوان**، ص41.
(7) الأنصاري: **الديوان**، ص237.

ويكرّر البهاء زهير لفظة "كأن" في غزله، ووصفه المحبوبة، ويعمد إلى توظيف هـذا الحـرف لاستكمال صورتها الجميلة، فيقول:

كأن الذي فيه من الحسنِ والضِّيا   تداخَلَـهُ زهـرٌ بـهِ فهـو يمـرحُ
كـأنَّ نسـيمَ الـرَّوضِ هـزَّ قوامَـهُ   ليَخْجَـلَ غصْـنُ البانـةِ المتطـوّحُ
كـأنَّ المـدامَ الصِّـرْفَ مالـت بعطْفـه   كما مـالَ فـي الأرجوحـةِ المُتـرنِّحُ(1)

وكرر شرف الدين الأنصاري صوت "السين" بشكل ملحوظ في قصيدته التي مدح بهـا الناصر، إذ اتصف هذا الحرف بالصفير، والوضوح على سمع المتلقـي، وكـأن الشـاعر أراد إسماع الدنيا ومن عليها فضائل الناصر ومآثره، يقول:

فليسَ في الناسِ إلا من يُوافقُني   بـأنَّ يوسـفَ خيـرُ النـاسِ للنـاسِ
مـن أسـرةٍ غرسـتْ مـنهمْ أوائِلهُـم   من خيرِ مغْرِسِ مُلْـكٍ خيـرَ أغْـراسِ
سـقاهُمُ جيْشُـكَ المنصـورُ كـأْسَ ردىً   يحْظَـى بلذَّتِـهِ سـاقيهِ لا الحاسـي(2)

وكثر تكرار الألفاظ والعبارات في غرض الرثاء، وهذا ما استحبَّه النقاد ودعوا إليه، يقـول ابن رشيق: " وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة وشـدة القرحـة التـي يجـدها المتفجع"(3)، ومن ذلك قول كمال الدين بن العديم مخاطباً حلب في رثائها:

أما كنتِ للراجين ملجاً ومفزعاً   وفيـكِ عـن البأسـاءِ والضـرِّ أنْعـمُ
أما كنتِ عرْفاً للوفود ومقصداً   ويخشاكِ ذو عـدوى ويرجـوكِ مُعْـدِمُ
أما كنـتِ للـداعي إذا مـا دعـا صـدىً   وفيكِ لمـن يبغـي مـن البغْـيِ معـدمُ
أمـا كنـتِ للاجـي حمـىً ولمـن أتـى   قـرى ومـن يحبـو إليـك التكـرّمُ(4)

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص42.
(2) المصدر السابق: ص254-255.
(3) ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص76.
(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص345-346. انظر العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص342.

" فهذا الضرب من التكرار لعبارة "أما كنت" أفاد تقوية النغم في أداء الغرض المراد، وهو التأكيد على الحالة التي كانت عليها حلب قبل قدوم المغول إليها، وبعد ذلك يتوقع القارئ أن ما أصابها على أيدي المغول ليس بالأمر البسيط، بل هو أمر عظيم بدّل حالها، وقضى على محاسنها" (1).

ويعتمد السيف الشطرنجي على الإنشاء مستخدما أسلوب التكرار في الاستفهام، في رثائه الناصر، إذ خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي ليفيد النفي، للتأكيد على عظم الفاجعة، وانقطاع الكرم الناصري بعد موته، وهو أسلوب من أساليب التأبين في الرثاء، ليكون الجواب: ذهب بذهابه.وفي ذلك يقول:

أين من كان للأنامِ جمالٌ	ومعينا على بلوغ الرَّجاءِ؟
أين من كان جودُهُ يخْجلُ السحبَ؟	وأين المرجوُّ بالشهباءِ؟
أين من كانت الملوكُ لديهِ	تتوارى من خيفةٍ وحياءِ؟ (2)

وكرر أمين الدين السليماني أسلوب النداء في رثاء الناصر، معبراً عن حالة الحزن التي أصابته، فقال:

أأبا المظفر يوسف بن محمدٍ	لا قلتُ بعدك للحوادث يا لها
أأبا المظفر يوسف بن محمد	جرَّعتُ نفسي صابَها وحبالها (3)

ويستخدم سيف الدين المشد النداء في تعظيم الناصر، فيقول:

أيا ملكاً أعزَّ الل	ـهُ في يومِ الوغى نصْرهْ
ويا من جودُ كفَّيْهِ	يفوقُ الغيثَ في الكثْرهْ (4)

ويوظف شرف الدين الأنصاري أسلوب التعجب والتكرار في معرض غزله ومدحه، في سياق المقابلة بين الناصر والمحبوب، فيقول:

---

(1) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص189.
(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص149.
(3) المصدر السابق: ج2، ص148.
(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص119.

مـــــا أقـــــبحَ الصَّـــــبْرَ الجميـــــــــ ـــــــــلَ لعاشـــــقيكَ وأجملـــــــكْ!
مـــــا أنقـــــصَ اللّـــــوامَ فـــــي ولهـــــي عليـــــكَ وأكملـــــكْ!
مـــــا أســـــمحَ الســـــلطان بالـــــ مـــــال الجزيـــــل وأبخلـــــك![1]

3) أساليب أخرى:

انفرد شرف الدين الأنصاري بأسلوب تجزئة الكلمة الواحدة إلى حروفها، بما يخدم المعنى الذي أراده الشاعر، إيماناً منه باختصاص الحروف وارتباطها بالمعنى المقصود، يقول:

وســـــمِّيَ بـــــالأحرُفِ العاليـــــاتِ بسُـــــؤدده فـــــي ســـــماء السَّـــــماحِ
بيـــــاءِ اليقـــــينِ وواو الوفـــــاءِ وســـــينِ السَّـــــناءِ وفـــــاء الفـــــلاحِ[2]

فقد ذكر الشاعر مجموعة من الصفات التي دلت عليها حروف اسم الناصر "يوسف".

وقوله:

وقـــد خـــانَني شـــرخُ الشـــباب وراعنـــي مشيبٌ وحالي منـــهُ شـــرْخٌ بـــلا خـــاءِ
يُســـمّى فيُعـــزى كـــلُّ مجـــدٍ ســـؤددٍ إلـــى يائـــه والـــواو والســـين والفـــاءِ[3]

وقوله:

وصْـــــلُكَ يحيينـــــي إذا صـــــحَّ لـــــي والمـــوتُ مـــن: هـــا جـــيم را كـــافِ
إنْ ســـــرَّني منـــــكَ لقـــــاءٌ فكـــــمْ بُليـــتُ مـــن: فـــا را ألـــفْ قـــافِ
تـــــلافَ قلبـــــاً فيـــــكَ أودى بـــــهِ آخـــــرُ لفـــــظٍ مـــــن "الإيـــــلاف"[4]

فالشاعر هنا يخشى الهجر، والفراق، والخوف، إذا ابتعد عن الملك الناصر، ولم يحظ بقربه. ويلاحظ التكلف والتصنع في هذه الأمثلة، إذ كانت الصنعة الشعرية سمة العصر، وبخاصة عند الأنصاري الذي انشغل بها، وأولاها اهتمامه.

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص379.
(2) المصدر السابق ص139.
(3) المصدر السابق: ص52.
(4) المصدر السابق: ص339. وآخر كلمة في سورة "قريش" هي الخوف.

رابعا: الصنعة البديعية

اهتم العرب في أشعارهم بالمحسنات البديعية، التي كانت ظاهرة في قصائدهم، ابتداء من العصر الجاهلي، إذ كانت هذه الصنعة خفيفة المعالم غير واضحة عندهم، " فقد اهتدى الجاهليون بسليقتهم إلى بعض الأساليب وأثرها في تقدير الشعر دون علم بمصطلحاتها"[1]، ثم تطور الأمر عبر العصور اللاحقة، وزاد الاهتمام بتحسين الكلام وتزيينه حتى غدا علم البديع فناً مستقلا بذاته، ساهم في إرساء قواعده، وتثبيت دعائمه مجموعة من العلماء، أمثال قدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجاني، وابن رشيق القيرواني، وأبي هلال العسكري، وابن الأثير، وابن حجة الحموي، وغيرهم.

وشهد العصر الأيوبي والمملوكي اهتماماً بالغا بالصنعة البديعية، " فقد تبارى الكثيرون من الكتاب والشعراء في استخدامها وتلوينها، وأضحى غاية من الغايات التي ينظم الشعر من أجلها"[2]، فاشتهر هذا العصر بالزخارف اللفظية، مما أدى " إلى ظهور فن البديعيات بعد ذلك، فهو مظهر مستحدث من مظاهر الأغراض الشعرية"[3].

والناظر إلى الشعر في بلاط الملك الناصر يرى أن الشعراء كانوا على درجات في استخدامهم المحسنات البديعية، فمنهم مَنْ اعتدل في ذلك فجاء شعره مطبوعا مضفيا إلى النص نوعا من الجمال دون تأثير في المضمون والمعنى الذي أراده الشاعر، مثل شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصاري، والأمير سيف الدين المشد. ومنهم مَنْ شغف بها، فكانت شغله الشاغل ومقصده من إنشاد الشعر، مثل أمين الدين السليماني الذي كان رائد البديعيات في عصره، إذ ألَّف قصيدة في مدح الملك الناصر تضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع[4].

---

(1) يوسف: **الشعر العربي أيام المماليك**، ص300.

(2) عبد الرحيم: **صورة المغول في الشعر العربي**، ص204.

(3) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص607.

(4) انظر الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102. الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص135، عكاوي: **المعجم المفصل**، ص258.

" والصنعة اللفظية لا تتعدى تزيين الألفاظ والمعاني بألوان بديعية من الجمال المعنــوي أو اللفظي"[1]، لذا قسّم النقاد المحسنات البديعية إلى قسمين: لفظي ومعنــوي. وتوضــيح هــذين القسمين عند شعراء الملك الناصر على النحو الآتي:

1- المحسنات اللفظية:

ومنها الجناس، وهو من المحسنات اللفظية التي برزت بكثرة عند شعراء الملك الناصر، "وربما أراد الشعراء استغلال المعطيات الصوتية التي يوفرها التجنيس، لذلك راحوا يكثرون منه في شعرهم"[2]. وقد اعتنى النقاد بالجناس لما له من قيمة فنية وصوتية؛ إذ عدوه " مــن ألطــف مجاري الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة في وجه الفرس... وحقيقته أن يتفق اللفظان في وجه من الوجوه، ويختلف معناهما"[3]. والجناس إنما سمي بذلك " لأن حروف ألفاظه ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد"[4].

واشترط النقاد أن يكون الجناس صادراً عن سليقة عند الشاعر دون تكلّف منــه، حتــى يؤدى المعنى على أتمّ وجه، وتظهر محاسنه وقيمته الفنية في الشعر[5]، وجمال الجناس يكمن في في " إيهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد، فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى للكلمتين معنيين مختلفين،فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام"[6].

والناظر إلى الجناس عند شعراء الملك الناصر يجده – في معظمه – غير متصــنع، إلا في بعض الأشعار التي أبدى فيها الشعراء قدراتهم الإبداعية والفنية، كأمين الدين الســليماني إذ قال:

هـــــذا الـــــدلال والإدلال حـــــالَ   بـــــــالهجْرِ والتَّجنُّــــــبِ حـــــــالي

---

(1) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص189.

(2) عبد الرحيم: **صورة المغول في الشعر العربي**، ص204-205.

(3) العلوي: **الطراز**، ج2، ص185. انظر ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص241.

(4) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص241.

(5) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص329. ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص237. الصعيدي: **بغيــة الإيضــاح**، ج4، ص66.

(6) بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص476.

حِـــرْتُ إذْ حـــزْتَ ربـــعَ قلبـــي وإذْ لا   لِـــيَ صـــبْرٌ أكثـــرْتَ مـــن إذلالـــي[1]

وطغيان الجناس يجعل النص متكلَّفا، والتكلف يؤدي إلى التعقيد، وهـذا بـدوره يُخـلُّ بفصاحة الكلام وبلاغته، ومن ذلك قول شرف الدين الأنصاري:

لقدْ حـلَّ فيهـا عقـدَ صـبْري والْتـوى   فؤادي إلى أن كدتُ أشْفي على التَّـوى[2]

وقول محيي الدين بن زبلاق:

ملـكٌ تـرى حلْـوَ الحيـاة ومُرَّهـا   متمـثِّلا بصـحافِه وصـفاحِهِ[3]

ومنه ما جاء عفو الخاطر، كما في قول عون الدين بن العجمي:

خيرُ الملـوكِ صـلاحُ الـدين لـيسَ لـه   في الجودِ ثانٍ ولا عـن جـودِهِ ثـاني[4]

وقول سيف الدين المشد:

تصـدَّقْ بـأنْ تُصْـغي لمـدحي فإنَّـهُ   هو السِّحْرُ بلْ مثْلُ الشمائلِ في السَّـحَرْ[5]

وقول شرف الدين الأنصاري:

رأيْتُ ملْـكَ صـلاحِ الـدين أصـلحَ مـا   يُنْمى عليـهِ صـلاحُ المُلـكِ والملِّـهْ[6]

ومن الفنون اللفظية "لزوم ما لا يلزم"، ويقال له الالتزام، ومعناه " أن يلتزم الشاعر في شعره قبل روي البيت من الشعر حرفا فصاعدا على قدر قوته وبحسب طاقته"[7]،بمعنى " أن تتساوى الحروف قبل رويّ الأبيات الشعرية"[8]، وهذا ما يضفي على القصيدة نوعا من الجرس الجرس الموسيقي، ويعمد إلى التأثير الفني في نفس السامع، وهو من الفنون البديعية التي قلّ

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 102.
(2) الأنصاري: **الديوان**، 518.
(3) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج10، ص316.
(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج1، ص243.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص126.
(6) الأنصاري: **الديوان**، 423.
(7) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص517.
(8) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص262.

المتقدمون من استخدامها، وأكثر منها المتأخرون إلى درجة الإفراط[1]. وعلى الرغم من كونه غير لازم في العمل الشعري، فإن النقاد اشترطوا العفوية فيه، وعدم التكلف[2]، " لأن الألفاظ إذا إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر وسلاسة طبع، وكانت غير مستجلبة ولا متكلفة، جاءت غير محتاجة إلى التآلف، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق"[3].

ومن الأمثلة على هذا الفن ما قاله أمين الدين السليماني في مدح الناصر:

ودمشْقُ زاد اللهُ مُلْكَكَ جنةٌ — جَدْواكَ فيها مثلُ قِسْمةِ مائها
علَّمْهُ يرْقى مثْلَ جودِكَ في ذُرىً — أوغالها ويصُبُّ في بطْحائها[4]

ومنه قوله في رثاء الناصر:

ذكرى مصيبات الملوكِ تعلُّلاً — إذ كان حالكَ في المصيبةِ حالها
إني لأجتنِبُ المراثي طامعاً — ببقاء نفسِك بالغاً آمالها[5]

ولا شكّ أن تكرار الهاء ثم اللام يفيد، إضافة إلى الجرس الموسيقي إشعار المتلقي بحزن الشاعر، وآهاته المتواصلة في القصيدة.

والتزم شرف الدين الأنصاري ما لا يلزم في مقطوعة يمدح بها الناصر، فقال:

صلاحَ الدينِ يا ملكاً نداهُ — أجلُّ مآثراً وأعزُّ قوْما
رعاكَ اللهُ كم طاوعْتَ جوداً — على كسْبِ العُلا وعصيْتَ لوْما
فلولا أنَّ لِقاكَ عيدٌ — لكُنتُ نذرْتهُ لله صوْما[6]

وقول نور الدين الإسعردي يمدح الناصر:

إذا نحنُ حاضرْناكَ جئتَ بمُبدِعٍ — يزيدُ علينا رائعاً رائِق الوصْفِ

---

(1) انظر العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص411. الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج4، ص89.
(2) انظر ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص517. الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج4، ص89.
(3) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص269.
(4) ابن فضل الله العمري:**مسالك الأبصار**، ج16، ص236.
(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص148. الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 670.
(6) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص457، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة5.

ولمّا رجوْنا بعْضَ ما حاولَ المُنى   لديْكَ نوالاً جُدْتَ بالكُلِّ فــي النِّصْــفِ[1]

ومن الفنون اللفظية "رد العجز على الصدر"، ويعرف بالتصدير[2]، وهو عبارة عن كل كل كلام وجود في نصفه الأخير لفظ يشابه لفظاً موجوداً في الأول[3]، فقد اهتم النقاد بهذا الفــن لقيمته الفنية، ومكانته الرفيعة من بين علوم البلاغة، وما يبعثه الكلام المقصود من الإعجاب في نفس السامع لاسيما المنظوم منه[4]، إذ تكمن قيمته في إضفاء العنصر الموسيقي على النص، فهو فهو جزء لا يتجزأ من التكرار. لذا أكثر شعراء الناصر من استخدامه في أشعارهم، فمن بــدائع شرف الدين الأنصاري في هذا المضمار قوله:

فَفرَّقْتُ من سُحْبِ الجَوى ما تجمَّعتْ   وجَمَّعتُ مــن شَــمْلِ العُــلا مــا تفرَّقــا

وصــدَّقَ ظنّــي موشِــكاً فــي افتتاحهــا   ومــا زالَ ظَنّــي فــي عُــلاهُ مصــدَّقا

لقــــدْ سَــــبَقتْ ســــكّانَها مُسْــــتغيثةً   فكُنْــــتَ إليهــــا بالإغاثــــةِ أسْــــبَقا[5]

وقول تاج الدين بن حوارى التنوخي:

يــــا ناصــــراً أبــــدا عبيــــدَ وَلائِــــه   فالنَّصــــر والتأييــــد مــــن أنصــــارها

مــــا قــــدرُ داري فــــي البنــــاء فسَــعْيُهمْ   فــي هــدْمها قــد زاد فــي مقــدارها[6]

ومنها "الموازنة"، إذ كثر هذا الفن البديعي عند شعراء بلاط الملك الناصر، ومعناها " أن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي الألفاظ وزناً"[7]، بحيث تتساوى الكلمات في الوزن، الوزن، وتتعادل ألفاظها في التقسيم والتسجيع على الأغلب[8].

وتكمن القيمة الفنية للموازنة في تحقيق الانسجام الموسيقي للبيت الشــعري، وهــذا مــا تطيب به نفس المتلقي، يقول ابن حجة الحموي:" وللكلام بذلك طلاوة ورونق، وسببه الاعتــدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء، فإذا كانت مقاطع الكلام معتدلــة؛ وقعــت فــي الــنفس موقــع الاستحسان"[9].

---

(1) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص457، نقلا عن مخطوطة الديوان، الورقة5.

(2) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص116.

(3) العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص408.

(4) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص385.

(5) الأنصاري: **الديوان**، ص368.

(6) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص380. **عيون التواريخ**، ج20، ص415.

(7) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص272. العلوي: **الطراز**، ج3، ص22.

(8) انظر ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص386.

(9) ابن الأثير: **المثل السائر**، ج1، ص272. انظر العلوي: **الطراز**، ج3، ص22.

ومن ذلك قول عبد الله بن محاسن:

فعلـــى المُـــوالي نِعمـــةٌ مـــن مالـــهِ   وعلى المُعـــادي نِقمـــةٌ مـــن عَضْـــبِهِ[1]

فقد وازن الشاعر بين النعمة التي ينعم بها كل من والى الناصر، واستجاب لأمره، وبين العذاب الذي يحيق بأعدائه ومناهضيه.

وقول البهاء زهير معبراً عن فرحة الطبيعة بشفاء الملك الناصر من مرضه:

فـــلا زهْـــرُ إلا ضـــاحكٌ متعطِّـــفٌ   ولا دوْحُ إلا مــــــائِسٌ متـــــــرنِّحُ
ولا غصْـــنُ إلا وهـــو نشْـــوان راقـــصٌ   ولا طيرُ إلا وهـــو فرْحـــانُ يصْـــدحُ[2]

فقد وظف الشاعر الموازنة للتعبير عن مظاهر الطبيعة وعنصر الحركة فيها.

وقول سيف الدين المشد:

لأجْتلـــي صُـــبْحَ الوِصـــالِ مُنْجِـــدا   وأجْتنـــي عصْـــرَ الشَّـــباب مُتْهمـــا
فهْـــيَ التـــي تُشْـــفي ســـقامي والضَّـــنا   وهْـــيَ التـــي تُـــرْوي أُواري والظَّمـــا[3]

ومن الفنون البديعية اللفظية "التعديد"، وهو عبارة عن " إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد"[4]، ودعا ابن حجة الحموي إلى إيجاد علاقات فنية بين الأسماء المتتاليـــة، بقولـــه:" فـــإن روعي في ذلك ازدواج أو مطابقة، أو تجنيس أو مقابلة، فلذلك الغاية في حسن النسق"[5].

فقد استخدم شعراء الناصر التعديد لإظهار تكامل صفاته المادية والمعنوية، وتكمن القيمة الفنية لهذا الفن البديعي في إبراز التناغم الموسيقي للأبيات الشعرية، لاسيما إذا اتفقت الكلمـــات من حيث الوزن والحرف الأخير لها[6]، ومن ذلك قول البهاء زهير في معرض مدحه الناصر:

مـــن معشَـــرٍ فـــاقوا الملـــوكَ ســـيادةً   وســـــعادةً وتطـــــوُّلاً وتفَضُّـــــلا

---

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج3، ص175.
(2) البهاء زهير: **الديوان**، ص46.
(3) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص127.
(4) العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص429.
(5) ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب**، ج2، ص390.
(6) انظر عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص386.

فعلاهـــــــمُ متطـــــــوِّلاً وحبـــــــاهمُ   متفضِّـــــــلاً وأتـــــــاهمُ مـــــــتمهِّلا[1]

وقول سيف الدين المشد في مدحه:

فـــاقَ البـــدورَ جمـــالاً والغمـــامَ نـــدىً   والأسْدَ بأساً وإنْ كانـــت ذوي خطـــرِ[2]

وقوله أيضا:

جـــــوادٌ شـــــجاعٌ عـــــادلٌ متطـــــوِّلٌ   حلـــيمٌ علـــيمٌ كامـــلُ العقْـــلِ لـــوذَعي[3]

ويعدد كمال الدين بن العجمي أسباب العيش الهانئ الباعث على الاطمئنان، فـــي ســـياق حنينه إلى حلب وأهلها، فيقول:

إنَّمـــا العـــيْشُ فـــي وِصـــالِ حبيـــبٍ   مـــعَ أنْـــسٍ وصُـــحبةٍ وشـــبابِ
ثـــمَّ كبـــتِ العـــدا وجـــاهٍ ومـــالٍ   بـــينَ أهـــلٍ ومـــوطِنٍ وصِـــحابِ[4]

2- المحسنات المعنوية:

ومنها "الطباق"، ومن أسمائه المطابقة والتطبيق والتضاد، وقد كثر استعمال هـذا الفـن البديعي عند شعراء الناصر لدرجة استدعت الانتباه إلى الأسباب التي استحثت قرائحهم من أجل الإكثار منه؛ فبدا واضحا في قصائد الغزل والمدح والرثاء، " إذ أعطى الطباق مجالا للمقارنـة بين ضدين، والحديث عن حالتين متناقضتين"[5]، والملاحظ أن الشعراء استخدموه على سـليقتهم دون تكلف منهم، وهذا ما أراده النقاد، إذ رأى ابن رشيق أن على الشاعر الإتيان بالطباق سهلا لطيفاً من غير تكلف أو استكراه مما يجعله أخف روحاً، وأقل كلفة وأقرب سمعاً[6]، وهـذا مـن شأنه أن يثبت المعنى المراد في النفس بعد توقعه ومجيئه على خاطر المتلقي، فيسـهل وصـفه

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص179.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص102.
(3) المصدر السابق: ص122. اللَّوذعيُّ: الخفيف الذّكي الظريف الذِّهن، أو الحديد الفؤاد والـنفس، أو اللَّسِـن الفصـيح. **المعجم الوسيط**: مادة لذع.
(4) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص368.
(5) عبد الرحيم: **صورة المغول في الشعر العربي**، ص207.
(6) انظر ابن رشيق: **العمدة**، ج2، ص11.

والحديث عنه"[1]؛ " بمعنى أن المتلقي حين يسمع اللفظة الأولى يتوقع الكلمة المضادة لها، فكل لفظة من ألفاظ الطباق تستدعي الإتيان باللفظة المضادة لها"[2].

ويأتي الشاعر بالطباق في غرض الغزل ليعقد مقارنة بين حالتين متناقضتين؛ حالته وحال المحبوبة غير المبالية، فهو الحزين وهي الفرحة، وهو الباكي وهي الضاحكة، وهو الساهر وهي الراقدة، وهو الأسير العاني وهي السجان قاسي القلب، يقول أمين الدين السليماني:

رقَّ يا قاسي الفؤاد لأجفا نٍ قصارٍ أسرى ليالٍ طِوالْ[3]

والمحبوبة داء ودواء في آنٍ واحد، فقربها يطبب القلوب، وبعدها يضاعف من علاّتها وسقمها، يقول شرف الدين الأنصاري:

فإنْ شفَّني منها الشفاءُ فإنما هي الدّاءُ للقلْبِ المعذَّبِ والدَّوا[4]

ويسعف الطباق سيف الدين المشد في حديثه عن غرامه، فيقول:

أخْفي الهوى ويذيعُهُ يوم النَّوى حُرقٌ على الواشين ليست خافيهْ[5]

ويرقد المحبوب بينما الشاعر يعاني الأرقٌ والسهر، يقول محمد بن ثروان:

يا غادراً غادر المحبَّ لَقىً وراقداً عن أسيره الساهرْ[6]

ويوظف كمال الدين بن العجمي الطباق للتعبير عن حنينه لحلب وحبها لأهلها، فيقول:

صفَوْتُ لكُمْ حبّاً على القرْبِ والنَّوى فسيّانَ منكم مشهدٌ ومغيبُ[7]

فالشاعر يعرب عن حبه العميق لأهله، إذ يتساوى البعد والقرب في حبه الثابت.

---

(1) انظر بدوي: **أسس النقد الأدبي**، ص477.
(2) عبد الرحيم: **صورة المغول في الشعر العربي**، ص381.
(3) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102.
(4) الأنصاري: **الديوان**، 519.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص104.
(6) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص120.
(7) الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص367.

أما المدحُ، فتُظهر الثنائيات الضّدية فيه الفرقَ بين الناصر وغيره من الملوك، أو الأعداء، فهو الكريم وهم البخلاء، وهو القوي وهم الضعفاء، وهو المصلح وهم المفسدون، وهو الضياء لغيره، وهم المتخبطون بظلامهم، ومن ذلك قول محيي الدين بن زبلاق:

وقد استحالَ ظلامُهُ وفسادهُ بضياء ناصرِ دينهِ وصلاحهِ[(1)]

وفي رثاء الناصر ودار ملكه حلب، وظف الشعراء الطباق في سياق لومِ عساكر الناصر التي رهبت الأعداء ولم تثبتْ في المعركة، بل أسلمت الناصر يواجههم وحيداً، يقول أمين الدين السليماني من قصيدة:

ترى لهم عند اللِّقاء تسرُّعاً إلى الطعْنِ صعْباً عاينوا الأمرَ أوْ سهْلا

وقوله في أخرى:

ماذا تقول جحافلٌ ملمومةٌ ملأتْ سهولَ بلادِها وجبالها
رهِبتْ وما شهدتْ وغى فاستسلمتْ من قبْلِ أن تضع الحروبَ سِجالَها[(2)]

ويكثر الطباق في مرثية كمال الدين بن العديم لحلب، ويبرز واضحا في مطلعها، إذ خاطب الشاعر العقل البشري، فوظف الطباق ليبين أن الدهر لا يبقي شيئاً على حاله، يقول:

هو الدَّهرُ ما تبنيهِ كفّاك يهْدِمُ وإنْ رُمْتَ إنْصافاً لديهِ فتُظْلَمُ
ويرفعُ ذا نقْصٍ ويخْفضُ زائداً ويرزُقُ من غيرِ اكتسابٍ ويحرِمُ[(3)]

واستدعت حال حلب، بعدم دهمها التتار، بما فيها من الدّمار والخراب والجحيم، استحضار ماضيها الجميل والنعيم المقيم فيها أيام الناصر، يقول ابن العديم:

وكنْتِ لمن وافاكِ بالأمْسِ جنَّةٌ فما بالُ هذا اليومِ أنْتِ جهنّمُ[(4)]

فكلمة جنة ونار توحيان بحجم الانقلاب الذي حدث في هذه المدينة.

(1) ابن الشعار: **قلائد الجمان**، ج10، ص316.
(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص145، 147.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص345.
(4) المصدر السابق: ص345.

ومن الفنون المعنوية "التورية"، التي لم يعتنِ القدماء من النقاد والشعراء بالتورية اعتناء المتأخرين، أو يتقصّدوا ورودها في قصائدهم إلا إذا جاءت عفو الخاطر في أشعارهم[1]، ولكن ولكن المتأخرين من الشعراء- في العصرين الأيوبي والمملوكي – اعتنوا بها، وضمنوها أشعارهم، وكثرت حتى غدت هدفا يسعى له كل شاعر، فنشأت في مصر والشام مذاهب فنية عن التورية، برز من بينها مذهب القاضي الفاضل في مصر، ومذهب شرف الدين الأنصاري في الشام[2]، وكذلك سيف الدين المشد، الذي أكثر من التوريات في أشعاره، وأجاد فيها، إذ أشاد بجودة شعره وبما حواه من الفنون البديعية، كان أبرزها التورية، فقال:

وهو معَ ما حواهُ من كلِّ فنٍّ ... توريــاتٌ مستغْرقاتُ المعاني [3]

وتحدث النقاد عن القيمة الفنية للتورية، وجعلوها من أعلى المحاسن البديعية، يقول ابن حجة الحموي: " التورية عند علماء هذا الفن بمنزلة الإنسان من العين، وسُمُوُّها في البلاغة سموٌّ الذهب على العين"[4]، وتكمن وظيفة التورية في النص بمشاركة المتلقي في إنتاج العمل الفني، فلا يكون تلقيه العمل الأدبي هيناً سهلاً.

وقد اعتنى شعراء الناصر بالتورية وأكثروا منها، وكان الأنصاري والمشد رائدي التورية في البلاط، إذ برزت بكثرة في ديوانيهما، وهذا يشف عن مدى ثقافتهما اللغوية والدينية، فقد وظف سيف الدين المشد التورية بأسماء سور القرآن الكريم في مدحه الناصر، فقال:

فاطرٌ قلبَ الكَمِيِّ[5]وكم ... هزمَ الأحزابَ ثمَّ سبا[6]

وجاءت التورية في الألفاظ " فاطر والأحزاب وسبأ " الدالة على قوة الناصر وقدرته على هزم الأعداء وسبيهم، بمعناها القريب، الدالة على أسماء سور القرآن الكريم بمعناها البعيد.

---

(1) انظر ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب**، ج3، ص192-193.
(2) انظر باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص608. بدوي: **الحياة الأدبية**، ص112.
(3) بيبرس المنصوري: **زبدة الفكرة**، ص44.
(4) ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب**، ج3، ص192.
(5) الكميّ: الشجاع المقدام الجريء، كان عليه سلاح أو لم يكن. **المعجم الوسيط**: مادة كمي.
(6) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص131.

وقوله أيضاً:

لـــك اللهُ بالأنفـــالِ يوســـفُ ناصـــراً   ودُمْتَ صلاحَ الدين للمُلْــكِ والعصْــرِ[1]

فقد ورّى الشاعر بالغنائم، واسم الناصر، وملكه وعصره الذي يحيى به عن معنى أسماء سور القرآن الكريم " الأنفال، ويوسف، والملك، والعصر".

وقول عبد الرحمن بن العديم موريا بأسماء السور القرآنية في مدح الناصر ودولته التي يهنأ الناس فيها لاسيما الشعراء الذين كانوا يلقَّبون بأسماء الطيور:

مـــذْ غـــدا الكهـــفُ لـــه مـــن يوســـف   صـــار بالنصـــر عزيـــزاً فـــي الـــورىِ
قـــــال بـــــالإخلاص منـــــه جنَّـــــةً   وســـــقاها مـــــن يديـــــهِ الكـــــوثرا
بـــــــــارِكَ اللهَ فيهـــــــا دوحـــــــةً   لا يـــــرى للطيـــــرِ فيهـــــا زُمـــــرا
فُصِّـــــلتْ للنـــــور فيهـــــا قِصـــــصٌ   مـــــا ســـــمعنا مثْلهـــــا للشـــــعرا[2]

فقد ورّى الشاعر بمعنى كهف القوم وسيدهم، واسم الناصر يوسف، والانتصار المــؤزر على الأعداء، وإخلاص عمله، وجنان أرضه التي يسقيها بيديه، إذ تجتمع الطيور فيها بأســراب متتابعة، كثر الحديث عن جمالها وإشراقها، عن معنى أسماء سور القــرآن الكــريم " الكهــف، ويوسف، والنصر، والإخلاص، والكوثر، والزمر، وفصلت، والنور، والقصص، والشعراء".

ويلاحظ في المقطوعة السابقة التكلف والتصنع، إذ أكثر الشاعر مــن أســماء الســور القرآنية، وما ترمي إليه من المعاني، وهذا ليس غريباً على ثقافة الشعراء في هذا العصر.

وفي ذات السياق يورّي نور الدين الإسعري بأسماء السور القرآنية، وبلقبه، في ســياق مدحه الناصر، فيقول:

يـــا مالـــكَ الـــدُّنيا تبـــارك فـــاطر الـــــ   أخـــــلاق منـــــكَ أُعيـــــذُها بـــــالطورِ
فصَّـــلتَ بالأنفـــالِ لـــي قصـــصَ النَّـــدى   مـــن أيـــنَ للشـــعراءِ مثـــلُ النّـــورِ[3]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص335.

(2) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج3، ص315.

(3) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص135، نقلا مخطوطة الديوان، ورقة42.

واعتمد الشعراء على ثقافتهم النحوية في التورية، فقد استخدم سيف الدين المشد فيها بعض المصطلحات النحوية في سياق مدحه الناصر، يقول:

يَنْحو سبيلَ الفضْلِ في أوْصافِهِ ... فما يزالُ محْسناً ومُنْعِما

لا ليتَ في عزْمَتِهِ ولا عسى ... ولا لعلَّ في النَّدى ورُبَّما

لكنَّ أمرَ سيفِهِ الماضي الشَّبا[(1)] ... مستقْبِلُ الحالِ سطا بالقِمَما[(2)]

فقد ورّى الشاعر بمعنى اتجاهه نحو الفضائل في صفاته ومكارمه، وعزيمته وإصراره، الذي لا يقبل التردد، في مضيِّه نحو المعارك، وسطوته على أعدائه، وكرمه الذي لا يقبل القلة، عن معنى أسماء مصطلحات " النحو، وليت، وعسى، ولعل، وربما، والفعل: الأمر، والماضي، والمضارع " النحوية.

ومنها "الاكتفاء"، وهو من المحسنات البديعية التي استعملها شعراء الناصر، وعرفه ابن حجة الحموي بقوله:" أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذلك المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن مما يقتضي تمام المعنى، وهو نوع ظريف ينقسم إلى قسمين: قسم يكون بجميع الكلمة، وقسم يكون ببعضها، والاكتفاء بالبعض أصعب سلكاً، لكنه أحلى موقعاً"[(3)].

والاكتفاء مما استخدم في شعر المتقدمين الذين أدخلوه في باب المجاز[(4)] " وتكمن قيمة الاكتفاء في أن المتلقي يشارك الشاعر في عمله الفني، فلا يكون مستقبلا لهذا العمل فحسب"[(5)]، فحسب"[(5)]، وقد دفع اهتمام المتأخرين بالاكتفاء الأديب العالم شمس الدين النواجي إلى إفراد كتابٍ كتابٍ له أسماه " الشفاء في بديع الاكتفاء "[(6)]، ومن جميل الاكتفاء المنسجم مع التورية ما أنشده

(1) شباة السيف: حد طرفه. **المعجم الوسيط:** مادة شبي.

(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص129.

(3) ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب**، ج2، ص314. انظر عكاوي: **المعجم المفصل**، ص203.

(4) انظر عكاوي: **المعجم المفصل** ص203. ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص251.

(5) عبد الرحيم: **فن الرثاء**، ص383.

(6) النواجي: **شمس الدين محمد بن حسن: الشفاء في بديع الاكتفاء**، تحقيق حسن محمد عبد الهادي، ط1، عمان، دار دار الينابيع، 2004م.

أنشده نور الدين الإسعردي حين صفعه ابن الشيرجي في حضرة الملك الناصر فأمسك بذقنه، وقال:

قد صُفعنا في ذا المحل الشريفِ   وَهْوَ إن كنتَ ترتضي تشريفي
فأرْثِ للعبْدِ من مضيفٍ صِفاعٍ   يا ربيعَ النَّدى وإلا خَرِي في[1]

ويقصد " وإلا خري في لحيته ".

وقول شرف الدين الأنصاري:

ودُمْتَ لكَنْفِ عافيةٍ ومُلْكٍ   تُعمِّرُ ألفَ عامٍ فيهِ أو مَا[2]

ويقصد " مائة ألف عام".

وقول البهاء زهير:

ولقد حلا عيْشي لديكَ ولم أردْ   عيشاً سواهُ وإن أردتُ فلا حلا
وشكرتُ جودَك كلَّ شكرٍ عالما   أن لا أقومَ ببعضِ ذاكَ ولا ولا[3]

يقصد "ولا أقوم ببعض بعضه أو أقل من ذلك ".

ومن المحسنات المعنوية "حسن التعليل"، عرفه ابن أبي الإصبع بقوله:" هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم قبل ذكره علةَ وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول"[4]، ومعناه عند العلوي:" أن تقصد إلى حكم فتراه مستبعدا لكونه غريباً، أو لطيفاً، أو عجيباً، أو غير ذلك، فتأتي على جهة التطريف بصيغة مناسبة للتعليل، فتدَّعي كونها علة للحكم

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص272. **عيون التواريخ**، ج20، ص189. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج1، ص189. ص189. ابن حجة الحموي: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ج2، ص320، وفيها نسب ابن حجة البيتين للتلعفري.

(2) الأنصاري: **الديوان**، ص 432.

(3) البهاء زهير: **الديوان**، ص179.

(4) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص309.

من أجل إرادة تحقيقه وتقريره، فإن إثباته بذكر علته يكون أروح في العقل من إثباته بمجرد الدعوى من غير علة"[1].

وتكمن أهمية هذا الفن البديعي فيما يحدثه " من التعليل الطريف الذي لا يتوقعه المخاطب، وعادة ما يبتعد فيه المتكلم عن العلل الحقيقية للأشياء، ويأتي بعلل جديدة من باب الطرافة، وحسن الاختراع"[2]. وحري بالشاعر في هذا الفن البديعي أن يتخير اللفظ الرشيق، والأسلوب الرقيق، والمعنى الدقيق، في علته[3]، ومن ذلك ما قاله الملك الناصر في ولد لابن اللهيب، يحمل تحفا غريبة، وقد نُعت بالشرارة لحركاتة المتتالية:

ابنُ اللَّهيبِ أتانا	بكلِّ معنى غريبِ
وليسَ ذا بعجيبٍ	شرارةٌ من لهيبِ[4]

ويوظف كمال الدين بن الأعمى لقب ابن اللهيب ليحسن التعليل في دخوله النار على ما كان يصدر منه، فيقول:

اليومَ زارَ ابنُ اللهيبِ أباهُ	فرأى الذي قد قدَّمتْهُ يداهُ
لمْ ينتفعْ بالظُّلْمِ لكنْ ضرَّهُ	إذْ كانَ حسبُ الظالمينَ اللهُ[5]

ويستدعي نور الدين الإسعري تعليلاً طريفاً لرجوع الناصر من قتال مماليك مصر، كما في قوله:

أعرضْتَ عن حربِ قومٍ لا خلاقَ لهم	والكلبُ يعْرِضُ عنه الضَّيْغمُ الهصِرُ
فعدْتَ إذْ لم تجدْ كفؤاً تحاربُه	يا من لديهِ ملوكُ الأرضِ تُحْتقرُ[6]

(1) العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص459. انظر العلوي: **الطراز**، ج3، ص44. الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج4، ص44.

(2) باطاهر: **البلاغة العربية**، ص353.

(3) انظر الهيب: **الحركة الشعرية**، ص192.

(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص252. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص140.

(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص252. الكتبي: **عيون التواريخ**، ج20، ص178.

(6) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص33، نقلا مخطوطة الديوان، ورقة4.

ويحسن عون الدين بن العجمي التعليل، في بيان أصل الخال على خد المحبوبة، يتجلى ذلك في قوله:

لهيبُ الخدِّ حين بدا لعيْني ... هوى قلْبي عليهِ كالفراشِ
فأحْرقَهُ فصارَ عليهِ خالاً ... وها أثرُ الدُّخانِ على الحواشي[1]

ومنها "التقسيم"، وتعريفه عند العسكري" أن تقسم الكلام قسمةً مستوية تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنسٌ من أجناسه"[2]، بحيث يكون للكلام أقسامه التي يشتمل عليها[3]، وبمعنى آخر" فهو ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكلٍّ إليه على التعيين"[4].

وتكمن فائدة هذا الفن البديعي في " توفير إيقاعات ناتجة عن الوقفات التي تلاحظ عند قراءة النص، وعن استواء مقادير الجمل المقسمة، واتفاقها أحيانا في الوزن، وتكرار قوافيها"[5]، وفي تعيين مفردات الكلام، واستنهاض تفكير المخاطب، إذ " يعتمد على ذكاء المخاطبِ وفطنته"[6]. وقد وقد جاء به شعراء الناصر في الرثاء والغزل، أما الرثاء، فأفاد التقسيم فيه توضيح ما ذهب إليه الشعراء في حديثهم عن عِظم المأساة التي لحقت بالناصر ووطنه حلب، وشارك الناصر في ذلك، فقال:

ولي أسْوة معَ آلِ بيتِ محمدٍ ... فبعضُهُمْ أسرى وبعضُهمْ قتْلى[7]

وقول كمال الدين بن العديم، موضحا حال أهل حلب – بعد استباحتها– وقد هجروا منها قسراً:

تراهمْ سُكارى لم يفيقوا مخافةً ... فلا هنَّ أيقاظٌ ولا هنَّ نُوَّمُ
حيارى بآفاقِ البلادِ رواغماً ... فذا مبْحِرٌ قصْداً وها ذاكَ مُتْهِمُ[8]

وقول البهاء زهير متغزلا ومظهرا جمال المحبوبة بتقسيم بديع:

---

(1) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان،** ج3، ص89. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان،** ج1، ص241. الكتبي: **فوات الوفيات،** ج1، ص452. الصفدي: **الوافي بالوفيات،** ج15، ص399.

(2) العسكري: **الصناعتين،** ص341.

(3) انظر العلوي: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ص446.

(4) الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج4، ص32.

(5) عبد الرحيم: **فن الرثاء،** ص386.

(6) انظر باطاهر: **البلاغة العربية،** ص361.

(7) الدواداري: **كنز الدرر**، ج8، ص59.

(8) ابن واصل: **مفرج الكروب،** ص345.

وأســـــمرُ أمّـــــا قـــــدُّهُ فهـــوَ أهيَـــــفُ رشــيقٌ وأمّــا وجْهــهُ فهــوَ أصــبحُ[1]

ومنها "المقابلة"، التي هي من أهم الفنون البديعية، ومعناها " أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب"[2]، ويختص هذا المحسن بطباق التراكيب المتضادة المتضادة في العمل الأدبي.

والمقابلة من المحسنات البديعية الجميلة، التي كثر ورودها في القرآن الكريم، والحــديث النبوي الشريف، وأشعار العرب، إذ اشترط النقاد فيها تبعية المعاني، وعدم التكلــف والتصــنع، حتى لا تفقد قيمتها الفنية[3].

ولقد وظف شعراء الناصر المقابلة في أغراضهم المتعددة، لاسيما المــدح والغــزل، إذ استخدموه في حديثهم عن صفاته ومآثره، كما يبدو في قول شرف الدين الأنصاري:

دانٍ مــــــن المعــــــروفِ منْصِــــــبُهُ نــــاءٍ عــــن النكــــرانِ والفحــــشِ[4]

فقد قابل الشاعر بين (دان وناء)، وبين (المعروف والنكراء)، فالمكارم والمفاخر قريبــة منه، ومعروفه موصول إلى الناس، لا ينكرها أحد، فلم يعهد الناس غير ذلك عنه.

واستخدم البهاء زهير المقابلة في غزله ومعرض حديثه عن طيف المحبوبة، فقال:

ولكـــن أتـــى لـــيلاً وعـــاد بســـحْرةٍ درى أن ضوءَ الصُّبْحِ إنْ لاحَ يفضــحُ[5]

فقابل الشاعر بين الفعلين (أتى وعاد)، وبين الاسمين (الليل والصــبح)، وكــأن طيــف المحبوبة يبيت ليلاً مع الشاعر، فتكثر همومه وينشغل فكره، بسبب طول ليل العاشــق، ويبقــى الشاعر على هذه الحال حتى ينبلج الصبح.

---

(1) البهاء زهير: **الديوان**، ص42.

(2) الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج4، ص11. انظر العسكري: **الصناعتين**، ص337. العلــوي: **الإيجــاز لأســرار كتــاب الطراز**، ص414.

(3) انظر باطاهر: **البلاغة العربية**، ص346.

(4) الأنصاري: **الديوان**، ص274.

(5) البهاء زهير، **الديوان**، ص42.

ويعقد البهاء زهير المقابلة في معرض استعطافه الناصر في حديثه عن أهله، وأولاده، في قوله:

سـروري أن يبـدو علـيهمْ تـنعُّمٌ   وحزنـي أن يبـدو علـيهمْ تقشُّـفُ[1]

فقابل بين (سروري وحزني)، وبين (تنعم وتقشف)، فسرور الشاعر يكمن في إيجاد عيش هانئ لأطفاله، ويزداد حزنه وهمه إذا لحقهم الفقر والجوع والحرمان.

خامساً: الصورة الشعرية

الصورة وليدة الخيال لدى الشاعر، فهي " الأداة الأسلوبية التي تنفث السحر في الصورة الجمالية التي يبدعها الشعراء، وتتجلى فيما يبرزونه فيها من ضروب القول، وأفانين الكـلام"[2]، وهي "جوهر العمل الشعري وأداته القادرة على الخلق والعطاء بما توصله إلى نفوس الآخـرين من خبرة جديدة وفهم عميق للأمور"[3]. فبدونها يبقى العمل الأدبي جامـدا، " يفتقـد الحيويـة والتأثير"[4].

وقد تنبه النقاد القدماء إلى القيمة الفنية للصورة الشعرية متمثلة بـأنواع علـم البيـان: التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، ورأوا أن أفضليتها تكمن فيما تحدثه من أثر في الأسـماع والقلوب[5]، وإظهار ما خفي عن الناس مبالغة في المعنى[6]. فقيمة الصورة الفنية "تنبـع مـن طريقتها الخاصة في تقديم المعنى، وتأثيرها في المتلقي"[7]. فهي " قائمة على الخيـال الواسـع الخصب، والإحساس المرهف الذي نجده عند المبدعين من أهل صناعة الكلام، ويأتي التأثير في النفوس أساساً بتلك الصورة الأدبية الجميلة، وقدرة البليغ علـى رسـم هـذه الصـورة الحيـة

---

(1) المصدر السابق: ص132.

(2) باشا: **الأدب في بلاد الشام**، ص592.

(3) عوده، خليل محمد حسين: **الصورة الفنية في شعر ذي الرمة**، (رسالة دكتوراه غير منشـورة)، جامعـة القـاهرة، القاهرة، 1987، ص6.

(4) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص181.

(5) انظر العسكري: **الصناعتين**، ص269. ابن رشيق: **العمدة**، ج1، ص266.

(6) انظر ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، ص99. الصعيدي: **بغية الإيضاح**، ج3، ص9.

(7) عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عنـد العـرب**، ط2، بيـروت، دار التنـوير، 1983م، ص328.

المتحركة، وعرض المعنويات في صورة المحسوسات، حتى تجد طريقها إلى النفوس والقلوب على حد سواء"[1].

لقد برز التصوير الفني بجلاءٍ عند شعراء الملك الناصر، وكثرت المصادر التي استقوا منها تشكيلاتِ صورهم، إذ اعتمدوا على الموروث القديم، وثقافتهم الدينية واللغوية[2]، ومظاهر ومظاهر الطبيعة الخلابة الصامتة والمتحركة، وواقع المجتمع وبيئته وحضارته، ومظاهر الحرب ومشاهدها.

وكانت أكثر صورهم تقليديةً، مستمدةً من الموروث القديم، تتصدرها مظاهر الطبيعة الخلابة، وكان عالم الحيوان من مظاهر الطبيعة المتحركة، التي استقى منها الشعراء، فصوروا الناصر أسداً في المعارك، يهابه الأعداء ويخشون نزاله، وذلك استيحاء لشجاعته، وقوته، يقول سليمان بن بليمان:

ليثٌ إذا ما صار في معزلٍ دان له ليثُ الشَّرى المشبلُ[3]

ويستدعي محمد بن ثروان قوة الأسد، وجمال الحصان وسرعته في مدحه الناصر، فيقول:

يا بحرُ يا ليثُ يا مقدَّمٌ في المُلكِ وإنْ كان عصركَ آخرْ
ويا جواداً أضحى بحليتِهِ كلُّ جوادٍ مقصِّراً عاثرْ[4]

ويصور كمال الدين بن العديم عساكر حلب، التي تصدت للمغول، أسوداً في المعارك، مبرزا عنصري اللون والحركة، كما يبدو في قوله:

وثارت بهم أسدُ الشَّرى وتلاحمتْ هياجاً ونارُ الحربِ فيهم تضْرمُ[5]

---

(1) باطاهر: **البلاغة العربية**، ص213.
(2) انظر أسلوب التناص من هذا الفصل.
(3) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325.
(4) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج7، ص121.
(5) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص344.

وآمال الناس كالخيل في الميدان تتسابق إلى نيل عطاء الناصر، وكرمه، كما يبدو في قول سيف الدين المشد:

إذا جيادُ الأماني نحوه اسْتبقتْ كانتْ أياديهِ منها موضعَ الغُررِ [1]

واستعان الشعراء بأسماء ضعاف الحيوانات، وأحقرها، وألصقوها بأعدائه تقليلاً من شأنهم في نظر الناصر، يقول علاء الدين الهزار:

إن حِصْنَ الغرابِ قد ضاقَ حتى لمْ يكُنْ فيهِ ما يقوتُ الهزارا
قد وجدْ المغيثَ فيه أواما ورأيت النجيبَ فيه حمارا [2]

ويصور النور الإسعردي أعداءه كلابا، يترفع الأسد عن نزالها، كما في قوله:

أعرضْتَ عن حربِ قومٍ لا خلاقَ لهم والكلبُ يعْرضُ عنه الضَّيْغمُ الهصِرُ [3]

وفي غرض الغزل، صور الشعراء المرآة بالغزال بجامع الجمال والخفة، فقال سيف الدين المشد:

وأغيدَ مثلِ الظبْيِ والشمسِ والقمَرْ وكالرُّمحِ والغُصْنِ المُرَنَّحِ إذْ خطَرْ

وصوروا صدغ المحبوبة بالعقرب، وشعرها بالأفعى، بجامع الضرر والتأثير فيمن يصاب بسمها، قال شرف الدين الأنصاري:

وعقربُ ذاكَ الصُّدغِ تَلْسِبُ من رنا وثُعبانُ ذاك الشعرِ لا يقْبلُ الرُّقى [4]

والبحر من مظاهر الطبيعة الصامتة، التي ارتكز عليها الشعراء في صورهم التقليدية، فقد صور سيف الدين المشد الناصر بالبحر بجامع الهيبة والكرم، فقال:

هيوبُ مرأى كريمُ مختبرٍ وصفانِ لا ينْكرانِ للبحرِ [5]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص102.
(2) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص259.
(3) الصايغ: **اتجاهات الشعر العربي**، ص33، نقلا مخطوطة الديوان، الورقة4.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص367.
(5) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص336.

والملك الناصر بحر حوى كل عجيب، يقول الأنصاري:

نظمــتُ الــدراري فيــك لا الــدّرَّ مِدحــةً لأنــك بحــرٌ زاخــرٌ بالأعاجيــبِ [1]

وصوره سيف الدين المشد بالغيث المنهمر، بجامع الكرم والجود، مجددا فــي صــورته الحركية، فقال:

ملــكٌ هــو الغيْــثُ فــي العطايــا لكــنْ نــدى راحَتَيْــهِ أعْــذبْ
لــو لمــسَ الصَّــخْرَ وهــو صــلْدٌ أيْنــعَ فــي كفِّــه وأعْشَــبْ [2]

وصور سيف الدين المشد عطاياه بالكواكب بجامع الكثرة وانعدام حصرها، فقال:

ومكــارمٌ كثُــرتْ فــلا تُحصــى وهــلْ تحصــى الكواكــبْ [3]

ومن الصور التقليدية التي استعان بها الشعراء تصوير الجيش بالغمام، وأمــواج البحــر الهادرة، كما يبدو في قول كمال الدين بن العديم في رثاء حلب:

غــداة أتاهــا للمنيَّــة بغتــةً من المُغــلِ جــيشٌ كالســحابِ عرمْــرمُ
أتوهــا كــأمواجِ البحــارِ زواخِــراً ببــيضٍ وسُــمْرٍ والقتــامُ مخــيَّمُ [4]

لقد استطاع الشاعر في صورته محاكاةَ الواقع الذي عايشه أهل حلب عندما دخل التتــار مدينة حلب، إذ استوحى الشاعر حجم الدمار والهلاك الذي خلفوه من صورة المطــر الشــديد، والأمواج العاتية، مبرزا عنصري الحركة واللون، يتجلى عنصر الحركة في تكرار الفعل "أتى"، إذ صور الحالة النفسية لمن يترقب وينتظر الخطر القادم. وبرز عنصر اللون في رسم صــورة قاتمة سوداء تجلت بلون الدماء الذي خلفته السيوف والرماح، فضلاً عن ســواد الغبــار الــذي أحدثته سنابك الخيل. فواءم بين الألفاظ وما توحي إليه، في صورة واقعيــة تلهــب المشــاعر، لاسيما وأنها نابعة من عاطفة صادقة.

(1) الأنصاري: **الديوان**، ص77.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص108.
(3) المصدر السابق، ص136.
(4) ابن واصل: **مفرج الكروب**، ص344. العيني: **عقد الجمان**، ج1، ص341.

واستمد الشعراء صورهم الفنية في حديثهم عن المحبوبة من مظاهر الكـون الجميلـة، فاستعاروا صورة القمر، وطلعة البدر في بناء صورهم، يقول سليمان بن بليمان:

يـا قمـراً قلبـي لـهُ منـزلٌ قـد رقَّ لـي فـي حبّـكَ العـذلُ
يـا طلعـةَ البـدْرِ المنيـرِ الـذي فـي كـلِّ يـومٍ حسـنُه يكمُـلُ[1]

ويتفيأ سيف الدين المشد ظلال الطبيعة في وصفه المحبوبة، مستخدما العناصر التقليديـة في رسم الصورة، مبرزا عنصري اللون والحركة، فيقول:

بـدرٌ سـوادُ الليْـلِ فـي شـعره ومـن مُحيّـاه ضـياءُ الصَّـباحْ
ينتسـبُ الآسُ إلـى صُـدغِهِ وثَغـرُهُ يُعـزى إليـه الأقـاحْ
كأنَّمـا الخـالُ علـى خـدِّهِ الـورْدُ إذْ فُـتِّحَ والمِسْـكُ فـاحْ[2]

ونهج الشعراء نهج الأقدمين في رسم صورة الخمرة، فصوروها بالشموس المنيرة فـي الكؤوس، كما يبدو في قول بدر الدين بن الفويرة:

فقـامَ كبـدرِ الـتمِّ فـي غسـقِ الـدُّجى يديرُ شموسَ الرّاحِ في الأنجُمِ الزُّهْـرِ[3]

واستلهم سيف الدين المشد صورة الغصن الغض في رثاء ابن الناصر، بجامع الصـغر، والنعومة، واستوحى صورة الهلال بجامع الجمال والنضارة، مستخدما التشخيص، فقال:

أيَّ غصْـنٍ قصـفتْ أيـدي الـرَّدى وهـلالاً خسـفتْ قبْـلَ اسـتَتَمْ[4]

واستحدث الشعراء صوراً فنية بارعة، باستحضارهم مظاهر الطبيعة في عرض مشاهد الحرب، وإبراز قوة الناصر وكرمه، فقد وظفها بدر الدين بن الفويرة فـي رسـم لوحـة فنيـة متضامة، كما يبدو في قوله:

هو البحـر يسـطو فـي غـدير مُفاضـةٍ بجدوله الماضي على الجحفـلِ المجْـرِ

---

(1) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص324.
(2) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص111.
(3) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.
(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص340.

ويغـــرسُ فـــي لَبَنـــاتهمْ سوســـنَ القنـــا — فينبُتُ ورد الطَّعنِ مـــن ســـاحةِ الصَّـــدرِ
ولـــو لـــم تكـــنْ يُمنـــاهُ غيثـــاً لمـــا بـــدا — بهـــا لامعـــاً بـــرقُ المُهنَّـــدة البُتْـــرِ
ولا أورقتْ بالنَّضْرِ فـــي موقـــف الـــوغى — وقـــد جـــالَ أغصـــانُ المثقَّفـــةِ السُّـــمْرْ
ويـــا عجبـــاً مـــن كفِّـــه كيـــف أضـــرمتْ — شرارَ حروبٍ وهيَ أندى مـــن البحـــرِ (1)

لقد جمع الشاعر في صورته الفنية بين قوة الناصر، وجميل عطائه من ناحيـــة، وبـــين مشاهد الحرب ومظاهر الطبيعة من ناحية أخرى، فصور السيف بـــالنهر الجـــاري، والطعـــنَ بالرماح بالزراعة، وصور يدي الناصر بالسحاب المثقل، يتخللها بارق السيوف، فجاءت صورته متحركة، محكمة الربط بين قدرة التعبير، وجمال الصورة.

واستلهم بدر الدين بن الفويرة مشاهد الطبيعة المتحركة والصامتة، ومازج بـــين عـــالم الحيوان ومظاهر الطبيعة في الأرض من جهة، وبين عالم الكون ومشاهد الفضاء، مظهراً فـــي لوحته الفنية عنصري الحركة واللون، فقال:

وأركضُ طِرْفَ اللهو فـــي حلَبـــة الهـــوى — فـــأعثرُ فـــي ذيـــلِ المســـرَّةِ بالسُّـــكرِ
ولله ليـــــل زارنـــــي فـــــي ظلامـــــهِ — غزالٌ رشـــيقُ القـــدِّ كالغصْـــنِ النَّضْـــرِ
شربْتُ مياهَ الحسْـــنِ مـــن روضِ وجهـــهِ — براحةِ طرفي والـــدُّجى مُسْـــبلُ السَّـــتْرِ
وبتنـــا وثـــوبُ الوصْـــلِ ينشُـــرُ بيننـــا — إلى أنْ طوتْ يدَ الظَّـــلامِ يـــدُ الفجْـــرِ (2)

فقد أحسن الشاعر في رسم لوحته الفنية، باستحضار مكوناتها، فأتى على عنصر الحركة متمثلا بكثرة الأفعال الدالة عليه، نحو " أعثر، زار، شربت، بتنا، شـــربت، طـــوت "، وكثـــرت الألفاظ الموحية بعنصر اللون، نحو " الظلام، النضر، الفجر"، وعمـــد إلـــى تشـــخيص الظـــلام والفجر، مصوراً الحالة النفسية السعيدة التي ينعم بها مع المحبوبة.

واستعان الشعراء بأدوات الحرب في رسم صورهم الغزلية، وهي من الصور التقليديـــة عند الشعراء، إذ صوروا خصر المحبوبة بالرمح، الذي يطعن أفئدة الناس، وعيناها سيف مسلطٌ

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص368.

على المحبوب الذي أثخن بالجراح في معركة الحب، هذه الجفون التي تجرح وتــداوي فــي آن واحد، ويبدو ذلك في قول صفي الدين بن قنابر:

وعلـــى قنـــاةِ قوامـــهِ مـــن لحظـــهِ   للطَّعْـــنِ فـــي مهـــجِ البريَّـــةِ لهـــذمُ
وأنـــا الجـــريحُ بمَشْـــرفيِّ جُفونـــهِ   ولـــيَ الرعايـــةَ وهـــو فـــيَّ محكّـــمُ[1]

ويقول أمين الدين السليماني:

أنـــا أخفـــي هـــواكَ صـــونا وإن بتْـــ   ـتُ طعـــينَ القنـــا جـــريحَ النِّبـــالِ[2]

ويقول كمال الدين بن الأعمى:

ذو قـــوامٍ يغنيـــهِ عـــن حملـــه الرُّمـــ   ـــحَ وجفْـــنِ وســـنانِ كالسِّـــنانِ[3]

ومن الصور التقليدية، تصوير المحبوبة بالدمية، بجامع الجمال والحسن، كما في قــول سيف الدين المشد:

وحبَّـــذا غـــزلانُ وادي المُنْحنـــى   مثْـــلُ البـــدورِ والغُصـــونِ والـــدُّمى[4]

وفي ذلك يقول سليمان بن بليمان:

فاســـتجْلِ بكـــراً نظمهـــا   رائـــقٌ بالفضْـــلِ لهـــا جـــرولُ
عـــذراء ينســـيك الـــدّمى حســـنُها   بنفســـها أعينهـــا تكحـــلُ[5]

وكثيرا ما اتكأ شعراء الناصر على ثقافتهم الدينية، فاستعانوا بما حفظــوا مــن القــرآن الكريم والحديث النبوي الشريف[6] في تغذية صورهم الشعرية، ومن قبيل ذلــك إبــراز الفكــر والثقافة الإسلامية عند سيف الدين المشد في معرض حديثه عن الغزل وما يعانيه العشاق، فقال:

بُشْرى لأهلِ الهـوى عاشـوا بــهِ سُــعدا   وإنْ يموتوا فهـم مــن جملــةِ الشُّــهَدا

---

(1) المصدر السابق، ج20، ص388.
(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص103.
(3) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، 141. العيني: **عقد الجمان**، ج3، ص193.
(4) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص127.
(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص326.
(6) انظر أسلوب التناص الديني من هذا الفصل.

شـــعارُهم رِقَّـــةُ الشَّـــكوى ومـــذْهبُهم أنَّ الضـــلالةَ فـــي تيـــهِ الغـــرامِ هُـــدى
عيـــونُهم فـــي ظـــلامِ الليْـــلِ ســـاهرةٌ عَبْرى وأنفاسُهم تحْـتَ الـدُّجى صُـعَدا
تجرَّعـوا كـأْسَ خمْـرِ الحُـبِّ مُترعـةً ظلّوا سُـكارى فظنّـوا غـيَّهم رَشَـدا[1]

وكانت ثقافة الشعراء اللغوية أحد روافد الصورة الشعرية عندهم، إذ استحضروا كل مـا يتعلق باللغة، وما من شأنه إسعافهم وإمدادهم في إبرازها وتجميلها، فقد وظـف أمـين الـدين السليماني أسماء كتب التراث في معرض غزله، فقال:

رقَّ يــا قاســي الفــؤادِ لأجفــا نٍ قصــارٍ أســرى ليــالٍ طــوالِ
شــارِحاتٍ بــدمْعِها مجمــعَ البحــر ـيْنِ فــي حــبٍّ مجمــعِ الأمثــالِ[2]

واستعان زكي الدين المخزومي[3] بتحصيله النحوي[4] في رسم صورة للناصر في ساحة ساحة المعركة، موظّفا عنصر الحركة في الأفعال (رفعت، ونصـبت، ورقصـت، ونقطهـا)، يتجلى ذلك في قوله:

رفعــت عواملُــهُ لمجــرورِ الظُّبــى قِممــاً بهــا نُصِــبتْ بحُكْــمِ الحــالِ
ورماحُــهُ رقَصــتْ فنقَّطهــا الظُّبــى يــومَ الــوغى بجمــاجِمِ الأبْطــال؛[5]

وظهر التشخيص عند بدر الدين بن الفويرة؛ إذ صور قصيدة مدحه الناصـر بعـروس زفت إليه، في لوحة فنية تفيض بعنصري الحركة واللون، فيقول:

ورقَّصْــتُ فــي ليــلِ المِــدادِ عقيلــةً تنــاغى بألفــاظٍ أرقُّ مــن الخمْــرِ
وقــدْ قلَّــدتُ مــن بحــرِ عليــاكَ جيــدها بــنظمِ لآلٍ هذَّبتْــهُ يــدُ الفكْــرِ
تغالى ملــوكُ الأرضِ فــي مهــرِ مثلهــا وها هي قد جاءتْ إليــكَ بــلا مهْــرِ[1]

---

(1) الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص354.

(2) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص102. الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج21، ص302.

(3) "محمد بن عبد الواحد بن عبد الجليل بن علي أبو بكر زكي الدين المخزومي اللِّبِّني الشافعي، كان فقيها عالما فاضـلا فاضلا خبيرا بالأحكام، وعنده مشاركة جيدة في الأدب وغيره، وله نظم حسن، يحفظ الكثير مـن الأشـعار والحكايـات والنوادر، ولي القضاء ببانياس وبصرى وبعلبك، وولي إعادة المدرسة الناصرية بدمشق. اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، ص73-74.

(4) انظر أسلوب التناص العلمي من هذا الفصل.

(5) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج2، 75.

واستخدم الشعراء عنصر اللون، بالتركيز على اللون الأبيض الذي يعكس صفات الناصر بصفاء قلبه، وكرم يديه، واللون الأحمر دلالة على الموت الذي يصيب أعداء الملك الناصر بسيفه الأبيض المشرق[2]، كما يبدو في قول شرف الدين الأنصاري:

فالعيشُ أزهر في بطون صحافه   والموت أحمر في متونِ صفاحه[3]

وبرز عنصر اللون في سيوف الناصر التي تحول ظلام المعركة وغبارها صبحاً منيراً، يقول سليمان بن بليمان:

تعيدُ ليلَ النَّقْعِ أسيافُه   صبْحاً إذا ما ازدحمَ الجحْفلُ[4]

وأضاءت مكارم أخلاقه الدهر بالنور الساطع، على خلاف الخلائق كلها، يقول الأنصاري:

والناسُ أبناءُ الزمانِ عَداهمُ   مُتَلَوِّنٌ فيهِ مَجالَ قِداحهِ
وخِلالُ هذا الخَلْقِ ليلٌ دامسٌ   وخلائقُ السلطانِ ضَوْءُ صَباحِه[5]

واستقى الشعراء صورهم من بيئتهم ومعالم حضارتهم، فاستعانوا بأدوات الزينة مثل القلائد والدر المرصع[6]، والديباج المذهب[7]، وعمد الأنصاري إلى تشخيص تيجان الملوك، فقال:

علوْتَ الملوكَ فتيجانُه   لتاجِكَ راكعةٌ ساجدهْ[8]

" وازدهر في هذه البيئة أيضاً فن الخط ازدهارا عظيماً "[1]، إذ وظفه كمال الدين بن العجمي في وصف جمال شعر الناصر، فقال:

---

(1) الكتبي: **فوات الوفيات**، ج2، ص369.
(2) انظر عودة، خليل: ***المستوى الدلالي للون في شعر عنترة***، **مجلة الدارة**، العدد2، السنة 22، 1417هـ/ص241.
(3) الأنصاري: **الديوان**، ص119.
(4) اليونيني: **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ص325.
(5) الأنصاري: **الديوان**، ص118.
(6) انظر الرفوع: **ديوان ابن قزل المشد**، ص123.
(7) انظر المصدر السابق: ص107.
(8) الأنصاري: **الديوان**، ص171.

بِخـــطٍّ كمـــا خُـــطَّ العـــذارُ مُنمْنمـــاً		له في ســنا الخـدِّ الأسـيلِ مسـيلُ[2]

واستحضر شرف الدين الأنصاري أدوات الكتابة في سياق مدحه الناصر، موظفا عنصر اللون في صورته، فقال:

فحـــينَ أذكُـــرهُ يصْـــفرُّ حاســـدُهُ		وحـــينَ أكتبُـــه تبْـــيَضُّ أنقاســـي[3]
فيســـتبينَ لمـــن يبغـــي قراءتـــهُ		ما زادَ من نورِهِ عن نــورِ قرطــاسِ[4]

فذكر الشاعر اللون الأصفر مدللاً على كره الناس له، إذ حمل معنى الحسد وشحوب الوجه، في مقابل ذلك ذكر اللون الأبيض دلالة على الصفاء والنقاء في شمائل الناصر، فانعكس هذا النـــور على أقلام الشعراء وأوراقهم.

وكانت الشمعة من أدوات البيئة التي شخصها كمال الدين الخزرجـــي، إذ جعلهـــا فتـــاة حزينة ذارفة الدموع الغزيرة، كما يبدو في قوله:

وباكيـــةٍ لـــم تعـــرفِ الحـــزنَ والأســـى		ولا شـــدةَ الأهـــوالِ كيـــفَ مراسُـــها
تكـــادُ بـــأنْ تقضـــي لفـــيْضِ دموعِهـــا		وتحْيا إذا في الحـينِ يُقطـعُ رأسُـها[5]

---

(1) الهيب: **الحركة الشعرية**، ص185.
(2) الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج29، ص142.
(3) مفردها النِّقس: وهو المداد يكتب به. **المعجم الوسيط**: مادة نقس.
(4) الأنصاري: **الديوان**، ص256.
(5) ابن الشعار الموصلي: **قلائد الجمان**، ج10، ص42.

الخاتمة

بعد دراسة الحركة الشعرية في بلاط الملك الناصر يوسف بن العزيز، كان لابد من الوقوف عند أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث، وهي على النحو الآتي:

- إن تقدم بلاد الشام في مجالات العلوم المختلفة عائد إلى اهتمام الملوك الأيوبيين في إنشاء الكثير من المدارس ودور الحديث، ورعايتهم المتواصلة لروادها.

- ساعدت ثقافة الناصر، وقرضه الشعر، وتشجيعه الحركة الشعرية، وإجزال العطاء عليه، وطبيعة شخصيته، على وفود الشعراء إلى بلاطه من كل حدب وصوب، وكان أكثرهم يجمع بين الشاعرية والمناصب الرفيعة في الدولة، مثل: كمال الدين بن العديم، وعون الدين بن العجمي، وكمال الدين بن العجمي، وسيف الدين المشد، وشرف الدين الأنصاري، وغيرهم الكثير.

- حفلت مجالس الناصر الشعرية بكثير من الشعراء والندماء، وشارك الناصر فيها مشاركة فاعلة، إذ دارت موضوعاتها حول النقد الفطري، مثل إعجابه بالشعر وتكراره له، وإطلاق عبارات التشجيع والثناء في معرض إعجابه بفصاحة الشعراء. والنقد التحليلي، مثل تعليله وتفسيره بعضَ الشعر، واقتراحه وتغييره في الشعر بما يتناسب وطبيعة الموقف، ونقد الشكل، نحو: مراعاة الوحدة الموضوعية للقصيدة، وبنائها، وأساليب الشعراء فيها، ونقد المضمون، نحو مراعاة المعنى لمقتضى الحال، وجودة المعاني وابتكارها.

- طرق الملك الناصر وشعراؤه الأغراض التقليدية في أشعارهم، فقالوا في: المدح، والغزل، والرثاء، والإخوانيات، وشعر المناسبات، والوصف، والخمريات، والشوق والحنين والغربة، والعتاب والاستعطاف والشكوى، والهجاء، والاعتذار، والشعر السياسي، ولم يلاحظ التجديد فيها، ولكنها كانت متفاوتة في أحجامها، فقد توسع الشعراء في أغراض: المديح، والغزل، والرثاء، وشعر المناسبات، وأفردوا لها قصائد طويلة، بينما كانت ظاهرة المقطعات الشعرية من نصيب بقية الأغراض الشعرية.

– إن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية ساهمت في توجيه الشعر وتنوع أغراضه في بلاط الناصر، فالحياة السياسية أدت إلى كثرة الاشعار في أغراض المناسبات، والشعر السياسي، والرثاء. بينما ساعدت الحياة الاجتماعية في تدفق شعر الغزل، والخمريات، والمدح بغرض التكسب، والحصول على المال والمكانة الرفيعة في الدولة.

– ظهر من البحث أن بعض الشعراء نظموا دواوين خاصة في أغراض محددة بعينها، ومنهم: نور الدين الإسعردي الذي ألف " الناصريات"، وكذلك سيف الدين المشد، جمع كل منهما الأشعار التي قالها في مدح الملك الناصر.

– ألقت ثقافة الشعراء الواسعة بظلالها على تشكيلاتهم الفنية في بناء قصائدهم، ولغتهم الشعرية، وأساليبهم المختلفة، وفنونهم البديعية، وصورهم الشعرية، فكانت قصائدهم متوافقة مع شروط النقاد فيما يتعلق ببناء القصيدة، فأحسنوا الابتداء بالمقدمات التقليدية، وأحسنوا التخلص إلى مدح الناصر، والإشادة بفضائله، وأحسنوا الانتهاء مذكرين بكرمه وعطائه. بينما بدأ بعضهم بالغرض الرئيس، ولاسيما في المقطعات، وهي كثيرة في هذا العصر.

– اهتم الشعراء بلغتهم الشعرية، فجمعوا بين اللفظ والمعنى في أغراضهم، مراعين مبدأ القوة والجزالة في الألفاظ بما يتناسب مع الموضوع، مثل المديح، ومبدأ السهولة والسلاسة في ألفاظ الغزل والرثاء مثلاً. واستعان الشعراء بالفنون البديعية بنوعيها اللفظي والمعنوي، في تجميل قصائدهم، وإخراجها إخراجاً جميلاً.

– عمد الشعراء إلى استقاء صورهم الفنية من كل ما حولهم، سواء من الموروث القديم، أم من مختلف العلوم الدينية واللغوية، أم من معالم الحضارة البيئية، وهذا ما بعث روح التشابه والتوحد في صورهم، وعلى الرغم من كون أكثرها تقليدية، إلا أن القارئ يلمس تجديداً وابتكاراً في سماتها الفنية، وهي قليلة.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

القرآن الكريم

ابن الأثير، علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر، 1386هـ/1966م.

ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**, تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد, ط1, بيروت، المكتبة العصرية, 1411هـ/1990م.

ابن أبي الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تحقيق حنفي محمد شرف, القاهرة, لجنة إحياء التراث الإسلامي, 1383هـ/1963م.

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م.

– الأنصاري، شرف الدين: **الديوان**، تحقيق عمر موسى باشا، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1967هـ.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي: **الصحيح**، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط1، ب.م، دار الفكر، 1411هـ/1991م.

البهاء زهير، بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي المصري: **الديوان**، القاهرة، إدارة الطباعة المنيرية، ب.ت.

بيبرس المنصوري، الأمير ركن الدين الدوادار:

* **التحفة الملوكية في الدولة التركية**، تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة مــن 648-711هــ، نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمــدان، ط1، القــاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1407هــ/1987م.

* **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالــد س، ريتشــاردز، بيــروت، دار الكتــاب العربي، 1419هــ/ 1998م.

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، بن علي: الســنن الكبــرى، ط1، بيــروت، دار المعرفــة، 1356هــ.

ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف:

* **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، ج1+2، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبــد الفتاح عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.

* **المنهل الصافي والمستوفى بعد الــوافي**، ج3+4، حققه ووضع حواشيه نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.

* **مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة**، تحقيق نبيل محمد عبد العزيــز أحمــد، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1997م

* **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، بغــداد، مكتبــة المثنى، 1941م.

الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري: **المستدرك على الصحيحين**، بيروت، دار الكتاب العربي.

ابن حجة الحموي, أبو بكر بن علي بن عبد الله, **خزانة الأدب وغاية الأرب**, تحقيق كوكب دياب, ط1, بيروت, دار صادر, 1421هــ/2001م.

الحمداني، أبو فراس: **الديوان**، تحقيق بدر الدين حاضري محمد حمــامي، ط1، بيــروت، دار الشرق العربي، 1412هـ/1992م.

الحميري، محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيــق إحســان عبــاس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975م.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم: **شفاء القلوب في أخبار بني أيوب**، تحقيق وتعليق مديحة الشرقاوي، مصر، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1415هـ/1996م.

ابن الخطيب، لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيــق محمــد عبــد الله عنــان، ط1، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1397هـ/1977م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي: **تاريخ ابن خلدون** (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ط1، اعتنــى بــه وراجعه درويش الجويدي، بيروت، المكتبة العصرية، 1428هـ/2007م.

ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1970م.

ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي: **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، تحقيــق ســمير طبّاره، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1420هـ/1999م.

الدواداري، أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك:

* **كنز الدرر وجامع الغرر**،ج7 (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق ســعيد عبــد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1391هـ/1972م.

* **كنز الدرر وجامع الغرر**،ج8 (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيــق أولْــرِخ هارمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1391هـ/1971م.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان:

* **تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط 1، بيروت، دار الكتاب العربي، 1419هـ/1999م.

* **تذكرة الحفاظ**، وضع حواشيه الشيخ زكريا عميرات، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ/1998م.

* **سير أعلام النبلاء**، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي هلال السرحان، ط7، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1410هـ/1990م.

* **العبر في خبر من غبر**، حققه وضبطه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط4، بيروت، دار الجيل، 1972.

الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين: **شرح المعلقات العشر**، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1979م.

ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر: **صدق الأخبار**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، لبنان، جروس برس،1413هـ/1993م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عثمان:

* **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1418هـ/1997م

* **طبقات الحفاظ**، تحقيق علي محمد عمر، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 1393هـ/1973م.

أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي: **تراجم رجال القرنين السادس والسابع** المعروف بـ**(الذَّيل على الروضتين)**، ط2، بيروت، دار الجيل، 1394هـ/1974م.

ابن الشحنة، أبو الفضل محمد: **تاريخ حلب**، علق عليه أبو اليمن البتروني، تحقيق كيكو أوتا، 1990م.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم: **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**، تحقيق يحيى زكريا عبارة، دمشق، وزارة الثقافة، 1991م.

ابن الشعار الموصلي، كمال الدين أبو البركات المبارك: **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**، تحقيق كامل سلمان الجبوري، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م.

الصالحي، محمد بن طولون: **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، تحقيق محمد أحمد الدهمان، دمشق، 1401هـ/1980م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك:

* **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، بيروت، دار الفكر المعاصر، دمشق، دار الفكر، 1997م.

* **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب**، تحقيق إحسان خلوصي وزهير حميدان الصمصام، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1992م.

* **الوافي بالوفيات**، الأجزاء(1-17)(19-22)، ط3، ب.م، فرانز شتاينر، 1411هـ/1991م

* **الوافي بالوفيات**، ج18، ج29، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ/2001م.

ابن طباطبا، محمد بن أحمد: **عيار الشعر**، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1956م.

العامري، لبيد بن ربيعة: **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري**، تحقيق وتقديم إحسان عباس، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1962م.

العباسي، عبد الرحيم بن أحمد: **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، بيروت، دار الكتب العلمية، 1974م.

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله: **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ/1996م.

العسكري, أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: **الصناعتين**, تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1, دار إحياء الكتب العربية, 1371هـ/1952م.

العلوي, المؤيد بالله يحيى بن حمزة: **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز**, تحقيق دكتور بن عيسى باطاهر, ط1، بيروت, دار المدار الإسلامي، 2007.

ابن العماد، عبد الحيّ بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، ط1، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، 1412هـ/1991م.

العيني، بدر الدين محمود: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج(1) سنة 1407هـ/1987م. ج(3) سنة 1409هـ/1989م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تحقيق مصطفى الشُّويمي، بيروت، مؤسسة أ. بدران، 1382هـ/1963م.

أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي: **المختصر في أخبار البشر**، بيــروت، دار المعرفــة، ب.ت.

ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد: **الديباج المذهب في معرفة أعيــان علمــاء المــذهب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت.

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق محمد إبراهيم حوّر، أبو ظبي، المجمع الثقافي، 1424هـ/2003م.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي: **نقد الشعر**، تحقيــق محمــد عبــد المــنعم خفاجي، بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن: **الإيضاح في علوم البلاغــة**، بغــداد، مكتبة النهضة، ب.ت.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد: **مآثر الأنافة في معالم الخلافــة**، تحقيق عبد الســتار أحمــد فراج، ط2، بيروت، عالم الكتب، 1980م.

القيس، امرؤ: **الديوان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط4، القاهرة، دار المعارف، ب.ت.

الكتبي، محمد بن شاكر:

* **عيون التواريخ**، ج20، تحقيق فيصل السامر ونبيلة داود، بغداد، دار الرشيد، 1980م.

* **عيون التواريخ**،ج21، تحقيق فيصل السامر ونبيلة داود، بغداد، دائرة الشؤون الثقافيــة والنشر، 1984م.

* **فوات الوفيات**، مج2، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمــد عبــد الموجــود، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية،1421هـ/2000م.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي:

* **البداية والنهاية**، ط1، بيروت، مكتبة المعارف، 1966م.

* **قصص الأنبياء**، تحقيق ومراجعة لجنة من العلماء، ط1، المنصورة، مكتبة الإيمان، ب.ت.

ابن مطروح، جمال الدين يحيى المصري: **الديوان**، قسطنطينية، مطبعة الجوائب، 1298هـ.

المشد، سيف الدين علي بن عمر بن قزل: **الديوان**، تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي، القدس، مركز التعاون والسلام الدولي، 2002م

ابن المغيزل: نور الدين علي بن عبد الرحيم بن أحمد: **ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1425هـ/2004م.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بيروت، دار صادر، 1968م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر:

* **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تحقيق كرم حلمي فرحات،ط 1، الهرم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، 1427هـ/2007م.

* **السلوك لمعرفة دول الملوك**، صححه وضبط حواشيه محمد مصطفى زيادة، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1956م.

* **المقفى الكبير**، تحقيق محمد اليعلاوي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1411هـ/1991م.

* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ط2، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1408هـ/1987م.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم: **لسان العرب**، ط1، بيروت، دار صـــادر، 1956م.

النبهاني، يوسف بن إسماعيل: **المجموعة النبهانية في المدائح النبوية**، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1996م

النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي: **الدارس في تاريخ المدارس**، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1410هـ/1990.

النواجي، شمس الدين محمد بن حسن: **الشفاء في بديع الاكتفاء**، تحقيق حسن محمد عبد الهادي، ط1، عمان، دار الينابيع، 2004م.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ج27، تحقيق ســعيد عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405هـ/1985م.

ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق عمر عبـد السلام تدمري، ط1، بيروت، المكتبة العصرية، 1425هـ/2004م.

ابن الوردي، زين الدين عمر ابن المظفر بن أبي الفوارس: **تتمة المختصر في أخبـار البشـر**، المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، ط1، بيروت، دار المعرفة، 1970م.

اليافعي، عبد الله بن سعيد بن علي بن سليمان: **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ط1، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ/1970م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي:

* **معجم الأدباء**، الطبعة الأخيرة، مصر، دار المأمون، 1960م.

* **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، دار الكتب العلمية، ب.ت.

اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن أحمد: **ذيــل مــرآة الزمــان**، القــاهرة، دار الكتــاب الإسلامي، 1413هـ/1992م.

ثانياً: المراجع:

الأتروشي، شوكت عارف، **الحركة الفكرية في مصر خلال العصر الأيــوبي**، ط1، عمــان، دار دجلة، 2007م.

أنيس، إبراهيم وآخرون: **المعجم الوسيط**، ط21، القاهرة، ب.ن، 1392هـ/1972م.

باشا، عمر موسى: **الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك**، ط1، بيــروت، دار الفكر المعاصر، 1409هـ/1989م.

باطاهر، بن عيسى: **البلاغة العربية مقدمات وتطبيقــات**، ط1، بيــروت، دار الكتــاب الجديــد المتحدة، 2008م،

بدوي، أحمد أحمد:

* **الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام**، ط2، القــاهرة، دار نهضــة مصر، 1979م.

* **أسس النقد الأدبي عند العرب**، القاهرة، دار نهضة مصر، 1994م.

بكار, يوسف: **بناء القصيدة في النقد العربي القديم** في ضوء النقد الحديث، ط2، بيــروت، دار الأندلس، 1403هـ/1983م.

بودويك، محمد: **شعر عز الدين المناصرة**، ط1، عمان، دار مجدلاوي، 1427هـ/2006م.

التونجي، محمد: **التيارات الأدبية إبان الزحف المغــولي**، ط1، دمشق، دار طــلاس للدراســات والترجمة والنشر، 1987م.

الجبوري، كامل سلمان: **معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سـنة2005م**، ط1، بيـروت، دار الكتب العلمية، 1426هـ/2005م.

حاوي، إيليا: **فن الوصف وتطوره في الشعر العربي**، ط3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980.

الحصني، محمد أديب آل تقي الدين: **منتخبات التواريخ لدمشق**، تقديم كمال سليمان الصـليبي، ط1، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1399هـ/1979م.

الحليبي، محمود بن سعود بن عبد العزيز: **الحركة الأدبية في مجالس هـارون الرشـيد**، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1428هـ/2008.

الخالدي، عبد الله: **المورد العذب في بعض الكلام الدخيل في كلام العُـرب**، ط1، بيـروت، دار الروضة، 1419هـ/1998م.

الخطيب، مصطفى عبد الكريم: **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط1، بيروت، مؤسسـة الرسالة، 1416هـ/1996م.

زامْباوَرْ، إدواردفون: **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، إخـراج زكـي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول، 1951م.

الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، ط12، بيروت، دار العلم للملايين، 1997م.

زغلول، محمد، **الأدب في العصر الأيوبي**، القاهرة، دار المعارف، 1983.

زين العابدين، شمس الدين نجم: **معجم الألفاظ والمصـطلحات التاريخيـة**، ط1، القـاهرة، د.ن 1427هـ/2006م.

السامرائي، فراس حياوي، **التقاليد والعادات الدمشقية خلال عهـود السـلجوقيين والـزنكيين والأيوبيين**، ط1، دمشق، دار الأوائل، 1425هـ/2004م.

شاكر، محمود: **التاريخ الإسلامي (**العصر المملوكي 656-923**)**، ط4، بيروت وعمان ودمشق، المكتب الإسلامي، 1411هـ/1991م.

شكارنة، عمر، **أبو شامة المقدسي**، نابلس، الدار الوطنية، 1420هـ/1999م.

الصعيدي، عبد المتعال: **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، القاهرة، مكتبة الآداب، 1417هـ/1997م.

الطباخ، محمد راغب: **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، صححه وعلق عليه محمد كمال، ط2، حلب، دار القلم العربي، 1408هـ/1988م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح: **مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، 2000م.

العبادي، أحمد مختار: **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م.

عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: **فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي**، ط1، عمان، دار الرازي، 1424هـ/ 2003م.

عبد المهدي، عبد الجليل حسن: **الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري**، ط1، عمان، مكتبة الأقصى، 1397هـ/1977م.

عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ط2، بيروت، دار التنوير، 1983م.

عطية الله، أحمد: **القاموس الإسلامي**، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1386هـ/1966م.

عكاوي، إنعام فوال: **المعجم المفصل في علوم البلاغة**، مراجعة أحمد شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/1992م.

أبو عمشة، عادل: **العروض والقافية**، ط1، نابلس، **مكتبة خالد بن الوليد**، 1406هـ/1986م.

فروخ، عمر: **تاريخ الأدب العربي**، ط5، بيروت، دار العلم للملايين، 1989م.

القط، عبد القادر: **في الشعر الإسلامي والأموي**، بيروت، دار النهضة العربية، 1979م.

كحالة، عمر رضا: **معجم المؤلفين**، اعتناء وجمع وإخراج مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1414هـ/1993م.

محمد، سراج الدين: **المديح في الشعر العربي**، ط1، بيروت، دار الراتب الجامعية، ب.ت.

محمد كرد علي: **خطط الشام**، بيروت، دار العلم للملايين، 1391/1971م.

مفتاح، محمد: **تحليل الخطاب الشعري** (استراتيجية التناص)، ط1، بيروت، دار التنوير، 1985م.

الهيب، أحمد فوزي، **الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء**، ط1، الكويت، مكتبة المعلا، 1407هـ/1987م.

وعد الله، ليديا: **التناص المعرفي في شعر عز الدين المناصرة**، عمان، دار مجدلاوي، 2005م.

اليازجي، ناصيف: **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، ب.م، ب.ن، 1955م.

يوسف، خالد: **الشعر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان**، بيروت، ط1، دار النهضة العربية، 2003م.

ثالثاً: الدوريات:

حسين، محمد طه: ***التناص في رأي ابن خلدون***، **مجلة فكر ونقد**، العدد32، ج4، 2000م/ ص127-130.

عودة، خليل: ***المستوى الدلالي للون في شعر عنتـــرة***، **مجلـــة الـــدارة**، العـــدد2، الســـنة 22، 1417هـ/ص223-245.

رابعاً: الأطروحات الجامعية:

بدّور، كمال، **مملكة حلب الأيوبية 589-658هـ/ 1193-1260م**،(رســالة ماجســتير غيــر منشورة)، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 1418هـ/ 1998م.

الحويطات، مفلح ضبعان: **شعر الهجاء في مصر والشام زمــن الحــروب الصــليبية**،(رســالة ماجستير غي منشورة)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 1999م.

الرفوع، هاني محمد حمود: **ديوان ابن قزل المشد** دراسة و تحقيق، (رســالة ماجســتير غيــر منشورة)، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، 2000م.

سبيناتي، هناء علي: **صورة المجتمع في الشعر المملوكي**، (رسالة دكتــوراه غيــر منشــورة)، جامعة دمشق، دمشق، سوريا، 2007م.

الصايغ، هنرييت زاهي سابا: **اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشــام** (رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة القاهرة، مصر، 1400هـ/1980م.

عبد الرحيم، رائد: **صورة المغول في الشعر العربي- العصر المملوكي**، (رسالة ماجستير غيــر منشورة)، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن،1997م.

عودة، خليل محمد حسين: **الصورة الفنية في شعر ذي الرمة**، (رسالة دكتوراه غير منشــورة)، جامعة القاهرة، القاهرة، مصر، 1987م.

خامسا: منشورات المؤسسات

دائرة المعارف الإسلامية، ط1، ج31، ص9863، 1418هـ/1998م، مركز الشارقة للإبــداع الفني، الشارقة.

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

The Poetic movement in the court of King Al-Nasser Salah al-Din Yousuf Ibn Al-Aziz (634-658 a.h)

By
Fadi Abdal-Rahem Mahmoud Odeh

Supervision
Dr. Raed Abdal-Rahem

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.
2010

The Poetic movement in the court of King Al-Nasser Salah al-Din Yousuf Ibn Al-Aziz (634-658 a.h)

By
Fadi Abdal-Rahem Mahmoud Odeh
Supervision
Dr. Raed Abdal-Rahem

Abstract

This study sought to examine the poetry movement in the royal court of King Al-Nasser Salah Al-Din Yousuf Ibn Al-Aziz (634-658 H). This study is considered one of the literary research chains in the history of Arabic literature. It uncovers an era in which poetry prospered during the Ayyubid and Mamluki rules. The study dwelt on the poetry activity during the rule of King Al-Nasser from 634-658 H. The researcher read well the poetry of that era, identifying its poets and their poetry. He tackled the poetry of the period in terms of subject matter and artistic form. He also dwelt on the poetry councils during the rule of the king, focusing on the topics raised by them. To that end, the researcher used the inductive descriptive and analytical method. The study falls into an introduction and four chapters. In chapter one the researcher introduced King Al-Nasser and shed light on the political, social and cultural life conditions during his rule. Chapter two was devoted to King Al-Nasser's poetry and his poetry councils. Chapters three and four investigated respectively the subject matter of poetry in the royal court and the artistic aspects of that poetry.